الطبعة 2

حياة النحل السرية

رواية

سو مونك كيد



ترجمة: فدوى البقالي



مقـدمـة

حين هممت بانتقاء عمل أدبي أجنبي يستحق أن يُقدّم للقارئ العربي، لم أتردد ولو للحظة في اختيار رواية سو مونك كد، «حياة النحل السرية»، التي تحظى بمكانة عزيزة على قلبي. وكنت قد تعرفت إلى الكتاب لأول مرة في عام ٢٠١١، حين أهدتني إياه أستاذتي في مدرسة الملك فهد العليا للترجمة، أورليز ديفيس، عند تخرجي. وقالت إن الكتب الأكثر مبيعا لا تستهويها في العادة، ولكن شيئا ما شدها إلى هذا الكتاب الذي عثرت عليه عند أحد باعة الكتب المستعملة، وقد تآكل جزء من غلافه. ولم يخب ظنها ولا ظني به. والحقيقة أنني استمتعت بقراءة الرواية وأحببتها إلى درجة جعلتني أشرع في ترجمة الفصل الأول منها حالما انتهيت من قراءتها، مستغربة ألا يُترجَم عمل بتلك الروعة إلى اللغة العربية، مع أنه تُرجِم إلى العديد من اللغات الأخرى وحُوِّل إلى إنتاج سينيمائي ضخم ونال العديد من الجوائز.

والكتاب، وإن أوحى عنوانه بكونه عملا وثائقيا أو بحثا علميا، فهو على العكس من ذلك، عمل أدبي بامتياز، يغوص في عالم لِيلِي، الفتاة ذات الأربعة عشر ربيعا، التي تعيش مع والدها في مزرعة الدراق، على مقربة من بلدة سيلفان، وتعاني من غلظة طبعه وقسوته ومن أنواع العقوبات التي لم يكن لأحد غيره أن يخترعها. وتعاني ليلي كذلك من غياب والدتها التي توفيت وهي في الرابعة من عمرها. وكانت مسألة وفاتها أمرا يتحاشى الجميع الخوض فيه، غير مدركين أن ذاكرة ليلي

لم تتخلص تماما من صدى العيار الناري الذي انطلق ذلك اليوم، بل إن تلك الذكرى تؤرقها وتجعلها واثقة من كونها شخصا لا يستحق الحب. ولتهرب ليلي من كل ذلك، فإنها تنزوي، بين الفينة والأخرى، إلى ركن قصي من المزرعة، وتركن إلى بعض الأشياء التي تبقت من مقتنيات أمها: زوج من القفازات البيضاء، وصورتان، إحداهما لوالدتها والأخرى لمريم السوداء وقد أُلصِقت على إطار خشبي وكُتِب خلفها عنوان مبهم «تيبورون، ك. ج.».

وتعتني بليلي مربيتها السوداء، روزالين، التي تجمع بين الطيبوبة والعِناد وتتسم أفعالها بشيء من البلاهة والفظاظة. وليس لروزالين أطفال، ولذلك فقد كانت ليلي بمثابة فأر تجارب لها على مدى العشر سنوات الماضية.

وتطبع الرواية أجواء ما قبل التوقيع على مشروع قانون الحقوق المدنية وسعي المواطنين الأمريكيين السود إلى تحقيق المساواة وإنهاء الفصل والتمييز العنصريين، وما رافق ذلك من اشتباكات. وحين تتوجه روزالين إلى سيلفان، في الرابع من تموز، لتسجيل اسمها في قائمة المصوتين، يحدث جدال بينها وبين أكثر كارهي السود في البلدة، فما يكون منها إلا أن تُفرِغ مبصقتها على حذائه، فيُزَجّ بها في السجن. وبعد ذلك، تساعدها ليلي على الهرب، وتنطلق الاثنتان إلى بلدة تيبورون، على أمل إيجاد حياة أفضل هناك وكشف سر العنوان الموجود خلف صورة مريم السوداء.

وفي تيبورون تبدأ الاثنتان حياة جديدة في منزل الأخوات بوترايت. وتدخل ليلي تجربة مُنضِجة يتصارع فيها بداخلها الحب والكره، الكذب والصدق، الوهم والحقيقة، وتحتار بين الهروب وتقبل الأمور ومواجهتها. وتلجأ إلى الطبيعة وإلى عالم النحل حيث تعلمها آب بوترايت تربية النحل وتفسر لها عالمه وكيف يتقاطع مع عالم الإنسان في أشياء كثيرة. وتكتشف ليلي الكثير من الوقائع والحقائق التي تجعل الصورة التي بنتها في مخيلتها عن أشخاص وأحداث معينة تتفكك، فتجد نفسها مضطرة إلى إعادة تركيبها على ضوء الحقائق الجديدة. وهنا تمر شخصيتها بتقلبات شتى، فتراك تتعاطف معها تارة، وتستغرب تصرفاتها تارة أخرى، وقد يحدث أن تشعر بالحنق تجاهها. وهنا يكمن عنصر الإثارة في الرواية، فشخصيتها الرئيسية ليست شخصية كاملة، ولا جامدة هامدة، وإنما هي شخصية متطورة، ترى جانبيها المظلم والمشرق، المنفر والمثير، وتتابع رحلتها التي تبدأ بعدم تقبل الحقائق والأشياء إلى محاولة فهمها، فتفهُّمِها ثم القبول بها، ومنه، الوصول إلى السلام الداخلي والتصالح مع الذات والآخرين.

إنها رواية مثيرة ومؤثرة، كُتِبت بأسلوب سلس يجعلك تقلب الصفحات متشوقا لمعرفة ما سيحدث وللغوص أكثر في عالم شخصياتها. وأملي أن أكون قد وُفِّقت في ترجمتها ووضعِها بين يدي القارئ العربي للاستمتاع بقراءتها واستقاء الدروس منها.

- فدوى البقالي

إن الملكة، من جهتها، هي القوة التي توحد الجماعة. وإذا ما انتشِلت من الخلية، فإن الخادمات سرعان ما تتحسسن غيابها. وفي غضون بضع ساعات، أو ربما أقل، يعطي سلوكهن إشارات واضحة عن فقدان الملكة.

Man and Insects

الفصل الأول

عادة ما كنت أستلقي على السرير وأتابع العرض. أتابع النحل وهو يشق طريقه عبر تشققات جدار غرفتي، ويحوم حول الغرفة محدثاً أصواتاً حادة، كهدير محرك ززززززززز... فيدغدغ جلدي. وكنت أتابع أجنحة النحل وهي تلمع وسط الظلام مثل قطع من الكروم فأحس بشيء من الحنين يحتقن في صدري. إن الطريقة التي كان يطير بها النحل، من دون أن يكون ذلك بحثاً عن زهرة، وإنما فقط من أجل استشعار الريح، كانت تجعل قلبي ينشق إلى نصفين.

وخلال النهار، كنت أسمع النحل وهو يشق طريقه عبر جدران غرفتي، محدثاً ما يشبه صوت راديو منبعثٍ من غرفة مجاورة. وكنت أتخيله وهو يحوّل الجدران إلى أقراص شهد يندلق منها العسل لأتمكن أنا من تذوقه.

لقد أتي النحل إليَّ في صيف عام ١٩٦٤، ذلك الصيف الذي بلغت فيه عامي الرابع عشر وانتقَلت فيه حياتي إلى مدار جديد، وأقصد مداراً آخر مختلفاً تماماً عن سابقه. والآن، وأنا أسترجع ما حدث، أود القول إن النحل كان قد أُرسِل إلي، وإنه أتى إليَّ تماما كما ظهر الملك جبريل لمريم العذراء، لتحريك الأحداث بطريقة لم أكن لأتوقعها. وأعرف أن

في تشبيه حياتي البسيطة بحياة مريم العذراء ضرباً من الغطرسة، ولكني أعتقد أنها لم تكن لتمانع الأمر. سأشرح ذلك لاحقاً، وسأكتفي الآن بالقول إنه رغم كل ما حدث ذلك الصيف، فإنني ما زلت أكن المحبة للنحل.

****

١ تموز ١٩٦٤

كنت مستلقية على فراشي أنتظر قدوم النحل وأفكر فيما قالته روزالين عندما أخبرتها عن زياراته الليلية: إن النحل يحتشد قبل حلول الموت.

لقد بدأت روزالين في العمل في منزلنا عندما توفيت أمي. وكان أبي، الذي كنت أناديه تي- ري لأن لقب أبي لم يكن يناسبه بتاتاً، قد أحضرها من بستان الدراق الذي كانت تعمل فيه كلاقطة. وكان لروزالين وجه مستدير كبير وجسد يتدلى من صدغها كخيمة صغيرة. لقد كانت سوداء وكأن الليل ينبع من جلدها. وكانت تعيش بمفردها في منزل صغير داخل الغابة، غير بعيد عنا. وكانت تأتي كل يوم لتقوم بأعمال الطبخ والتنظيف وتأدية دور أم بديلة لي. ولم يكن لروزالين أطفال قط، ولذلك فقد كنت فأر تجاربها طوال السنوات العشر الأخيرة.

إن النحل يحتشد قبل حلول الموت. لقد كانت روزالين مليئة بالأفكار المجنونة التي تعودت تجاهلها. ولكني استلقيت على فراشي تلك المرة واستغرقت في تأمل الفكرة متسائلة ما إن كان النحل قد أتى حاملاً معه فكرة موتي. وفي الحقيقة، لم تكن الفكرة تزعجني تماماً. وكان

من الممكن أن تنزل إليَّ كل نحلة منهن كما لو كن سرباً من الملائكة لتلسعني حتى الموت. ولم يكن ذلك أسوأ ما يمكن أن يحدث. إن من يعتقدون أن الموت هو أسوأ ما يمكن أن يحل بهم لا يدرون شيئاً عن الحياة.

توفيت أمي عندما كنت في الرابعة من عمري. وكان ذلك حقيقة ثابتة، ولكني كلما أثرت الأمر، كان الناس من حولي يصرفون نظرهم فجأة إلى دواحسهم أو إهاب أظافرهم أو إلى أماكن بعيدة في السماء، ويتصرفون وكأنهم لا يسمعونني. وكان يحدث أن يشفق علي أحدهم ويقول:

- توقفي عن التفكير في الأمر يا لِيلي. لقد كان ذلك مجرد حادث. وأنت لم تقصدي فعل ذلك.

وفي تلك الليلة استلقيت على سريري وفكرت في الموت، وفي أن أكون رفقة أمي في الجنة. وكنت سألتقيها وأقول لها:

- أمي. سامحيني. أرجوك سامحيني.

وكانت هي ستقبل جلدي إلى أن يصير متشققاً وتقول لي إنه لا لوم علي. وكانت ستقولها لي لعشرة آلاف سنة الأولى.

وخلال العشرة آلاف سنة التي تليها، كانت ستصفف شعري وتمشطه وتجعل منه برجاً جميلاً يضع جميع من في الجنة قيثاراتهم جانباً ليستمتعوا بالنظر إليه. إن بإمكانك معرفة يتيمات الأم من خلال مظهر شعرهن. فقد كان شعري يتشعب في جميع الاتجاهات، وكان تي-ري

يرفض طبعاً أن يشتري لي بكرات الشعر، ولذلك لم يكن في وسعي إلا أن ألف شعري حول علب ويلتش لعصير العنب، وهو ما كان يقض مضجعي ويجبرني أن أختار بين أن يحظى شعري بمظهر مقبول أو أن أنام جيداً.

وقد قررت أن أخصص أربعة قرون أو خمسة لأخبر أمي عن فظاعة العيش مع تي-ري. لقد كان عنيداً طوال الوقت، ولكن عناده كان يحتد خلال فصل الصيف حين كان يعمل في بستان الدراق من طلوع الشمس إلى مغربها. وكنت أتفادى اللقاء به في أغلب الأحيان. لقد كان يغدق كل عطفه على سناوت، كلبته المحبوبة، التي كانت تنام على فراشه وتهرش بطنها كلما تمرغت على ظهرها النحيل. وقد رأيتها وهي تتبول على حذاء تي-ري دون أن يثيره ذلك البتة.

ولطالما طلبت إلى الرب أن يفعل شيئاً بتي-ري الذي واظب على الذهاب إلى الكنيسة لأربعين عاماً ولكنه لم يزدد إلا سوءاً. وكان يبدو أن في ذلك رسالة ما للإله.

دخلت فراشي. وكان الصمت يطبق على الغرفة، ولم تكن هناك أي نحلة على الإطلاق. وفي كل دقيقة. كنت أتفقد عقارب الساعة القابعة فوق المنضدة وأتساءل عما كان يمنع النحل من الظهور.

وأخيراً، عند منتصف الليل تقريباً، وحين كاد جفناي يستسلمان للنوم، تناهت جلبة من ركن الغرفة، جلبة خفيفة ومتذبذبة، صوت تكاد تحسبه مواء قطة. وبعد لحظات، تحركت على الجدران ظلال أشبه برشات طلاء، فحجبت الضوء عندما اجتازت النافذة حتى إني

استطعت رؤية تفاصيل أجنحتها. وتضخم الصوت في العتمة إلى أن أصبحت الغرفة برمتها ترتج، وانبعثت الحياة في الهواء نفسه وتلبد بالنحل. وأخذ النحل يطوف حول جسدي وأدخلني وسط دوامة هوائية حتى لم أعد أستطيع سماع أفكاري من شدة وقع طنينه.

وغرزت أظافري في راحتيْ يدي إلى أن كاد جلدي يصبح متعرجاً. قد يدنو المرء من الموت إذا لُسِع في غرفة ممتلئة بالنحل.

ومع ذلك، كان المشهد مذهلاً بمعنى الكلمة. وفجأة، لم أستطع تحمل فكرة ألا يراه أحد غيري، حتى وإن كان الشخص الوحيد القريب مني هو تي-ري. وحتى وإن لسعته نحلة أو اثنتان، حسناً... كنت سأتأسف لذلك.

وتسللت خارج الغطاء واندفعت وسط النحل متجهة نحو الباب. وحاولت إيقاظ تي-ري بأن لمست ذراعه بإصبع واحد وبحذر أول الأمر، ثم بطريقة أكثر فأكثر شدة إلى أن وخزته وقد عجبت لصعوبة إيقاظه.

وهرع تي-ري خارج الفراش، ولم يكن يرتدي غير ثوبه الداخلي. وسحبته نحو غرفتي بينما كان يحذرني من ألا يكون الأمر جدياً كأن تكون النار قد أضرمت في البيت. وكانت سناوت تنبح وكأننا في رحلة لصيد الحمام. فهتفتُ قائلة:

- نحل! هناك ثول نحل في غرفتي!

ولكن، عندما بلغنا الغرفة، كان النحل قد تسرب عبر الحائط وكأنه

كان يدري أن تي-ري قادم، ولم يكن يرغب في تبديد متعته بالطيران بلسعه.

وصاح تي-ري:

- اللعنة يا ليلي، هذا ليس طريفاً.

وتفحصت الجدران، وانحنيت لتفقد أسفل السرير وتوسلت حتى الغبار ولفائف سريري أن تُظهِر ولو نحلة واحدة. ثم قلت:

- لقد كان هنا، يحوم في جميع أرجاء الغرفة.

- نعم، لقد كان هنا قطيع من الجواميس اللعينة أيضاً.

وقلت:

- أنصت قليلاً... يمكنك أن تسمع طنينه.

ووضع أذنه على الحائط متصنعاً الجدية، ثم قال:

- لا أسمع أي طنين.

وأدار إصبعه بالقرب من صدغه وأضاف:

- لا بد أنه خرج من ساعة الوقواق التي تسمينها دماغاً. إذا أيقظتني مجدداً يا ليلي، سأخرج المارتا وايتس، هل سمعت ذلك؟

وكان المارتا وايتس عقاباً لم يكن لأحد غير تي-ري أن يأتي به. ولذلك فقد ابتلعت لساني على الفور.

ولكني ما كنت لأدع الأمر يمر مرور الكرام، فلم أكن أريد أن

يعتقد تي-ري أني كنت بائسة لدرجة تجعلني أدعي هجوم النحل لأجذب الاهتمام. ولذلك، خطرت ببالي تلك الفكرة العبقرية باصطياد النحل في مرطبان لأريه لتي-ري وأقول له: انظر الآن، هل كان الأمر مجرد ادعاء؟

****

ترجع الذكرى الأولى والوحيدة التي أحتفظ بها عن أمي إلى يوم وفاتها. ولطالما حاولت استرجاع صورة لها قبل ذلك اليوم، ولو خيطاً رفيعاً، ربما ذكرى لها وهي تضعني في سريري قبل النوم أو وهي تقرأ لي مغامرات العم ويغلي، أو تنشر ملابسي الداخلية قرب المدفأة خلال الصباحات الصقيعية. ولم أكن لأمانع حتى ذكرى لها وهي تقطع قضيباً من شجرة الفورسيشيا وتخز ساقي به.

وفي ٣ كانون الأول من عام ١٩٥٤، ذلك اليوم الذي توفيت فيه، كان الفرن قد جعل جو الغرفة حاراً لدرجة جعلت أمي تخلع كنزتها وتبقى بقميص قصير الأكمام، وكانت ترج نافذة غرفتها بعنف وتصارع الطلاء الملتصق بها قبل أن تستسلم في الأخير وتقول:

- حسناً، أعتقد أننا سنحترق في هذا الجحيم.

وكان شعرها أسود غزيراً وكانت تجعداته الكثيفة تتدلى على وجهها، ذلك الوجه الذي لم أستطع استرجاعه رغم حدة كل شيء آخر.

بسطت ذراعي لها فحملتني قائلة إنني كنت أكبر من أن تحملني بتلك الطريقة، ولكنها حملتني رغم ذلك. وما إن رفعتني حتى غمرني عطرها.

وقد سكنني ذلك العطر إلى الأبد، وكانت فيه حلاوة القرفة. وكنت بعد ذلك أقصد متجر سيلفان ميركنتايل وأستنشق جميع العطور المعروضة محاولة العثور على ذلك العطر. وفي كل مرة كنت أدخل فيها المتجر، كانت البائعة تتصنع المفاجأة، وتهتف:

- يا إلهي، انظروا من أتى إلينا!

وكأنني لم أكن هناك الأسبوع الماضي وفتحت جميع قنينات العطر الموجودة هناك. شاليمار؛ شانيل رقم ٥؛ وايت شولدرز.

وكنت أسألها في كل مرة:

- هل لديكم عطور جديدة؟

ولم يحدث أن أحضروا عطراً جديداً. ولذلك، فقد صعقت عندما شممت العطر الذي كنت أبحث عنه على معلمة الفصل الخامس التي قالت إن تلك لم تكن سوى رائحة مرهم بوندز كولد كريم.

وفي ذلك الأصيل الذي توفيت فيه أمي، كانت هناك حقيبة مفتوحة على الأرضية بمحاذاة الشباك الذي استعصى عليها فتحه. وكانت أمي تتحرك من خزانة الملابس وإليها، وتدس الملابس في الحقيبة دون أن تتكلف عناء طيها.

وكنت ألحق بها إلى الخزانة وأحشر نفسي تحت أكمام الفساتين وأرجل السراويل، بين الظلام والغبار والحشرات الصغيرة الميتة حيث كان وحل البستان ورائحة الدراق العفن عالقين بحذاء تي-ري. وأقحمت يدي داخل زوج حذاء أبيض عالي الكعب وقرقعتهما ببعضهما.

لقد كانت أرضية الخزانة تهتز كلما صعد أحد السلالم التي تحتها، وهكذا عرفت بقدوم تي-ري. وعلى مقربة مني، كنت أسمع أمي وهي تخرج الملابس من الشماعات وهسهسة الملابس وخشخشة الأسلاك وهي تلامس بعضها. وكانت أمي تردد، هيا، بسرعة.

وعندما أخذ تي-ري يمشي في الغرفة بتثاقل وجلبة، تنهَّدَت أمي وانقطعت أنفاسها وكأن رئتيها قد انقبضتا فجأة. وهذا آخر ما أتذكره بوضوح تام، نَفَسُها وهو ينزل إليَّ كمظلة هبوط صغيرة ثم يسقط بين كومة الأحذية دون أن يترك أي أثر.

لا أذكر ما كانا يقولانه. وكل ما أتذكره هو الحنق الذي كانت كلماتهما محملة به، وكيف أصبح الهواء جافاً ومتورماً. وفي وقت لاحق، أصبح ذلك يذكرني بعصافير عالقة في غرفة مغلقة ترتطم بالنوافذ والجدران وببعضها البعض. وتراجعتُ ببطء نحو الخلف، إلى داخل الخزانة، ووضعت أصابعي في فمي فأحسست بطعم الأحذية، بطعم الأرجل.

أخرجتني من الخزانة يد لم أعرف لمن كانت، ثم وجدت نفسي بين ذراعي أمي، مغمورة بعطرها. ومررت يدها على شعري وقالت "لا تخافي"، ولكن حتى وهي تقول ذلك، اجتثني تي-ري من بين ذراعيها وأخذني إلى الباب ووضعني عند المدخل، ثم قال:

- اذهبي إلى غرفتك.

- لا، أنا لا أريد ذلك.

قلت، وحاولت تخطيه والدخول إلى الغرفة حيث كانت أمي.

- اللعنة، اذهبي إلى غرفتك!

صاح تي-ري ودفعني بعنف، فانتهى بي المطاف عند الحائط ثم سقطت على يدي وركبتي. ورفعت رأسي ونظرت باتجاهه لأجد أمي تركض في الغرفة، وكانت متجهة صوبه وهي تصرخ فيه:

- اتركها. دعها وشأنها.

وربضتُ بجانب الباب وتابعت المشهد في جو بدا مليئاً بالخدوش. ورأيته يمسك بكتفيها ويهزها، ورأيت رأسها يرتج وشفتيها تبيضان.

ومع أن كل شيء يصبح ضبابياً في ذاكرتي انطلاقاً من تلك اللحظة، أتذكر أنها اندفعت بقوة نحو الخزانة، محررة نفسها من يديه اللتين كانتا تمسكان بها، وحاولت التقاط شيء من الرف العالي: وعندما لمحت المسدس بين يديها، ركضت نحوها، دون أن أعي بذلك تماماً ووقعت، وكنت أرغب في إنقاذها، وفي إنقاذنا جميعاً.

وتوقفت عقارب الساعة عندئذ. وما تبقى من المشهد ينقسم إلى أجزاء واضحة في رأسي ولكنها مفككة. المسدس يلمع كلعبة بين يديها. تي-ري وهو يأخذه من يدها ويرمي به بعيداً. المسدس على الأرض. الانحناء لالتقاطه. ثم الجلبة التي أحاطت بنا.

هذا كل ما أعرفه عن نفسي. لقد كانت كل ما أردته وجعلتها ترحل.

****

كنا أنا وتي-ري نعيش على مقربة من سيلفان، في ولاية كارولاينا الجنوبية، وكان عدد سكانها يبلغ ٣١٠٠ نسمة. وتُعرف بأكشاك الدراق والكنائس المعمدانية، وكان ذلك كل شيء.

وعند مدخل المزرعة، وُضعت لافتة خشبية كبيرة كُتب عليها بأبشع لون برتقالي قد تراه في حياتك «مؤسسات أوينز للدراق». وكنت أكره تلك اللافتة، ولكنها لم تكن شيئاً يذكر مقارنة بحبة الدراق الضخمة الملصقة على الدعامة ذات الستين قدماً المغروسة إلى جانب البوابة. وكان جميع من في المدرسة يطلقون عليها اسم المؤخرة الضخمة، وأنا أنتقي كلماتي هنا. لقد كان لونها صارخاً، ولن أذكر الثنية التي كانت تصل إلى وسطها وتجعلها تشبه شكل المؤخرة بوضوح. وكانت روزالين تقول إن تلك طريقة تي-ري في إهانة الجميع. لقد كان ذلك من شيمه.

ولم يكن تي-ري يعترف بحفلات المبيت عند الأصدقاء أو بحفلات الرقص بالجوارب، ولم يكن ذلك يسبب لي أي مشكلات تذكر، فأنا لم أكن أدعى لمثل تلك الحفلات على أي حال، ولكنه كان يرفض أن يوصلني إلى البلدة لمتابعة مباريات كرة القدم أو حضور اللقاءات الجماعية التي تسبق المباريات أو إلى حملات البيتا كلوب لغسل السيارات التي كانت تنظم خلال أيام السبت. ولم يكن ليكترث بارتدائي ملابس صنعتها بنفسي في صف التدبير المنزلي أو كنزات قطنية مزخرفة بسحاب أعوج أو تنانير تتدلى تحت ركبتي، أو ثياباً لم تكن تلبسها سوى الفتيات شديدات الاحتشام. كما لم يكن ليهتم إن أنا لبست إشارة على ظهري تقول: **أنا لست فتاة شعبية ولن أكون كذلك أبداً.**

وكنت في أمس الحاجة إلى كل العون الذي قد تمدني به الموضة، بما أنه لم يسبق لأحد أن أثنى علي وقال: «ليلي، يا لك من فتاة جميلة»، باستثناء الآنسة جينينز في الكنيسة وقد كانت عشواء.

وأنا لم أكن أتفقد صورتي فقط في المرآة، وإنما كذلك في نوافذ المحلات وعلى شاشة التلفاز عندما لم يكن مشغلاً. لقد كان شعري أسود كشعر أمي إلا أنه كان بالأساس كومة من الخصلات. وكان يؤرقني ضمور ذقني، ولطالما اعتقدت أنه سيبرز في نفس الوقت الذي سينمو فيه نهداي، ولكن ذلك لم يحصل. إلا أنه كانت لي عينان جميلتان قد تشبِّههما بعيني صوفيا لورين. ومع ذلك، حتى الصبيان الذين كانت تصفيفة شعرهم تشبه ذيل البطة وتتقاطر منها مادة الجل وكانوا يحملون المشط في جيوب قمصانهم لم يبدوا اهتمامهم بي رغم أنهم كانوا يعتبرون من المتعطشين.

واتخذت المسائل الموجودة تحت عنقي شكلها، دون أن يعني ذلك أنه كان في استطاعتي الكشف عن ذلك الجزء من جسدي. وكانت الموضة أن تلبس الفتيات قمصاناً وسترات متطابقة من الكاشمير وتنانير بمربعات ملونة تصل إلى منتصف الفخذ، ولكن تي-ري كان يرفض أن أخرج بتلك الهيئة رفضاً قاطعاً. فهل كنت أرغب بأن ينتهي بي المطاف وأنا حامل مثل بيتسي التي كانت تنورتها بالكاد تغطي مؤخرتها؟ ولا أدري كيف علم بأمر بيتسي، ولطالما حيرني ذلك، ولكن ما قاله عن تنورتها وعن الطفل كان صحيحاً. لقد كان ذلك حادثاً مؤسفاً. هذا كل ما في الأمر.

ولم تكن روزالين أكثر معرفة من تي-ري بالموضة. وحين كان الجو بارداً، ويا للإحراج، كانت تجعلني أذهب إلى المدرسة وأنا أرتدي سراويل طويلة تحت فساتين طويلة هي الأخرى.

ولم أكن أكره شيئاً أكثر من وشوشة الفتيات اللواتي كن يصمتن كلما مررت بهن، فكنت أبدأ في تقشير الجروح عن جلدي وحين لم يكن عليه أي جرح، كنت أقضم إهاب أظافري إلى أن يسيل الدم منها. لقد كنت شديدة القلق تجاه مظهري وصحة أفعالي. وكنت غالباً ما أشعر أنني أنتحل شخصية فتاة عوض أن أكون هذه الفتاة بالفعل.

وبت أراهن على أن مدرسة التجميل التابعة للنادي النسوي كانت فرصتي الحقيقية في تغيير الأمور، ولكني حين حاولت التسجيل لمتابعة دروة بعد ظهر أيام الجمعة لستة أسابيع خلال فصل الربيع الماضي، مُنِعت من ذلك لأني كنت يتيمة الأم ولم تكن لي جدة أو حتى خالة أو عمة بائسة لتقدم لي وردة بيضاء خلال حفل التخرج. وكان أن تفعل روزالين ذلك أمراً مخالفاً للقانون. فبكيت حتى تقيأت في المغسلة.

وقالت لي روزالين وهي تنظف القيء عن الحوض:

- أنت جميلة بما فيه الكفاية، ولست بحاجة إلى الذهاب إلى مدرسة متبجحة لتصبحي جميلة.

- بل، أنا في حاجة لذلك. إنهم يعلمونك كل شيء، كيف تمشين وكيف تستديرين، وما يمكن أن تفعليه بكاحلك عندما تجلسين على كرسي، وكيف تدخلين السيارة، وكيف تصبين الشاي، وكيف تخلعين قفازيك...

وأطلقت روزالين زفرة وقالت:

- يا إلهي.

- ويعلمونك تصفيف الورد في مزهرية وكيفية التحدث إلى الفتيان ونتف الحاجبين وحلاقة الساقين ووضع أحمر الشفاه...

فسألتْ روزالين:

- وماذا عن التقيؤ في المغسلة؟ هل يلقنونك طريقة جميلة لفعل ذلك؟

كم كنت أمقُتها أحياناً!

****

في الصباح الموالي لليلة التي أيقظت فيها تي-ري، وقفت روزالين عند المدخل وراقبتني وأنا أطارد نحلة وبيدي مرطبان. وكانت شفتها متدلية لدرجة أني كنت أستطيع رؤية اللون الوردي داخل فمها وكان يبدو كشمس آخذة في الطلوع.

وقالت:

- ماذا تفعلين بذلك المرطبان؟

- أنا أحاول اصطياد النحل لأريه لتي-ري، فهو يعتقد أنني كنت أكذب.

- يا إلهي.. امنحني القوة.

وكانت روزالين في الشرفة منهمكة في تقشير الفاصولياء البيضاء المجففة والشعر المحيط بجبهتها يلمع من العرق. وسحبت مقدمة

فستانها لتفتح منفذا للهواء فوق صدرها الكبير والناعم كمخدة أريكة.

وحطت النحلة على خريطة الولايات المعلقة على الحائط. وراقبتُها وهي تشق السير على طول ساحل كارولاينا الجنوبية على الطريق الرئيسية المذهلة رقم ١٧. وضغطت فتحة المرطبان على الحائط وأوقعت بالنحلة بين شارلستون وجورج تاون. وحين أحكمت الغطاء، أخذت النحلة في الالتفاف داخل المرطبان والارتطام بالزجاج محدثة أصواتاً مختلفة، فذكرتني بالبرَد وهو يطرق النوافذ.

وزينت المرطبان قدر الإمكان بالبتلات الناعمة المليئة بحبوب اللقاح ووضعت الكثير من الثقوب على الغطاء حتى لا يقضي النحل، ذلك أنني كنت أعرف جيداً أن الناس قد يعودون إلى الحياة مجدداً في هيئة الأشياء التي قتلوها.

ورفعت المرطبان إلى مستوى أنفي وناديت روزالين:

- تعالي وانظري إليها وهي تصارع.

وحين دخلت روزالين الغرفة، انبعث عطرها، قوياً ومتبلاً مثل السعوط الذي كان تحت باطن وجنتها. وكانت تمسك إبريقاً صغيراً فُتحته بحجم العملة المعدنية وعلى جانبه يد كانت تلف أصبعها حولها. وشاهدتها وهي تضغط بالإبريق على ذقنها فتتجمع شفتاها كوردة ثم تبصق بعضاً من العصير الأسود داخله.

وتطلعَت إلى النحلة وهزت رأسها ثم قالت:

- لا تأتي إليَّ باكية إذا لسعتك لأنني لن أكترث بذلك عندها.

وكانت تلك كذبة، فقد كنت الوحيدة التي كانت تعرف أن روزالين، على الرغم من حدة طبعها، تحمل قلباً أكثر رهافة من بتلة وردة وأنها كانت تحبني فوق التصور.

ولم أعرف ذلك حتى بلغت الثامنة من عمري واشترت لي صوصاً ملوناً من السوق في عيد الفصح. وكان لونه أرجوانياً كالعنب، وكنت قد وجدته يرتعد في زاوية من زوايا الخم وعيناه الصغيرتان الحزينتان تفتشان عن أمه في أرجاء المكان، فسمحت لي روزالين بأن أصطحبه إلى المنزل وأضعه في غرفة المعيشة حيث نثرْتُ له علبة من الخرطال على الأرض. ولم تنبس روزالين ببنت شفة.

وكان الصوص يخلف وراءه نتفاً من الريش الأرجواني أينما حل، وأعتقد أن ذلك كان بسبب تسرب الصباغة إلى جسده الضعيف. وما أن بدأنا بتنظيف ذلك حتى بزغ تي-ري فجأة وهدد بسلق الصوص وتناوله على العشاء وبطرد روزالين بسبب غبائها. وما أن هم تي-ري بالانقضاض على الصوص بيديه الملطختين بشحم الجرار، حتى وقفت روزالين في طريقه وقالت:

- هناك أشياء أخرى في هذا المنزل أسوأ من براز الدجاج.

وشزِرت إليه وأضافت:

- لن تلمس ذلك الصوص.

وانطلق حذاء تي-ري في البهو جاراً أذيال الخيبة. وعندها فكرت في أن روزالين كانت تحبني، وكانت تلك أول مرة تخطر فيها تلك الفكرة

بعيدة الاحتمال ببالي.

وكان عمر روزالين لغزاً فهي لم تكن تملك شهادة ميلاد. وكانت تقول لي إنها ولدت في عام ١٩٠٩ أو في عام ١٩١٩ وذلك بحسب إحساسها بعمرها تلك اللحظة. ولكنها كانت متأكدة من أن مكان ميلادها هو مكللانفيل في كارولاينا الجنوبية. وكانت والدتها تنسج سلات من العشب الحلو وتبيعها على جانب الطريق.

وقلت لها ذات مرة:

- مثلما أبيع أنا حبات الدراق.

- لا، لا شبه في ذلك بتاتاً، فليس لديك سبعة أطفال ينتظرون أن تطعميهم.

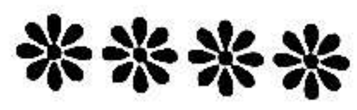
- هل تقصدين أن لك ستة إخوان وأخوات؟

وكنت أعتقد أنها وحيدة ولا تعرف أحداً في هذا العالم غيري.

- نعم، كانوا لدي، ولكني لا أعرف مكان أي منهم الآن.

وكانت قد طردت زوجها بعد ثلاث سنوات من زواجهما لأنه كان مسرفاً. وكان يحلو لها أن تقول: «إن وضعت عقله داخل رأس طير، سيطير القهقرى». ولطالما تساءلت عما كان سيفعله ذلك الطير إذا ما وضعنا عقل روزالين في رأسه عوضاً عن ذلك. وفي نصف المرات التي كنت أفكر فيها في الأمر، كنت أظن أنه سيتبرز على رأس أحد ما، وفي باقي المرات، كنت أعتقد أنه سيجلس في أعشاش مهجورة ويفرد جناحيه بأريحية.

وفي أحلام يقظتي، كنت أراها بيضاء ومتزوجة من تي-ري فتصبح أمي الحقيقية. وفي أوقات أخرى كنت أتخيل نفسي فتاة سوداء يتيمة وجدتها روزالين في حقل ذرة وتبنتها. كما كنت أتخيل أحياناً أننا نعيش في بلد أجنبي مثل نيويورك حيث يمكنها أن تتبناني ونستطيع نحن الاثنتان البقاء في لونينا الطبيعيين.



كانت والدتي تدعى ديبورا. وكنت أجد أن اسمها أجمل اسم سمعته على الإطلاق على الرغم من أن تي-ري كان يرفض أن ينطقه. وإذا ما نطقته أنا، فإنه كان يبدو وكأنه سيذهب إلى المطبخ ويطعن شيئاً ما. وحين سألته يوماً عن عيد ميلادها وعن زينة حلوى عيد الميلاد التي كانت تفضلها، طلب مني أن أصمت، وحين سألته مرة ثانية، تناول مرطباناً من هلام شجر العليق وألقى به على خزانة المطبخ. ولا تزال هناك بقع زرقاء في المطبخ إلى يومنا هذا.

وعلى الرغم من ذلك، نجحت في الحصول على بعض المعلومات منه، كالمكان الذي دفنت فيه أمي في فرجينيا التي ينحدر منها أهلها. وأثارني ذلك. أثارتني فكرة أن تكون لي جدة. ولكن تي-ري قال إن أمي كانت طفلة وحيدة وإن والدتها توفيت منذ زمن طويل. وقال لي ذات يوم، بتلقائية، عندما دهس صرصورا في المطبخ إن أمي كانت تقضي ساعات في استدراج الصراصير إلى خارج المنزل عن طريق وضع مسالك من فتات بسكويت غراهام المالح وحلوى المارشملو تقودها إلى الخارج، وإنها كانت مهووسة بإنقاذ الحشرات.

لقد كان أي شيء كفيلاً بأن يجعلني أفتقدها. شيء كحمالات الصدر الرياضية. فمن كنت لأسأل عن ذلك؟ ومن كان ليفهم أكثر من أمي مدى أهمية اصطحابي إلى اختبارات اختيار المشجعات الصغيرات؟ ويمكنني القول بكل ثقة إن تي-ري لم يكن ليفهم الأمر. ولكن هل تعرف متى افتقدتها أشد افتقاد؟ ذلك اليوم الذي كنت في الثانية عشرة من عمري واستيقظت لأجد بقعة وردية فاتحة على ملابسي الداخلية. وكنت فخورة جداً بتلك الوردة ولكن لم يكن لي أحد لأشارك معه الأمر سوى روزالين.

وبعد ذلك بمدة قصيرة، عثرتُ في العلية على كيس ورقي مقفل يحمل آخر آثار أمي. وكانت بداخله صورة لامرأة تتكلف الابتسام أمام سيارة قديمة، وترتدي فستاناً مبطن الكتفين فاتح اللون. وكانت تعابير وجهها تقول: "إياك أن تأخذ الصورة"، ولكنها كانت ترغب في أن تُلتقَط في نفس الوقت، وكان ذلك واضحاً. ولن تستطيع تصديق الحكايات التي نسجتُها انطلاقاً من تلك الصورة، وكيف كانت تقف عند مصد السيارة في انتظار الحب دون أن تكون متحرقة لذلك.

ووضعت الصورة إلى جانب صورتي في الصف الثامن لاستقراء أي وجه تشابه محتمل بيننا. كان ذقنها ضامراً شيئاً ما، وكانت جميلة فوق المتوسط، وهو ما أعطاني بعض الأمل بخصوص مستقبلي.

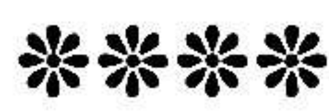
وكان الكيس يحتوي كذلك على زوج من القفازات البيضاء التي أكساها القِدم لون الاتساخ. وحين أخرجتها فكرت في أن يديها كانتا داخلهما فحضنتهما طوال الليل.

وكان أكثر ما فاجأني من بين محتويات الكيس صورة خشبية صغيرة لمريم العذراء، والدة المسيح. وقد تعرفت عليها رغم أنها كانت سوداء البشرة، وكان سوادها أخف بدرجة واحدة من لون روزالين. وبدا لي وكأن أحداً ما قد انتزع صورة مريم السوداء من كتاب ما وألصقها على قطعة خشبية خشنة طولها بوصتان وزينها بالطلاء. وخلف الصورة كتبت يد مجهولة "تيبورون، ك. ج".

لقد مر عامان على احتفاظي بأشياء أمي داخل صندوق قصديري كنت أدفنه في البستان. وكان في البستان مكان خاص في نفق الأشجار الطويل لم يكن أحد يعرف عنه شيئاً، حتى روزالين نفسها. واعتدت الذهاب إليه حتى قبل أن أتعلم ربط حذائي، فكنت في البداية أختبئ فيه من تي-ري ولؤمه أو من ذكرى ذلك الأصيل الذي انطلق فيه العيار الناري. ولكني اعتدت فيما بعد أن أتسلل إلى هناك بعد أن يخلد تي-ري إلى فراشه، فقط لأستلقي تحت الأشجار وأشعر بشيء من السلام. وكانت تلك القطعة من الأرض ملكي وكان ذلك الصندوق الصغير صندوقي.

وكنت قد وضعت حاجيات أمي في الصندوق القصديري ودفنته هناك في جنح الليل على ضوء مصباح يدوي. وكان يدفعني لفعل ذلك خوفي من ترك تلك الأشياء في غرفتي أو حتى في الجزء الخلفي من درج ما. فقد كنت أخشى أن يذهب تي-ري إلى العلية ويكتشف اختفاءها من هناك فينكث غرفتي بحثا عنها. وكنت أكره التفكير فيما قد يفعله بي إذا وجد تلك الأغراض بين أشيائي.

وكنت أقصد ذلك المكان من حين لآخر فأخرج الصندوق، وأستلقي على الأرض، وأتدثر بالأشجار. وكنت أرتدي قفازيْ أمي وأبتسم لصورتها. وكنت كذلك أتفحص عبارة "تيبورون، ك.ج." المكتوبة خلف صورة مريم السوداء، والخط المتعرج الغريب الذي كتبت به، وأتساءل عن ماهية ذلك المكان. وقمت ذات مرة بالبحث عنه على الخريطة لأكتشف أنه لم يكن يبعد عنا بأكثر من ساعتين. هل سبق أن ذهبت أمي إلى هناك واشترت الصورة؟ لقد كنت أعد نفسي مراراً بركوب الحافلة والذهاب إلى هناك عندما أكبر بما فيه الكفاية. لقد كنت أرغب في زيارة جميع الأماكن التي سبق لأمي أن وطئتها.



بعد أن قضيت الصباح في مطاردة النحل، أمضيت بعد الظهر في كشك الدراق على الطريق الرئيسية أبيع دراق تي-ري. وكان ذلك أكثر الأعمال عزلة قد تقوم بها فتاة ما، حيث كان ذلك يعني أن تعْلق إلى جانب الطريق داخل كشك بثلاثة حيطان وسقف قصديري مستو.

وجلست على صندوق كولا أتابع سيارات البيك آب وهي تمر كالسهم إلى أن كدت أتسمم من انبعاثات عوادمها ومن الرتابة. وعلى الرغم من أن مبيعات الدراق عادة ما ترتفع بعد ظهر أيام الخميس لأن النساء كن يتجهزن لإعداد فطيرة يوم الأحد، فإنه لم يأت أحد على الإطلاق.

لقد كان تي-ري يمنعني من إحضار الكتب إلى الكشك وقراءتها، وحتى حين كنت أنجح في تهريب كتاب ما، لنقل رواية الأفق المفقود،

بأن أقحمه تحت قميصي، كان أحد ما، مثل السيدة واتسون التي تقطن بالمزرعة المجاورة، يقول له عندما يلتقيه في الكنيسة:

- لقد رأيت ابنتك وهي تقرأ في كشك الدراق، لا بد وأنك فخور بها.

فيكاد يقتلني لأني فعلت ذلك. أي نوع من الأشخاص هذا الذي يعارض القراءة؟ وأظن أنه كان يعتقد أن القراءة ستحرك بداخلي الرغبة في ارتياد الجامعة، وهو الذي كان يعتبر دخول الفتيات إلى الجامعة مضيعة للمال حتى وإن كن يحصلن على علامات كاملة في امتحان المهارات اللغوية. حسنا، إن امتحان مهارات الرياضيات أمر مختلف، ولكن ليس من الضروري أن يكون الناس شديدي البراعة في كل شيء.

وقد كنت التلميذة الوحيدة التي لم تكن تمتعض عندما تكلفنا الآنسة هنري بقراءة مسرحية أخرى من مسرحيات شكسبير. لقد كنت أدعي الامتعاض، ولكني في حقيقة الأمر كنت أشعر بحماس داخلي، وكأنني توجت بلقب ملكة الدراق في سيلفان.

وقبل مجيء الآنسة هنري، كانت كلية التجميل أقصى طموحاتي. وذات يوم، قلت لها وأنا أدرس تفاصيل وجهها إنني سأصفف شعرها على طريقة الالتفافة الفرنسية وإنها ستبدو رائعة عليها، فقالت حرفياً:

- من فضلك يا ليلي، أنت تنتقصين من ذكائك. هل تدركين كم أنت ذكية؟ يمكنك أن تصبحي أستاذة أو كاتبة وأن تؤلفي كتباً خاصة بك. أقلت كلية تجميل حقاً؟!

واحتجت بعد ذلك إلى شهر للتعافي من صدمتي إزاء الخيارات

المتاحة أمامي. تعرف أن البالغين يحبون أن يسألوك: «قل لي.. ماذا ستصبح عندما تكبر؟» وليس في وسعي أن شرح مدى مقتي لذلك السؤال. ولكني أصبحت فجأة أتطوع بإخبار الناس عن خططي بأن أصبح أستاذة أو مؤلفة كتب دون أن أكترث بكون بعضهم لم يكن يهتم بالأمر أساساً.

وأخذت في الكتابة. وفي فترة ما، كان كل ما أكتبه يتضمن حصاناً. وبعد أن قرأنا لرالف والدو إمرسون في القسم، كتبت «فلسفتي في الحياة» وكنت أنوي أن أجعلها مقدمة كتاب، إلا أنني لم أستطع تجاوز ثلاث صفحات. وقالت الآنسة هنري إنه يلزمني أن أعيش أكثر من أربعة عشر عاماً قبل أن أكوِّن فلسفتي الشخصية.

وقالت إن الحصول على منحة دراسية كان أملي الوحيد في بناء مستقبل وكانت تعيرني كتبها خلال الصيف. وكلما كنت أفتح كتاباً، كان تي-ري يقول: «من تظنين نفسك؟ يوليوس شكسبير؟» لقد كان الرجل يظن حقاً أن ذلك اسم شكسبير، وإنْ خطر ببالك أنني صححت له الأمر، فأنت لا تعرف شيئا عن فن البقاء. وكان يناديني أحيانا بالآنسة براون التي تضع أنفها في كتاب وأحيانا الآنسة إيميلي صاحبة الرأس الكبير ديكشن وكان يقصد ديكنسون، ولكن مرة أخرى، هناك أشياء تتعلم أن تغض الطرف عنها.

وعندما لم أكن أحضر الكتب إلى كشك بيع الدراق، كنت غالبا ما أمضي وقتي في تأليف القصائد، ولكن في فترة بعد الظهر الرتيبة تلك، لم أكن أتحلى بالصبر الكافي لأبحث عن القوافي، فاكتفيت بالجلوس

والتفكير في مدى كرهي لكشك بيع الدراق، وكم كنت أمقته أشد المقت.

****

في اليوم الذي سبق دخولي إلى الصف الأول، جاء تي-ري إلى كشك بيع الدراق ووجدني أغرز مسمارا في حبة دراق.

وتقدَّم نحوي وإبهاماه داخل جيبيه وهو يخزر عينيه من وهج أشعة الشمس. وكنت أتابع ظله وهو ينساب على التراب والأعشاب وظننت أنه قادم لمعاقبتي على طعن حبة دراق. ولم أكن أعرف ما دفعني لفعل ذلك حتى.

وعوضا عن ذلك قال:

- ليلي، ستذهبين إلى المدرسة غدا، ولذلك هناك أشياء يجب أن تعرفيها؛ أشياء بخصوص والدتك.

وتوقف كل شيء لوهلة وساد الصمت، وكأن الريح توفيت والعصافير توقفت عن التحليق. وحين جلس القرفصاء أمامي، شعرت وكأنني عالقة في ظلام ساخن لم أكن أستطيع التحرر منه.

وقال:

- لقد حان الوقت لتعرفي ما حدث لها. وأنا أفضل أن تسمعي ذلك مني، لا من الغرباء.

ولم نكن قد تحدثنا عن الموضوع من قبل. وسرت رعشة في جسدي. لقد كانت ذكرى ذلك اليوم تراودني في أوقات غريبة. النافذة العالقة.

عطر أمي. رنين الشماعات. الحقيبة. عراكهما وصراخهما. والأكثر من ذلك، المسدس الملقى على الأرض والثقل الذي شعرت به عندما التقطته.

وكنت أعرف أن الانفجار الذي سمعته ذلك اليوم قد قتلها. إن ذلك الصوت لا يزال يتسرب إلى ذهني من حين لآخر ويفاجئني. وكان يبدو لي أحيانا أن الضوضاء لم تحدث عندما التقطت السلاح وأنها أتت لاحقا. ولكن في أحيان أخرى، حين كنت أجلس لوحدي في الأدراج الخلفية، وأنا أشعر بالملل وأتمنى أن أجد شيئا أفعله، أو حين ألجأ إلى غرفتي في يوم مطير، كنت أحس أنني من تسبب في الأمر، وأن الصوت انطلق حين التقطت المسدس فمزق الغرفة وفقأ قلوبنا.

وكان ذلك سرا يتسلل إليّ ويربكني، وكنت أجري هربا منه، حتى عندما كان الجو مطيرا في الخارج. وكنت أركض نحو المنحدر مباشرة، إلى مكاني الخاص في بستان الدراق وأستلقي على الأرض وكان ذلك كفيلا بتهدئتي.

وفي تلك اللحظة، ملأ تي-ري كفيه بحفنة من التراب وجعله يتسرب منهما، ثم قال:

- يوم توفِّيت، كانت تقوم بتنظيف الخزانة.

ولم أستطع تفسير نبرة صوته، فقد كانت نبرة غير طبيعية، تدنو من الحنو، ولكنها لم تكن كذلك تماما.

كانت تنظف الخزانة. ولم أكن قد فكرت من قبل فيما كانت تفعله خلال الدقائق الأخيرة من حياتها، وماذا كانت تفعل في الخزانة، وما

كان سبب شجارهما.

- أذكر ذلك.

قلت، وبدا صوتي صغيرا وبعيدا عني، وكأنه قادم من حفرة نمل تحت الأرض.

وقطب حاجبيه واقترب وجهه مني. وكانت عيناه فقط تشيان بارتباكه.

- ماذا قلت؟

وقلت مرة أخرى:

- أنا أذكر ذلك. لقد كنتما تتشاجران.

وضاقت تعابير وجهه وقال:

- هل أنت جادة؟

وشحُبت شفتاه، وذلك ما كنت أرقبه دائما. وتراجعت خطوة إلى الخلف.

- اللعنة. لقد كنت في الرابعة من عمرك! أنت لا تعرفين ما تتذكرينه.

ووسط الصمت الذي أعقب ذلك، خطر لي أن أكذب عليه وأن أقول، أنا أتراجع عما قلته. أنا لا أتذكر شيئا. أخبرني بما حدث. ولكني كنت أشعر برغبة شديدة، تجمعت على مدى سنوات، في التحدث عن الأمر، وفي النطق بتلك الكلمات.

ونظرت إلى حذائي، وإلى المسمار الذي أفلته عندما لمحته آتيا،

وقلت:

- كان هناك مسدس.

- أيها المسيح.

قال، ونظر إليَّ مليا ثم اتجه نحو سلة المكاييل الموجودة في آخر الكشك. ووقف هناك لدقيقة ويده على شكل قبضة قبل أن يلتف حول السلة ويعود إلي.

- وماذا أيضا؟ أخبريني الآن عن كل ما تعرفينه.

- كان هناك مسدس على الأرض...

- والتقطتِه... أعتقد أنك تذكرين ذلك.

وكان صدى الانفجار قد بدأ يتردد داخل رأسي. ووجهت نظري صوب البستان، وبداخلي رغبة في التحرر والهرب. وقلت:

- أتذكر أني حملته... وهذا كل ما أتذكره.

وانحنى وأمسك بكتفي وهزني قليلا.

- ألا تذكرين أي شيء آخر؟ هل أنت متأكدة؟ فكري الآن.

توقفت لوقت طويل لدرجة جعلته يطرق رأسه وينظر إليّ بارتياب.

- كلا، سيدي، هذا كل ما أتذكره.

وقال وهو يكبس أصابعه فوق ذراعي:

- أنصتي إلي، لقد كنا نتشاجر كما قلت، ولم نرك في البداية. وحين استدرنا، كنت تجلسين والمسدس بين يديك. وكنتِ قد التقطته من الأرض. ثم انطلق العيار الناري.

وأرخى قبضته وأدخل يديه في جيبه. وكنت أستطيع سماعهما وهما تحركان المفاتيح والقروش والسنتات. وأحسست برغبة شديدة في التعلق بساقه والشعور به وهو ينحني إليّ ويضمني إلى صدره، ولكني لم أستطع التحرك ولم يتحرك هو كذلك. وكانت عيناه تحملقان في نقطة فوق رأسي، في مكان كان ينظر إليه بعمق.

وقال بهدوء:

- لقد طرحت الشرطة الكثير من الأسئلة. ولكن ذلك الحادث كان فقط من بين الأشياء الفظيعة التي تحدث في هذا العالم. وأنت لم تقصدي فعل ذلك. ولكن إذا كان أي شخص يود معرفة الأمر، فذلك ما حدث.

وبعد ذلك، غادر في اتجاه المنزل. ولم يكن قد ابتعد كثيرا حين التفت إليّ من جديد وقال:

- ولا تغرزي ذلك المسمار في حبات الدراق خاصتي من جديد.

****

كانت الساعة قد تجاوزت السادسة مساء عندما عدت إلى المنزل من كشك الدراق، دون أن أبيع حبة واحدة. وفوجئت بروزالين في غرفة المعيشة، وهي التي اعتادت العودة إلى منزلها قبل ذلك الوقت. إلا أنها كانت في تلك اللحظة تعارك أذني الأرنب فوق جهاز التلفاز وتحاول

تبديد الثلج من الشاشة. وكانت صورة الرئيس جونسون تبزغ ثم تخبو في قلب العاصفة الثلجية من جديد. ولم يسبق لي أن رأيت روزالين قط مهتمة ببرنامج تلفزي لدرجة تجعلها تبذل مجهوداً بدنياً من أجله.

وسألتها:

- ماذا حدث؟ هل ألقوا القنبلة الذرية؟

ومنذ أن بدأنا تمارين الاحتماء من القنابل في المدرسة، بت أعتقد أن أيامي أصبحت معدودة. وكان الجميع ينشئون ملاجئ نووية في حدائقهم الخلفية، ويعلبون ماء الحنفية، ويستعدون لنهاية العالم. وأعدَّ ثلاثة عشر تلميذا في قسمي نماذج للملاجئ نووية في مشروع مادة العلوم وهو ما يعني أني لم أكن الوحيدة التي كان يساورها القلق إزاء ذلك. لقد كنا مهووسين بالسيد خروتشوف وصواريخه.

وأجابت روزالين:

- لا، لم تنفجر أي قنبلة. تعالي إلى هنا وحاولي إصلاح التلفاز.

وكانت قبضتاها مدفونتين في وركيها حتى كادتا تختفيان.

ولففت ورق الألومنيوم حول اللاقط الهوائي. فاتضحت الصورة بما يكفي لرؤية الرئيس جونسون يعتلي كرسي مكتبه وهو محاط بالناس. ولم أكن أكترث به لأنه كان يمسك كلاب صيده من آذانها. كما لم أكن من محبي زوجته الدعسوقة التي كان يبدو دائما أن كل ما كانت ترغب فيه هو أن تصير لها أجنحة وتطير بعيدا.

وجرت روزالين مسند القدمين أمام جهاز التلفاز وجلست عليه

فحجبت كل شيء، ثم مالت على الجهاز وهي تمسك طرف تنورتها وتلفه حول يديها.

وسألتها:

- ماذا يحدث؟

ولكنها كانت مشدوهة بالأحداث ولم تجبني حتى. وعلى الشاشة، كان الرئيس يوقع اسمه على قطعة من الورق مستخدما عشرة أقلام حبر لفعل ذلك.

- روزالين....

- ششششش...

قالت محركة يدها.

وكان عليَّ انتظار سماع الخبر من مقدم الأنباء.

«اليوم، الثاني من تموز من عام ١٩٦٤، وقع رئيس الولايات المتحدة على مشروع قانون الحقوق المدنية في الغرفة الشرقية للبيت الأبيض...»

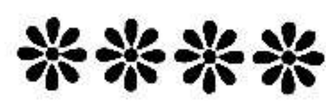
ونظرتُ إلى روزالين التي كانت تجلس هناك وترتعد وتتمتم: "الرحمة يا إلهي". وكانت غير مصدقة وسعيدة وعلى وجهها تعابير تشبه تلك التي تعتلي وجوه مشاركي برنامج المسابقات التلفزيونية عندما يجيبون على سؤال الأربعة وستين ألف دولار.

ولم أعرف إن كان يفترض بي الشعور بالحماس أم بالقلق. فلم يكن الناس يتحدثون بعد قداس الكنيسة إلا عن الزنوج وما إن كانوا

سيحصلون على حقوقهم المدنية، ومن كان سيفوز، فريق البيض أم فريق السود؟ كما لو كان الأمر يتعلق بمسألة حياة أو موت. وحين اعتُقِل قس ألاباما، مارتن لوثر كينج، الشهر الماضي في فلوريدا لأنه كان يريد الدخول إلى مطعم، كان الرجال في الكنيسة يتصرفون وكأنهم فازوا بسباق البطولة البحرية. وكنت أعرف أنهم لن يتلقوا ذلك الخبر بسعة صدر، ولو بعد مليون سنة.

- «هللويا... يا مسيح».

كانت روزالين تردد وهي جالسة على كرسيها، في غفلة تامة.



كانت روزالين قد تركت العشاء على الموقد، الدجاج المدخن الذي كانت تتفنن في إعداده. وأنا أجهز طبق تي-ري، كنت أفكر في الطريقة التي سأطرح بها مسألة حساسة كعيد ميلادي الذي لم يأبه له قط. ولكني في كل مرة، كنت أتغابى وأرفع سقف توقعاتي معتقدة أن الأمر كان سيختلف ذلك العام.

وكان عيد ميلادي يصادف يوم ميلاد البلاد، وهو ما جعل من الصعب الانتباه إليه. وحين كنت صغيرة، كنت أعتقد أن الناس يطلقون المفرقعات والألعاب النارية احتفاء بي... هووووراااا... لقد ولدت ليلي في مثل هذا اليوم. وما لبثت الحقيقة أن انكشفت كما يحدث دائما.

وكنت أود أن أقول لتي-ري إن أي فتاة تحب أن تمتلك سوارا فضيا تتدلى منه أشكال صغيرة، وإنني في العام الماضي كنت الفتاة الوحيدة في

مدرسة سيلفان الثانوية التي لم تكن تملك واحدا، وإن أهم حدث في استراحة الغذاء هو الوقوف في صف المطعم وتحريك المعصم ليرى الجميع الأشكال المتدلية من سوارك.

وقلت لتي-ري وأنا أقدم له طبق الأكل:

- إذن، إن يوم السبت هو عيد ميلادي.

وتابعته وهو يغرز الشوكة في الدجاج ليفصل لحمه عن عظمه.

- وكنت أرغب في شراء سوار فضي تتدلى منه أشكال من السوق.

وصر المنزل كعادته بين الفينة والأخرى. وبالخارج، كانت سناوت تصدر نباحا خفيفا، وبعد ذلك أطبق الصمت على المكان حتى بِتُّ أسمع صوت الطعام وتي-ري يقضمه.

وتناول تي-ري صدر الدجاج وبدأ في تناول الفخذ وكان يرمقني بنظرات قاسية بين الفينة والأخرى.

وكنت أهم بقول، ماذا عن السوار إذن؟ ولكن إجابته كانت واضحة. وبعث في ذلك نوعا من الشجن، شجنا طريا ورقيقا لم تكن له أي صلة حقا بالسوار. وأعتقد الآن أن ذلك الشجن كان بسبب صوت شوكته وهي تخدش الطبق بنفس الطريقة التي كانت تضخم المسافة بيننا، وكيف لم أكن في الغرفة حتى.

****

في تلك الليلة، استلقيت على فراشي وأصغيت إلى الدق والنقر

الذي كان ينبعث من داخل مرطبان النحل في انتظار أن يصبح الوقت متأخرا بما يكفي لأستطيع التسلل إلى البستان واستخراج صندوق القصدير الذي أحتفظ فيه بأشياء أمي. وكنت أرغب في الاستلقاء في البستان وجعله يضمني.

وحين انتشر الظلام واعتلى القمر السماء، غادرت سريري، وارتديت سروالا قصيرا وقميصا بدون أكمام ومررت بجانب غرفة تي-ري بحذر، وكنت أنزلق على ذراعي وساقي مثل متزحلق على الجليد. ولم أنتبه لحذائه الذي كان مركونا وسط البهو. وحين تعثرت، روعت الجلبة الهواء بشدة لدرجة أن إيقاع شخير تي-ري تغير، بل إنه توقف تماما قبل أن يتواصل بثلاث شخرات أشبه بشخير خنزير صغير.

وتسللت عبر الأدراج ثم مررت بالمطبخ. وحين لامس الليل وجهي، انتابتني رغبة في الضحك. وكان القمر بدرا يشع بالنور ويكسو أطراف كل شيء بلون كهرماني. واستيقظ زيز الحصاد وركضت فوق العشب حافية القدمين.

ولكي أصل إلى بقعتي، كان يلزمني أن أتجه إلى الصف الثامن يسار مرآب الجرارات، ثم المشي بمحاذاتها وإحصاء الأشجار إلى أن أبلغ الشجرة الاثنتين والثلاثين. وكنت قد ردمت الصندوق القصديري تحت تراب تلك الشجرة الناعم، غير بعيد عن السطح حتى أتمكن من إزاحة التراب بيدي.

وحين أزحت التراب عن الغطاء وفتحته، كان أول ما لمحته بياض قفازيها ثم الصورة المغلفة بالورق المشمع، كما تركتها بالضبط: ثم الصورة

الخشبية الغريبة لمريم العذراء بوجهها داكن اللون. وأخرجت كل شيء ووضعته على بطني بعد أن استلقيت بين حبات الدراق المتساقطة.

وحين رفعت رأسي عاليا إلى أغصان الأشجار المتشابكة، نزل الليل إلي، وفقدت حدودي لوهلة، فشعرت وكأن السماء هي جلدي والقمر هو قلبي الذي كان يخفق هناك في العتمة. ولمع البرق، ولم يكن خطا متعرجا وإنما طبقات ذهبية رقيقة عبر السماء. وفككت أزرار قميصي وفتحته عن آخره، فقد كنت أرغب في أن يحط الليل على جلدي، وهكذا غفوت. وكنت مستلقية بين أشياء أمي وكان الهواء يرطب صدري والسماء تشع بالنور.

واستيقظت على وقع صوت يقترب بين الأشجار. تي-ري! وجلست، وانتابني الهلع، وأخذت في إغلاق أزرار قميصي. وسمعت خطواته ولهاثه السريع والقوي. ونظرت إلى الأرض، فلمحت قفازيْ أمي والصورتين. وتوقفت عن إغلاق الأزرار، وحملت الأشياء وتلمستها بارتباك وأنا عاجزة عن التفكير في ما يمكنني فعله وكيف يمكنني إخفاؤها. وبما أنني كنت قد أعدت الصندوق القصديري إلى الحفرة، فقد كان من الصعب عليّ الوصول إليه.

- لـيـيـلي!

صرخ، ورأيت ظله يندفع في الأرض ويقترب مني.

وأقحمت القفازين والصورتين تحت حزام سروالي القصير ثم تابعت إقفال الأزرار المتبقية بأصابع مرتعشة.

وقبل أن أستطيع إقفالها، اجتاحني الضوء. وكان هو هناك من دون قميص، وفي يده مصباح يدوي. وتعرج الشعاع وتراقص، وحجب عني الرؤية عندما تذبذب فوق عيني.

- مع من كنت هنا؟

صاح تي-ري وهو يوجه الضوء إلى قميصي نصف المفتوح.

- لـ... لـم... لم يكن معي أحد.

قلت وأنا ألف ذراعي حول ركبتي، وقد أدهشني ما ذهب إليه. ولم أستطع النظر مطولا إلى وجهه الذي كان واسعا ومتقدا.

وألقى بشعاع الضوء على العتمة وصاح:

- من هناك؟

- من فضلك يا تي-ري، ليس هناك أحد سواي.

وصرخ فيّ:

- هيا انهضي.

وتبعته إلى المنزل، وكانت قدماه تدهسان الأرض بقسوة لدرجة جعلتني أتأسف للتراب الأسود. ولم ينبس بكلمة إلى أن دخلنا المطبخ وأحضر دقاق المارتا وايتس من غرفة المؤونة، وقال:

- قد أتوقع هذا من الفتيان يا ليلي، ولا يمكنك لومهم. ولكني كنت أنتظر شيئا مختلفا منك. إنك لا تتصرفين أفضل من فاسقة.

وسكب كومة من الدقاق فبدا ككثيب نمل فوق أرضية خشب الصنوبر، وقال:

- تعالي واركعي هنا.

وكنت قد بدأت الركوع على الدقاق منذ أن كنت في السادسة من عمري، ولكني لم أتعود أبدا على شعور الزجاج المطحون وهو يحتك بجلدي. واقتربت من الدقاق بخطوات صغيرة قد تتوقعها من فتاة في اليابان، وانحنيت للأرض، وأنا مصرة ألا أبكي، ولكن عيني كانتا قد بدأتا في الوخز.

وجلس تي-ري على كرسي وأخذ ينظف أظافره بمطواة. وتمايلت من ركبة إلى أخرى باحثة عن ثانية أو ثانيتين من الراحة، ولكن الألم كان يشق جلدي. وزممت شفتي، وفي تلك اللحظة شعرت بصورة مريم السوداء الخشبية تحت حزامي وبالورق المشمع وصورة أمي وقفازيها عند بطني، وبدا فجأة وكأن أمي كانت هناك تلامس جسدي، وكأنها كانت جزءا من مادة عازلة تحمي جلدي وتساعدني على التغلب على كل لؤم تي-ري.

****

استيقظت في ساعة متأخرة من صباح اليوم الموالي، وما إن لمَست قدماي الأرض، حتى قمت بتفقد أسفل فراشي حيث وضعت أشياء أمي. وكان ذلك مجرد مخبأ مؤقت إلى أن أستطيع إعادتها إلى البستان من جديد.

وبعد أن تأكدت من أنها كانت في مكان آمن، قصدت المطبخ،

وكانت روزالين تنظف أرضيته من الدقاق.

وأخذت قطعة من الخبز ودهنتها بالزبدة.

وكانت روزالين تكنس بسرعة فتحرك الهواء. وسألتني:

- ماذا حدث؟

- لقد ذهبت إلى البستان ليلة أمس، واعتقَد تي-ري أنني كنت ألتقي بأحد الفتيان هناك.

- وهل ذلك صحيح؟

وقلبت عيني وقلت:

- لا.

- وكم من الوقت جعلك تركعين على الدقاق؟

وهززت كتفي، وقلت:

- ربما ساعة.

ونظرَت إلى ركبتي وتوقفت عن الكنس. وكانتا منتفختين ومتورمتين، وبهما كدمات مثقوبة كانت ستتحول إلى بقع زرقاء فيما بعد.

- انظري إلى نفسك يا فتاة. انظري ماذا فعل بك.

وكانت ركبتاي قد تعرضتا للتعذيب لمرات كثيرة لدرجة جعلتني أتوقف عن التفكير في أن الأمر غير عادي. وكنت أعتقد أن ذلك كان من بين الأشياء التي كان عليَّ التعايش معها من حين لآخر، كالإصابة

بنزلة برد. ولكن تعابير وجه روزالين وضعت ذلك محط تساؤل. انظري ماذا فعل بك.

وهذا ما كنت أفعله حين ظهر تي-ري من الباب الخلفي وهو يدوس الأرض بقدميه. كنت أتأمل ركبتي ملياً.

- حسنا، انظروا من قرر الاستيقاظ أخيرا.

قال وانتزع الخبز من بين يدي ورمى به في زبدية سناوت، ثم أضاف:

- هلا تفضلت بالذهاب إلى كشك الدراق والقيام بعملك؟ لست ملكة اليوم، هل تعرفين ذلك؟

وقد يبدو ما سأقوله في غاية الحمق، ولكني وحتى تلك اللحظة، كنت أعتقد أن تي-ري كان يحبني ولو قليلا. فأنا لم أستطع أبدا نسيان ابتسامه لي في الكنيسة عندما كنت أغني من كتاب التراتيل وأنا أحمله بالمقلوب.

وفي تلك اللحظة، نظرت إلى وجهه، فبدا مقيتا ومحملا بالغضب، وصرخ:

- ما دمت تعيشين تحت سقفي، ستفعلين ما آمر به!

وخطر ببالي أن عليّ أن أجد سقفا آخر.

- هل تفهمين ذلك؟

- نعم سيدي، أفهم ذلك.

قلت، وفعلا كنت أفهم ذلك. كنت أفهم أن سقفا جديدا قد يحقق لي المعجزات.

****

في وقت متأخر من فترة ما بعد الظهيرة تلك، قبضت على نحلتين أخريين. واستلقيت على الفراش وأخذت أتابعهما وهما تحلقان في فضاء المرطبان، بطريقة دائرية وكأنهما أخطأتا المخرج.

وبرز رأس روزالين من الباب، وقالت:

- هل أنت بخير؟

- نعم، أنا بخير.

- سأغادر الآن. أخبري والدك أنني لن آتي إلى هنا غدا لأنني سأذهب إلى البلدة.

وقلت:

- ستذهبين إلى البلدة؟ خذيني معك.

- لماذا تريدين الذهاب؟

- من فضلك يا روزالين.

- سيكون عليك المشي إلى هناك.

- لا يهمني ذلك.

- ولن تفتح سوى أكشاك المفرقعات النارية ومحلات البقالة.

- لا يهمني ذلك. أريد فقط الابتعاد عن المنزل قليلا يوم عيد ميلادي.

وأمعنت روزالين النظر فيّ وأرخت وقفتها قليلا، وقالت:

- حسنا، ولكن اطلبي ذلك من والدك. وسأمر لأخذك في الصباح الباكر.

وكانت قد خرجت من الباب حين ناديتها وسألت:

- ولماذا ستذهبين إلى البلدة؟

لم تستدر لوهلة ولم تتحرك. وحين استدارت، بدا وجهها رقيقا وتغيرت تعابيره، وكأنها شخص آخر.

وانغمست يداها داخل جيبها وزحفت أصابعها بحثا عن شيء ما، ثم أخرجت ورقة مذكرة مطوية، وجاءت لتجلس إلى جانبي على السرير. وكنت أحك ركبتي بينما كانت هي تفتح الورقة فوق حضنها.

وكان اسمها، روزالين دايز، قد كتب خمساً وعشرين مرة على الأقل أسفل الصفحة بخط عريض منسوخ، كأول ورقة تقدمها عند دخول المدرسة. وقالت:

- هذه الورقة التي أتدرب فيها. إنهم ينظمون تجمعا للناخبين في كنيسة السود بمناسبة الرابع من تموز. وسأسجل نفسي للتصويت.

واستقر شعور غير مريح في بطني، إذ كنت قد سمعت الليلة الماضية في التلفاز أن رجلا قتل في مسيسيبي لأنه سجل نفسه في قائمة التصويت. كما أنني سمعت السيدة بوسي، وهي إحدى شماسي

الكنيسة، تقول لتي-ري: «لا تقلق، سوف يجعلونهم يكتبون أسماءهم بخط واضح وسيرفضون إعطاءهم البطاقة حتى وإن نسوا أن يضعوا نقطة على حرف ما أو كتبوا حرفا آخر بطريقة غير صحيحة».

وتمعنت في خط روزالين وسألتها:

- هل يعرف تي-ري بذلك؟

فأجابت:

- تي-ري؟ إنه لا يعرف شيئا عن الموضوع.

****

ظهر تي-ري عند الغروب وكان يتصبب عرقا بعد يوم من العمل. والتقيت به عند باب المطبخ، وكنت أشبك ذراعي فوق الجزء الأمامي من قميصي. وقلت له:

- كنت أفكر في مرافقة روزالين إلى البلدة غدا لشراء بعض المستلزمات الصحية.

ووافق دون أي تعليق، فقد كان الحديث عن مرحلة البلوغ أكثر ما كان يكرهه.

وفي تلك الليلة، نظرت إلى مرطبان النحل الموضوع على منضدتي. وكانت تلك المخلوقات المسكينة جاثمة في القاع، وبالكاد تتحرك، وكان من الواضح أنها اشتاقت إلى الطيران. وتذكرت عندها كيف تسربت من تشققات جدراني وطارت لمجرد أنها كانت تحب الطيران.

وفكرت في مسالك فتات البسكويت المملح وحلوى المارشملو التي كانت أمي تخطها لاستدراج الصراصير إلى خارج المنزل عوضاً عن دهسها. وشككت في أنها كانت لتوافق على حبس النحل داخل مرطبان، ففتحت الغطاء ووضعته جانبا، وقلت:

- هيا اذهبوا.

ولكن النحل بقي بالداخل، مثل طائرات لم تكن تعرف أنه قد أُذِن لها بالإقلاع. وزحف على أرجله حول محيط المرطبان المائل وكأن العالم أصبح يقتصر عليه. ونقرتُ على الزجاج ووضعت المرطبان على جانبه ولكن ذلك النحل الأحمق بقي هناك.

****

كان النحل لا يزال داخل المرطبان عندما أتت روزالين في الصباح الموالي. وقد أحضرت كعكة إسفنجية عليها أربع عشرة شمعة. وقالت:

- تفضلي، عيد ميلاد سعيد.

وجلسنا وتناولنا قطعتين منها مع الحليب. ورسم الحليب شكل هلال على الجزء الداكن من شفة روزالين العلوية دون أن تكلف نفسها عناء مسحه. وفيما بعد كنت أتذكر أن روزالين كانت امرأة مميزة منذ البداية.

وكانت سيلفان بعيدة بأميال. فمشينا على حافة الطريق الرئيسي، وكانت روزالين تتحرك بالوتيرة التي تُفتح بها باب خزانة بنك، ومبصقتها بين أصابعها. وكان السديم كثيفا تحت الأشجار، وكان الهواء ينضح برائحة الدراق الناضج أكثر مما ينبغي.

وقالت روزالين:

- هل تعرجين؟

وكانت ركبتاي تؤلمانني لدرجة كنت أجد مشقة في مواكبة سيرها.

- نعم، قليلا.

وقالت:

- حسنا، لماذا لا نجلس إلى جانب الطريق قليلا؟

فأجبتها:

- لا داعي لذلك، سأكون بخير.

ومرت سيارة مسرعة، فحركت هواء حارقا وموجة من الغبار. وكانت روزالين تتصبب عرقا فمسحَت وجهها وكانت تتنفس بصعوبة.

وكنا على مقربة من كنيسة إيبنزر المعمدانية التي كنت أذهب إليها رفقة تي-ري. وبزغ برج الكنيسة بين الأشجار وارفة الظلال، وبدت اللبنات الحمراء ظليلة وباردة.

وأخذت بزمام الأمور فقلت:

- تعالي.

- إلى أين تذهبين؟

- يمكننا الاستراحة بداخل الكنيسة.

وكان الجو في الداخل مظلما وساكنا ويتخلله الضوء المنبعث من النوافذ الجانبية. ولا أتحدث عن نوافذ زجاجية ذات ألوان جميلة، وإنما عن ألواح زجاجية حليبية لا تستطيع الرؤية من خلالها.

وقدت نفسي وروزالين إلى الأمام وجلست على المقعد الثاني تاركة لروزالين مكانا تجلس فيه. وتناولت هي مروحة ورقية من مقبض كتاب التراتيل الدينية وتفحصَت الصورة التي كانت عليها؛ كنيسة بيضاء تقف على بابها امرأة بيضاء.

وأخذت روزالين في تحريك مروحتها بينما كنت أصغي السمع إلى التيار الذي كانت تحدثه يداها. ولم تكن روزالين قد دخلت كنيسة من قبل. ولكنني في المرات القليلة التي سمح لي فيها تي-ري بزيارة منزلها في الغابة، رأيت فيه رفا خاصا عليه عقب شمعة، وأحجار جدول، وريشة مائلة إلى الحمرة، وقطعة من جذر جون الفاتح، وفي مركز ذلك كله، كانت هناك صورة امرأة دون إطار.

وفي المرة الأولى التي رأيتها فيها، سألت روزالين:

- هل هذه أنت؟

ذلك أنني أستطيع أن أقسم أن تلك المرأة كانت تشبهها تماما، فكانت لها ضفائر صوفية وجلد أسود مائل إلى الزرقة، وكان معظم جسمها مركزا في الجزء السفلي، كحبة باذنجان.

وأجابت روزالين:

- إنها أمي.

وكان الطلاء قد اندثر من جوانب الصورة التي كان إبهاماها يمسكان الصورة منها. وكان الرف ينتمي إلى دين صنعته هي لنفسها، لقد كان مزيجا من عبادة الطبيعة والأسلاف. وكانت قد توقفت عن الذهاب إلى الكنيسة التي كانت ترتادها منذ سنوات لأنها كانت تبدأ عند العاشرة صباحا ولا تنتهي إلا عند الثالثة بعد الظهر، وكان ذلك الدين كله كفيلا بالقضاء على شخص كامل النضج، وفقا لروزالين.

وكان تي-ري يقول إن دين روزالين ضرب من الجنون، وإن عليَّ الابتعاد عنه. ولكن، كان يجذبني إليها حب الأحجار المائية وريشات نقار الخشب وكونها لا تمتلك سوى صورة واحدة لوالدتها، مثلي تماما.

فُتحت إحدى أبواب الكنيسة وتوجه الأخ جيرالد، قسنا، إلى المحراب.

- حسنا، بحق الإله، ماذا تفعلين هنا يا ليلي؟

وحين لمح روزالين، بدأ في هرش المساحة الصلعاء من رأسه بعصبية إلى أن اعتقدت أنه قد يصل إلى عظام جمجمته.

- لقد كنا في طريقنا إلى البلدة وتوقفنا هنا قليلا للاحتماء من الحر.

واتخذ فمه شكل «آه» ولكنه لم ينطق بها حقا فقد كان منشغلا بروزالين التي دخلت كنيسته، وهي التي انتقت تلك اللحظة لاستخدام مبصقتها.

من الغريب كيف ينسى المرء القوانين، إذ لم يكن من المفترض أن تدخل روزالين إلى هناك. ففي كل مرة كانت تنتشر فيها شائعة

بأن مجموعة من الزنوج كانت ستلتحق بنا لحضور قداس صباح يوم الأحد، كان شماسو الكنيسة يقفون متلاصقي الأكتاف عند أدراج الكنيسة لمنعهم من ذلك. وكان الأخ جيرالد يقول إننا نحبهم في الرب ولكن لهم أماكنهم الخاصة بهم.

- اليوم هو عيد ميلادي.

قلت، على أمل أن يغير ذلك اتجاه أفكاره.

- حقا؟ عيد ميلاد سعيد يا ليلي. وكم أصبح عمرك الآن؟

- أربعة عشر عاما.

وقالت لي روزالين:

- اسأليه إذا كان بإمكاننا أخذ مروحتين من هذه بمناسبة عيد ميلادك.

وأصدر صوتا رقيقا على سبيل الضحك، وقال:

- حسنا، لو أننا أعرنا مروحة لكل من يأتي إلى هنا، فلن يتبقى أي منها بالكنيسة.

- لقد كانت تمزح فقط.

قلت ونهضت من مكاني. وابتسم وهو يشعر بالرضا ومشى إلى جانبي ونحن في طريقنا إلى الباب بينما كانت روزالين تمشي خلفنا.

وفي الخارج، كانت الغيوم قد كست السماء بالبياض، وكانت الواجهات تشع فتحجب الرؤيا عن عيني. وحين عبرنا فناء بيت

الكاهن وعدنا إلى الطريق الرئيسي، أخرجت روزالين مروحتين من صدرها، وقلدتني وأنا أنظر إلى القس بوجه رقيق، وقالت:

- آه، أيها الأخ جيرالد، لقد كانت تمزح فقط.

****

وصلنا إلى الجزء الأسوأ من سيلفان. منازل عتيقة قائمة على قوالب بناء إسمنتية. ومراوح مغروزة في النوافذ. وقطع أرضية موحلة. ونساء ببكرات شعر وردية. وكلاب مطلوقة العنان.

وبعد أن مررنا ببضعة مربعات سكنية، اقتربنا من محطة إيسو الموجودة عند الزاوية التي تجمع بين ويست ماركت وبارك ستريت، وهو المكان الذي عادة ما كان يتجمع فيه الرجال الذين لا يملكون بين أيديهم شيئا غير الوقت.

وانتبهت إلى أن المحطة كانت خالية من السيارات تماما. وعلى مقربة من المرآب، كان هناك ثلاثة رجال يجلسون على كراسي ويحملون قطعة من الخشب الرقائقي على ركبهم يلعبون عليها الورق.

وقال أحدهم:

- اضربني.

ورمى الموزع، الذي كان يرتدي قبعة سيد آند فيد، ورقة لعب أمامه. ورفع الرجل نظره فلمحنا، وكانت روزالين تحرك مروحتها وتمشي بتثاقل، وهي تتمايل من جهة إلى أخرى، وقال:

- حسنا انظروا من يمر من هنا. إلى أين أيتها الزنجية؟

وانبعثت أصداء طرطشة المفرقعات من بعيد. وهمستُ لروزالين:

- استمري في السير. لا تهتمي لأمره.

ولكن روزالين التي كانت أهوج مما كنت أعتقد، قالت بنبرة بدت وكأنها تفسر شيئا مستعصيا على الفهم لتلميذ في الحضانة:

- أنا في طريقي لتسجيل اسمي في قائمة التصويت. هذا ما أنا ذاهبة إليه.

وقلت لها:

- يجب أن نسرع.

ولكنها استمرت في المشي ببطء.

وتوقف الرجل الذي كان يجلس إلى جانب الموزع، وكان يمشط شعره إلى الخلف، ووضع أوراقه وقال:

- هل سمعت ذلك؟ ها قد حصلنا على مواطن مثالي.

وكانت الريح تعزف أغنية بطيئة وتمر بهدوء بالشارع خلفنا وتنتقل على طول مجرى التصريف. وواصلنا المشي، ودفع الرجال طاولتهم المرتجلة جانبا ونزلوا إلى الرصيف وأخذوا في انتظارنا، وكأنهم كانوا يتابعون استعراضا وكنا نحن عربة الكرنفال المميزة.

وقال الموزع:

- هل سبق أن رأيتم شخصا بهذا السواد؟

وأجاب الرجل ذو الشعر الممشوط إلى الخلف قائلا:

- لا، ولم يسبق أن رأيت أحدا بهذه الضخامة.

وبطبيعة الحال شعر الرجل الثالث بضرورة قول شيء ما، فنظر إلى روزالين التي كانت تمشي الهوينا غير آبهة بهم، وتمسك بيدها المروحة التي كانت عليها صورة امرأة بيضاء، وقال:

- من أين أتيت بتلك المروحة أيتها الزنجية؟

فأجابت روزالين بأريحية:

- لقد سرقتها من الكنيسة.

كنت قد ذهبت في السابق مع مجموعتي في الكنيسة إلى نهر شاطوغا، وركبنا منصة عائمة أخذتنا إلى أسفل النهر، وفي تلك اللحظة، عاودني نفس الشعور، شعور بأن التيار كان يرفعني ويزجني في دوامة من الأحداث التي لم يكن بإمكاني عكسها.

وحين صرنا على مقربة من الرجال الثلاثة، رفعت روزالين مبصقة السعوط التي كانت مليئة باللعاب الأسود، وأفرغتها على رؤوس أحذيتهم بهدوء، محركة يدها في دوائر صغيرة وكأنها تكتب اسمها، روزالين دايز، تماما بنفس الطريقة التي تمرنت عليها.

وللحظة، فغر الرجال الثلاثة أفواههم في العصير الذي كان يسيل على أحذيتهم كزيت السيارات. وطرفت أعينهم وكأنها تحاول تسجيل ذلك. وحين رفعوا أبصارهم، انتقلت تعابير وجوههم من المفاجأة إلى الغضب فالحنق الصارخ. وبعد ذلك، انقضوا على روزالين وبدأ كل

شيء في الدوران. وأمسكوا روزالين وانهالوا عليها بالضرب فكانت تتأرجح بينهم كمحفظة جيب بين ذراعيها وهم يصرخون فيها لتعتذر وتنظف أحذيتهم.

- نظفي ذلك!

وهذا كل ما كنت أسمعه دون توقف. وبعد ذلك، كنت أسمع الطيور وهي تصرخ بحدة شديدة فوقنا، وتنطلق من أشجار حانية الأغصان مثيرة رائحة الصنوبر. وأدركت في تلك اللحظة أن تلك الرائحة كانت ستعلق بذاكرتي وتجعلني أستعيد شريط حياتي كلها.

وقال الموزع للرجل الذي كان بالداخل:

- اتصل بالشرطة.

وكانت روزالين في تلك اللحظة مطروحة على الأرض، ومثبتة عليها، وكانت تلف أصابعها حول كتل العشب والدم يجرى من جرح تحت عينيها وينزل على ذقنها وكأنه دموع.

وحين وصل الشرطي، أمرنا بالركوب خلفه في السيارة.

وقال لروزالين:

- أنت رهن الاعتقال بتهمة الهجوم والسرقة والإخلال بالسلم.

ثم قال لي:

- حين نصل إلى المركز، سأتصل بوالدك وسيتصرف هو في أمرك.

وصعدنا أنا وروزالين السيارة، وانزلقتْ فوق المقعد ثم دخلتُ بعدها وانزلقت مثلها. وجلستُ بنفس الطريقة التي جلست بها.

وأُغلِق الباب بهدوء شديد فلم يُسمع سوى طقطقة هواء، وكانت تلك غرابة الأمر، كيف يمكن أن يواري صوت بذلك الهدوء عالما بأكمله؟

****

عندما ترتحل جماعة النحل فهي عادة ما لا تبتعد عن قفيرها القديم سوى بضعة أمتار ثم تستقر. ويبحث النحل المستكشف عن مكان ملائم للمستعمرة الجديدة. وفي الأخير، يفوز موقع ما بالأفضلية وتنطلق إليه الجماعة.

Bees of the World

الفصل الثاني

كان الشرطي الذي اقتادنا إلى السجن يدعى السيد آفري غاتسون، ولكن رجال محطة إيسو كانوا ينادونه شو، بمعنى حذاء. وهو لقب مثير لأن حذاءه لم يكن مميزا بالمرة، ولا حتى قدماه حسب ما كنت أراه. والشيء الوحيد الذي كان مثيرا فيه هو أذناه، فقد كانتا صغيرتين كأذني طفل وتشبهان حبتيْ دراق مجفف. وأمعنت النظر فيهما من المقعد الخلفي متسائلة عن سبب عدم تلقيبه بإيرز، أي أذنين.

وكان الرجال الثلاثة يلحقون بنا في سيارة بيك آب خضراء بداخلها مسند أسلحة. وكانوا يقودون السيارة على مقربة من واقي صدمات سيارتنا ويضغطون على بوق السيارات من ثانية لأخرى. وكان ذلك يجعلني أقفز في كل مرة فتربت روزالين على ساقي. وعندما مررنا بمتجر ويسترن آوتو، اقترب الرجال من سيارتنا وأخذوا يصيحون من النافذة بأشياء لم نكن نفهمها في الغالب لأن نوافذ سيارتنا كانت مغلقة. ولاحظت أنه لم يكن يحق للجالسين في المقاعد الخلفية لسيارات الشرطة الحصول على مقبض باب السيارة أو ذراع التدوير، ولذلك فقد أُنعِم علينا بأن نساق إلى السجن في حر خانق ونتابع الرجال وهم يتفوهون بأشياء كنا سعداء بعدم سماعها.

وكانت روزالين تنظر إلى الأمام وتتصرف وكأن أولئك الرجال كانوا حشرات تافهة تئز خلف مُنخَل الباب. ووحدي كنت أشعر باهتزاز فخذيها ومعهما المقعد الخلفي الذي كان يرتج وكأنه فراش هزاز.

وقلت:

- سيد غاتسون، هل سيأتي معنا أولئك الرجال أم ماذا؟

وظهرت ابتسامته على مرآة السيارة الخلفية، وقال:

- ليس بإمكاني التنبؤ بما ينوي رجال منزعجون بهذا القدر فعله.

وقبل أن نصل إلى الشارع الرئيسي، ضجر الرجال من تسليتهم وانطلقوا مسرعين، فتنفست الصعداء. ولكن، عندما توقفنا عند قطعة الأرض الخالية خلف مركز الشرطة، كانوا في انتظارنا عند الدرج الخلفي. وكان الموزع ينقر مصباحا يدويا على راحة يده بينما كان الرجلان الآخران يحملان مروحتي الكنيسة ويحركانها جيئة وذهابا.

وحين خرجنا من السيارة، صفد السيد غاتسون يدي روزالين إلى الخلف. وكنت أمشي على مقربة منها وأشعر بجسدها وهو ينفث البخار.

وتوقَّفَت روزالين على بعد عشر ياردات من الرجال ورفضت التزحزح من مكانها. فقال السيد غاتسون:

- حسنا، انظري. لا تجعليني مضطرا لإخراج سلاحي.

ولم يكن رجال شرطة سيلفان يخرجون أسلحتهم في العادة إلا

عندما يدعوهم الناس لإطلاق النار على الأفعى الجرسية في حدائقهم.

وقلت:

- هيا يا روزالين، ماذا يمكنهم أن يفعلوا في حضور الشرطي؟

وفي ذلك الحين، رفع الموزع مصباحه اليدوي فوق مستوى رأسه وهشمه على جبهة روزالين، فسقطت على ركبتيها.

ولا أتذكر أني صرخت ولكن السيد غاتسون وضع يده على فمي، وطلب مني أن أصمت قائلا:

- شششششش...

وقال الموزع:

- ربما ترغبين الآن في الاعتذار.

وحاولت روزالين الوقوف على قدميها، ولكن ذلك كان مستحيلا لأن يديها كانتا مصفدتين. وكان علينا أنا والسيد غاتسون مساعدتها على الوقوف.

وقال الموزع وقد تقدم خطوة نحو روزالين:

- ستعتذر مؤخرتك السوداء بطريقة أو بأخرى.

وقال السيد غاتسون وهو يقتادنا نحو الباب:

- توقف الآن يا فرانكلين. إن الوقت غير مناسب.

- لن يشفى غليلي قبل أن تعتذر.

وكان ذلك آخر شيء سمعته منه قبل أن ينتابني شعور جامح بالجثو على ركبتي وتقبيل أرضية السجن.

****

كانت الصورة الوحيدة المخزونة في مخيلتي عن السجن مستوحاة من أفلام الويسترن، ولم يكن هذا السجن يمت لها بصلة. فمن جهة، كان لون جدرانه وردياً وستائر نافذته من قماش مطبوع بالأزهار. وتبين أننا دخلنا من الجهة التي كان يسكنها السجان. وقدمت زوجته من المطبخ وكانت تدهن قالب حلوى، فقال لها السيد غاتسون:

- لدينا فمان إضافيان لإطعامهما.

وتابعت هي عملها دون أن تتكلف عناء الابتسام لنا والتعاطف معنا.

وقادنا السيد غاتسون إلى الجهة الأمامية حيث كان هناك صفان من زنزانات السجن، وكانت كلها فارغة. وفك السيد غاتسون الأصفاد عن يدي روزالين وسلمها منشفة من الحمام. وضغطت بها على رأسها فيما انشغل هو بملء بعض الأوراق على المكتب، ثم أخذ يفتش عن المفاتيح في درج الوثائق.

وكانت تنبعث من زنزانات السجن رائحة الخمر. ووضعنا في الزنزانة الأولى من الصف الأول، حيث كان أحدهم قد نقش كلمتي «عرش البراز» على مقعد معلق على الحائط. وبدا كل شيء صعب التصديق. لقد كنا في السجن. هذا ما خطر ببالي، نحن في السجن.

وحين أزاحت روزالين المنشفة عن جبهتها، كان على حاجبها

انتفاخ يقطعه جرح بليغ بطول بوصة، فسألتها:

- هل تشعرين بالألم؟

وأجابت:

- نوعا ما.

وطافت حول الزنزانة مرتين أو ثلاث قبل أن تغطس في المقعد.

وقلت:

- سيخرجنا تي-ري من هنا.

- همم...

ولم تقل شيئا إلى أن فتح السيد غاتسون باب الزنزانة بعد ذلك بحوالى نصف ساعة، وهتف:

- هيا.

وانبعث الأمل في روزالين لبرهة وهمت بالنهوض. ولكن السيد غاتسون هز رأسه وقال:

- لن تبرحي المكان. أريد الفتاة فقط.

وعندما وصلت إلى الباب، أمسكت بأحد قضبان الزنزانة وكأنني كنت أمسك بذراع روزالين وقلت:

- سأعود. هل تسمعينني يا روزالين؟ سوف أعود.

- هيا اذهبي، سأتدبر أمري.

وكادت تقتلني نظرة الاستسلام على وجهها.

****

كانت إبرة مؤشر السرعة في شاحنة تي-ري تهتز بشدة حتى إني لم أكن أستطيع رؤية ما إن كانت تشير إلى سبعين أم ثمانين. وكان تي-ري ينحني على المقود ويضغط برجله على الدواسة ويتركها ثم يدوسها من جديد. وكانت الشاحنة المسكينة تقعقع لدرجة أني كنت أعتقد أن غطاء المحرك سيطير ويجتث في طريقه عددا من أشجار الصنوبر.

وتخيلت أن تي-ري كان يهرع إلى البيت ليأخذ مباشرة في بناء أهرام من الدقاق في كل أنحاء المنزل، ويصنع غرفة للتعذيب من الأطعمة الأساسية، حيث سأنتقل من حزمة إلى أخرى وأجثو عليها لساعات دون أن أحظى باستراحة للذهاب إلى الحمام. ولم أكن أكترث بذلك، إذ لم أكن أستطيع التفكير إلا في روزالين التي بقيت في السجن.

وشزرت إليه وقلت:

- وماذا عن روزالين؟ يجب أن تخرجها من هناك...

وصرخ فيّ:

- أنت محظوظة لأني أخرجتك من هناك!

- ولكن، لا يمكن أن تبقى في ذلك المكان...

- لقد أفرغت مبصقتها على ثلاثة رجال بيض! اللعنة! ما الذي

كانت تفكر فيه؟ وفوق ذلك كله، على فرانكلين بوزي! ألم تكن تستطيع أن تختار شخصا عاديا على الأقل؟ إنه أكثر كارهي السود لؤماً في سيلفان. وسيقتلها بمجرد أن يلمحها.

أنت لا تقصد ذلك... هل تقصد أنه سيقتلها بمعنى الكلمة؟

وشعرت بوهن في تجويف ذراعي. إن فرانكلين بوزي هو الرجل الذي كان يحمل المصباح اليدوي، وكان سيقتل روزالين. ولكن، ألم أشعر بذلك حتى قبل أن يخبرني تي-ري؟

ولحق بي تي-ري وأنا أصعد الأدراج. وتعمدت التحرك ببطء وتجمع الغضب بداخلي فجأة. كيف كان له أن يترك روزالين في السجن بتلك السهولة؟

وما إن دخلت غرفتي حتى وقف عند الباب وقال:

- يجب أن أذهب لدفع أجور اللاقطين. لا تغادري هذه الغرفة. هل تفهمين ذلك؟ اجلسي هناك وفكري فيما سأفعله عندما أعود، فكري في الأمر بجدية.

وأجبته بصوت خافت جدا وقلت:

- أنت لا تخيفني.

وكان قد استدار وهم بالمغادرة، ولكنه استدار من جديد بسرعة وقال:

- ماذا قلت؟

وأجبته بصوت أعلى تلك المرة:

- أنت لا تخيفني.

وانفجر بداخلي شعور بالتحدي، شيء جريء كان محبوسا داخل صدري.

وتقدم نحوي ورفع راحة يده وكأنه سينزل بها على وجهي وقال:

- فلتنتبهي لما تتفوهين به.

وصحت:

- هيا اضربني.

وحين لوح بيده، أدرت وجهي. وفشل فشلا ذريعا.

وركضت نحو فراشي وزحفت إلى الوسط وأنا أتنفس بمشقة. وصرخت:

- لن تسمح لك أمي بلمسي مرة ثانية!

- أمك؟

وأصبح وجهه أحمر قانيا. وقال:

- هل تعتقدين أن تلك المرأة اللعينة كانت تهتم لأمرك؟

وصرخت:

- لقد كانت أمي تحبني!

وهز رأسه إلى الخلف وأخرج ضحكة مصطنعة ومُرّة. فقلت:

- هذا... هذا غير مضحك.

وفي تلك اللحظة، اندفع نحو السرير وغرز قبضته فيه واقترب بوجهه مني حتى كدت أرى الثقوب الصغيرة التي كان ينبثق منها شعر لحيته. وتراجعت إلى الوراء قليلا نحو المخدات ودفعت ظهري إلى الخلف عند لوح رأس السرير.

وصرخ:

- غير مضحك؟ غير مضحك، لماذا؟ إنه أطرف شيء لعين سمعته على الإطلاق. هل تعتقدين أن أمك هي ملاكك الحارس؟

وضحك من جديد وتابع:

- إن تلك المرأة لم تكن لتكترث بك أقل مما فعلت.

وقلت له:

- هذا غير صحيح، نعم، غير صحيح.

وقال، وهو لا يزال منحنياً باتجاهي:

- ومن أين لك أن تعرفي ذلك؟

وكانت على زوايا شفتيه بقايا ابتسامة.

وصرخت فيه:

- أنا أمقتك.

وجعل ذلك ابتسامته تتلاشى على الفور. وتجمد في مكانه،

وشحبت شفتاه، وقال:

- لماذا أيتها العاهرة الصغيرة؟

وشعرت فجأة ببرد قارس. وشعرت وكأن شيئا خطيرا تسرب إلى الغرفة. وأشحت بنظري باتجاه النافذة فسرت في جسدي رجفة وانتشرت على طول عمودي الفقري.

وقال بهدوء قاتل:

- اسمعيني، في الحقيقة، أمك البائسة تلك هربت وتركتك. وفي اليوم الذي ماتت فيه، كانت قد عادت لتأخذ أشياءها. هذا كل ما في الأمر. ويمكنك أن تكرهيني كما يحلو لك. ولكن أمك هي من تركك.

وأطبق الصمت على الغرفة.

وأزاح شيئا عن الجهة الأمامية من قميصه ثم خرج من الباب.

وبعد أن غادر، لم أفعل شيئا سوى تتبع أشعة الضوء على سريري بأصبعي. وخفت وقع ارتطام حذاء تي-ري بالأدراج، وأخذت المخدات من تحت اللحاف ووضعتها حولي وكأني أركّب أنبوباً داخلياً قد ينقذني من الغرق. كنت لأفهم أن تتركه هو، ولكن أن تتركني أنا؟ لقد كان ذلك كفيلا بأن يغرقني للأبد.

وكان مرطبان النحل على المنضدة جانب السرير وقد أصبح فارغا. وكان النحل قد تمكن أخيرا من المغادرة في وقت ما خلال ذلك الصباح. وحملت المرطبان بين يدي وانهمرت من عيني الدموع التي تجمعت بداخلي لما بدا أنه سنوات طويلة.

أمك البائسة هربت وتركتك. وفي اليوم الذي ماتت فيه، كانت قد عادت لتأخذ أشياءها. هذا كل ما في الأمر.

يا إلهي، اجعله يتراجع عما قاله.

وعادت الذكرى. الحقيبة وهي الأرض. الطريقة التي كانا يتشاجران بها. وبدأ كتفاي في الارتجاف بطريقة لم أستطع التحكم فيها. فحملت المرطبان وضممته إلى صدري آملة في أن يثبتني ولكني لم أستطع التوقف عن الارتجاف ولا عن البكاء، وأرعبني ذلك، وكأنني كنت ملقاة إلى جانب الطريق بعد أن دهستني سيارة لم أرها وأنا أحاول فهم ما حدث.

وجلست على حافة السرير بينما كانت كلماته تتردد دون انقطاع. وفي كل مرة كنت أشعر بلوعة في قلبي.

ولا أعرف كم لبثت هناك من الوقت وبداخلي شعور بأني كنت محطمة. وفي الأخير، توجهت إلى النافذة ورنوت إلى أشجار الدراق التي كانت تمتد حتى منتصف الطريق المؤدية إلى كارولاينا الشمالية، وإلى سواعدها المورقة التي كانت تمدها وكأنها تتوسل أشد التوسل. وما تبقى من الصورة كان هو السماء والهواء والفضاء الموحش.

نظرت إلى مرطبان النحل الذي كنت أمسكه بين يدي وقد تجمع في قاعه مقدار ملعقة من الدموع. وفتحت زجاج النافذة وأفرغتها في الخارج، فحملتها الريح في ذيل تنورتها ونثرتها على العشب المتقرح. كيف استطاعت أن تتركني؟ وبقيت واقفة هناك بضع دقائق أتطلع إلى العالم محاولة فهم الأمر. وكانت العصافير تزقزق بمنتهى المثالية.

وفي تلك اللحظة خطرت الفكرة ببالي، ماذا لو لم تكن قد تركتني حقا؟ وماذا لو كان تي-ري يدعي ذلك ليعاقبني.

وكاد يغمى عليَّ من شدة الارتياح. ذلك ما حصل. لا بد وأن الأمر كذلك. فأبي يصبح توماس إديسون عندما يتعلق الأمر باختراع العقوبات. فبعد أن تحدثت إليه بفظاظة ذات مرة، قال لي إن أرنبتي، مادموزيل، قد ماتت وبكيتها طوال الليل قبل أن أكتشف عند الصباح الموالي أنها في تمام الصحة في جحرها. ولذلك، فلا بد وأنه كان يدعي ذلك أيضا. هناك أشياء غير ممكنة في هذا العالم، فلا يمكن أن يرفض كلا الوالدين حب طفل ما. قد لا يحبه أحدهما، ولكن، ليس الاثنان، الرحمة.

ولا بد وأن الأمر كان كما قال من قبل. لقد كانت تنظف الخزانة يوم الحادث. فدائما ما ينظف الناس خزاناتهم.

وتنفست لأثبِّت نفسي.

يمكنك القول إنني لم أكن قد مررت بلحظة روحانية قط، تلك اللحظة التي يكلمك فيها صوت غير صوتك، ويتحدث إلى روحك حتى ترى الكلمات وهي تلمع على الشجر والغيم. ولكنني عشت تلك اللحظة عندها، وأنا أقف في غرفتي البسيطة، سمعت صوتا يهتف بي: ليلي ميليسا أوين، مرطبانك قد فتح.

وفي غضون ثوان عرفت تماما ما كان عليّ فعله. الرحيل. كان عليّ أن أهرب من تي-ري الذي كان سيعود في تلك اللحظة ليفعل بي ما لا يعلم به سوى الرب. ثم كان عليّ إخراج روزالين من السجن.

وكانت الساعة عندئذ تشير إلى الثانية وأربعين دقيقة بعد الزوال. وكنت بحاجة إلى خطة محكمة، إلا أنني لم أكن أتمتع برفاهية الجلوس ووضع خطة ما. فأخرجت حقيبة الدفل الوردية، التي كنت أنوي استعمالها في حال دعتني إحدى الصديقات للمبيت في منزلها. وأخذت الثمانية وثلاثين دولارا التي كسبتها من بيع الدراق ووضعتها في الحقيبة مع أفضل سبع ملابس داخلية كنت أمتلكها، تلك التي كانت أيام الأسبوع مخطوطة على ظهرها. ورميت الجوارب داخل الحقيبة وخمسة أزواج من السراويل القصيرة والقمصان وقميص نوم وشامبو ومشطا ومعجون أسنان وفرشاة أسنان وحلقات شعر مطاطية، وكانت عيناي تراقبان النافذة. ماذا أيضا؟ وما إن لمحت الخريطة المعلقة على الحائط حتى اقتلعتها دون أن أزيل الدبابيس أولا.

وأخرجت صورة أمي وقفازيها وصورة مريم السوداء الخشبية من تحت السرير ودسستها في الحقيبة كذلك.

وبعد ذلك، مزقت ورقة من دفتر مادة اللغة الإنجليزية للعام الماضي، وكتبت ملحوظة لتي-ري. وكانت رسالة قصيرة ولكنها في الصميم:

«عزيزي تي-ري، لا تكلف نفسك عناء البحث عني.

ليلي،

ملحوظة: يجب أن يتعفن أولئك الذين يكذبون مثلك في الجحيم».

وحين تفقدت النافذة، لمحته قادما من البستان إلى المنزل، ويداه على شكل قبضة، ورأسه منحنٍ إلى الأمام وكأنه كان يريد أن يخترق شيئا ما.

ووضعت الورقة على منضدتي، ثم وقفت للحظة وسط الغرفة متسائلة ما إن كنت سأراها مجددا. وقلت لها، «وداعا»، فيما انبثق غصن من الحزن في قلبي.

وعندما وصلت إلى الخارج، استرقت النظر إلى المساحة المكسورة من التعريشة المحيطة بأساس المنزل. وتسللت منها ثم اختفيت في الضوء الأرجواني والهواء المحمل بالعناكب.

وكانت قدما تي-ري تدوسان على الشرفة. وأبحر صوته فوق ألواح أرضية المنزل:

- لـــيييلي! ليلـــيييي!

وفجأة، برزت سناوت، وكانت تشتم البقعة التي زحفت فوقها. وانزويت إلى الظلام، ولكنها اشتمت رائحتي وبدأت في النباح برأسها الأجرب.

وبزغ تي-ري ورسالتي بين يديه، وصرخ في سناوت لتصمت، ثم هرع إلى شاحنته مخلفا وراءه خطوط أدخنة العادم على طول الطريق.

****

وأنا أذرع الطريق المليئة بالأعشاب الضارة إلى جانب الطريق الرئيسية للمرة الثانية في نفس اليوم، كنت أفكر في مقدار النضج الذي أضافه إليَّ عامي الرابع عشر. فقد أصبحت في الأربعين من عمري في غضون ساعات.

وامتدت الطريق أمامي خالية على مد البصر، وجعل تلألؤ الحرارة

الهواء يبدو متموجا في بعض الأماكن. أين يمكننا الذهاب أنا وروزالين إذا استطعت إطلاق سراحها؟ وبدت كلمة إذا ضخمة جدا، ربما بحجم كوكب المشتري.

وفجأة تسمرت في مكاني. تيبورون، كارولاينا الجنوبية. طبعا. وكان اسم المدينة مكتوبا على ظهر صورة مريم السوداء. ألم أكن أخطط للذهاب إلى هناك يوما ما؟ لقد بدا ذلك منطقيا تماما، فقد كانت أمي هناك. أو ربما كانت تعرف أشخاصا هناك يهتمون بها بما فيه الكفاية ليرسلوا لها صورة جميلة لأم المسيح. ومن قد يفكر في البحث عنا هناك؟

وجلست القرفصاء إلى جانب خندق وفتحت الخريطة. وكانت تيبورون نقطة صغيرة مقارنة بنجمة كولومبيا الحمراء الكبيرة. سيتفقد تي-ري محطة الحافلات، ولذلك علينا -أنا وروزالين- أن نستوقف السيارات العابرة ونطلب توصيلة. وليس الأمر بتلك الصعوبة. فكل ما عليك فعله هو الوقوف وإخراج إبهامك، وسيشفق عليك شخص ما ويوصلك.

وعلى بعد مسافة قليلة من الكنيسة، مر الأخ جيرالد بسيارة فورد بيضاء. ورأيت أضواء فرامله وهي تومض، ثم سيارته وهي ترجع إلى الخلف. وأطل من النافذة وقال:

- ظننت أني رأيتك. إلى أين أنت ذاهبة؟

- إلى البلدة.

- مرة أخرى؟ ماذا ستفعلين بتلك الحقيبة؟

- أنا... سآخذ بعض الأشياء إلى روزالين. إنها في السجن.

- نعم، أعرف ذلك.

قال، وفتح باب المقعد إلى جانبه وأضاف:

- ادخلي، أنا أيضا ذاهب إلى هناك.

ولم أكن قد دخلت سيارة قس من قبل. ولا أقصد أني كنت أتوقع أن أجد طنا من الأناجيل مكدسة على المقعد الخلفي، ولكني فوجئت بأنها لم تكن تختلف عن باقي السيارات.

وسألته:

- هل أنت ذاهب لرؤية روزالين؟

- لقد اتصلت بي الشرطة وطلبت إليّ تقديم تهمة ضد روزالين بسرقة ممتلكات الكنيسة. وقيل إنها أخذت بعض مراوحنا. هل تعرفين شيئا عن ذلك؟

- لقد أخذت مروحتين فقط.

ولبس صوته فجأة نبرة الواعظ، وقال:

- في عيون الرب، لا فرق بين سرقة مروحتين أو مائتي مروحة، فالسرقة تبقى سرقة. لقد سألتني إن كانت تستطيع أخذها وقلت إن ذلك غير ممكن. لقد شرحت ذلك بلغة واضحة، ولكنها أخذتها مع ذلك. وتلك خطيئة يا ليلي.

ولطالما استفزني الأشخاص الورعون.

وقلت:

-ولكن إحدى أذنيها صماء، أعتقد أن الأمر اختلط عليها، وهي تفعل ذلك دائما. أحيانا يطلب منها تي-ري أن تكوي قميصين اثنين، فتكوي قميصه البني.

- مشكل في السمع، حسنا، لم أكن على علم بذلك.

- لم تكن روزالين لتسرق شيئا البتة.

- قيل أيضا إنها اعتدت على بعض الرجال في محطة إيسو.

وقلت له:

- لم يكن الأمر كذلك. لقد كانت تردد ترنيمتها الدينية المفضلة، ولا أعتقد أن أولئك الرجال مسيحيون حقا يا أخ جيرالد، لأنهم صرخوا فيها وطلبوا إليها أن تكف عن ترديد تلك الأغنية الفارغة عن المسيح. وحينها قالت روزالين: «يمكنكم أن تشتموني ولكن لا تزدروا بالمسيح» ولكنهم استمروا في ذلك. وعندئذ قامت بإفراغ مبصقتها على أحذيتهم. قد تكون أخطأت في ذلك، ولكنها كانت تقصد الدفاع عن المسيح.

وكنت أتصبب عرقاً حتى تبلل قميصي والجزء الخلفي من فخذيّ.

وعض الأخ جيرالد على أسنانه وحرك فكه جيئة وذهابا. وأستطيع القول إنه كان يفكر فيما قلته.



كان السيد غاتسون بمفرده في قسم الشرطة، وكان منهمكا في أكل الفول السوداني المسلوق على مكتبه عندما دخلنا أنا والأخ جيرالد من الباب. وكانت القشور تحيط بالسيد غاتسون، ولم يكن ذلك غريبا عنه. وقال وهو ينظر إلي:

- إن امرأتك السوداء ليست هنا، لقد أخذتها إلى المستشفى ليضعوا لها بعض الغرز، لقد سقطت وارتطم رأسها بالأرض.

سقطت، طبعا. وكنت أود أن أكب فوله السوداني المسلوق على الحائط.

ولم أستطع أن أمنع نفسي من الصياح:

- ماذا تقصد بأنها سقطت وارتطم رأسها بالأرض؟

ونظر السيد واتسون إلى الأخ جيرالد، بتلك النظرة المطلعة التي ينظر بها الرجال إلى بعضهم حين تتصرف امرأة بهستيرية أمامهم، وقال لي:

- اهدئي الآن.

- لا يمكنني أن أهدأ قبل أن أعرف أنها بخير.

قلت بصوت أهدأ قليلا، ولكنني كنت لا أزال أرتجف.

- إنها بخير، لقد تعرضت لرجة صغيرة. وأتوقع أن تعود عند المساء. فقد قال الطبيب إنه يرغب في متابعة حالتها لبضع ساعات.

وتوجهت صوب الباب بينما كان الأخ جيرالد يقول للسيد غاتسون إنه لن يستطيع توقيع مذكرة الاعتقال لأن روزالين كانت صماء تقريبا.

ورمقني السيد غاتسون بنظرة تهديد، وقال:

- هناك حارس يقف على باب غرفتها في المستشفى، وهو لا يسمح لأحد بزيارتها. عودي إلى منزلك. هل تفهمين ذلك؟

- نعم سيدي، أنا ذاهبة إلى المنزل.

- فلتفعلي ذلك. وإذا عرفت بأنك اقتربت من المستشفى، سأتصل بوالدك من جديد.

****

كان مستشفى سيلفان بناية قصيرة من الآجر تتكون من جناحين، أحدهما للبيض والآخر للسود.

دخلت دهليزا مهجورا مثقلا بالروائح، رائحة القرنفل والمتقدمين في السن والمعقمات ومزيلات الروائح عن الحمامات، والهلام. وكانت مكيفات الهواء تبزغ من نوافذ قسم البيض، ولم يكن في قسم السود سوى مراوح كهربائية تنقل الهواء الساخن من مكان إلى آخر.

وفي قسم الممرضات، كان شرطي يسند مرفقه إلى المكتب. وكان يبدو كشخص ترك المدرسة الثانوية للتو، بعد أن رسب في امتحان التربية البدنية، وكان يصاحب الفتيان الذين كانوا يدخنون خلال الفسحة. وكان يتحدث إلى فتاة بيضاء أعتقد أنها كانت ممرضة ولكنها لم تكن تبدو أكبر مني سناً. وسمعته يقول: "سأغادر عند السادسة". وكانت هي تقف هناك مبتسمة وتضع خصلة من شعرها خلف أذنها.

وعند آخر الممر، وُضع كرسي خارج إحدى الغرف، وكانت تحته

قبعة شرطي. فهرعت إلى هناك ووجدت إشارة على الباب. ممنوع الزيارة. ودخلت.

وكان في الغرفة ستة أسرة، وكانت جميعا شاغرة باستثناء السرير الذي كان على مقربة من النافذة. وكانت شراشف السرير مرتفعة عن مكانها وكأنها كانت تحاول جاهدة إيواء شاغل السرير. وألقيت بحقيبتي على الأرض، وناديت روزالين.

وكان رأسها ملفوفا بضماد بحجم حفاظ، ومعصماها مربوطان إلى الإطار الحديدي للسرير.

وحين رأتني أمامها، أخذت في البكاء. ولم يسبق لي أن رأيت دمعة واحدة تنزل من عينها طوال السنين التي اعتنت فيها بي. وفي تلك اللحظة، بدا وكأن السد انفجر تماما. وربتت على ذراعها وساقها ووجنتها ويدها.

وحين نشف دمعها أخيرا، سألتها:

- ماذا حدث لك؟

- بعد أن غادرت، أحضر الشرطي «شو» أولئك الرجال حتى أعتذر لهم.

- هل ضربوك مرة أخرى؟

- لقد أمسك اثنان منهم بذراعي وقام الآخر بضربي، ذلك الذي كان يحمل المصباح اليدوي. وقال «اعتذري أيتها الزنجية» وحين لم أفعل، هاجمني. وضربني إلى أن أوقفه الشرطي. ولكني لم أعتذر لهم بالرغم من ذلك.

كنت أريد أن يتفحم أولئك الرجال في الجحيم، لكني كنت، في ذات الوقت، غاضبة من روزالين. لماذا لم تعتذري بكل بساطة؟ عندئذ ربما كان سيتركك فرانكلين بوزي وشأنك بعد ضربة واحدة. إن كل ما فعَلَتْه كان يؤكد أنهم كانوا سيعودون من جديد.

- يجب أن تخرجي من هنا.

قلت لها وأنا منشغلة بفك معصميها.

- لا يمكنني المغادرة هكذا، فأنا ما زلت مسجونة.

- إذا بقيت هنا، سيعود أولئك الرجال وسيقتلونك. أنا أتكلم بجدية. سيقتلونك، كما قتل أولئك السود في المسيسيبي. لقد قال تي-ري ذلك بنفسه.

وحين جلست، تراجع لباس المستشفى إلى أعلى فخذها وجرته نحو ركبتيها ولكنه تراجع من جديد كقطعة من المطاط. ووجدتُ فستانها في الخزانة وأعطيتها إياه.

وقالت:

- إن هذا تصرف طائش.

- ارتدي فستانك، فقط افعلي ذلك.

وأدخلت الفستان من رأسها فمال الضماد على جبهتها، وقلت:

- يجب أن تزيلي الضماد.

وأزحته لأجد صفاً من الغرز. ثم أشرت لها بأن تلتزم الصمت وفتحت الباب لأتفقد ما إن كان الشرطي قد عاد إلى كرسيه.

وكان هناك بالفعل. وقد كان من المبالغ أن نأمل أن يبقى بعيدا يغازل الممرضة إلى أن نغادر نحن. ووقفت هناك لبضع دقائق محاولة التفكير في خطة ما، ثم فتحت حقيبتي ونكشتها بحثاً عن النقود التي جنيتها من بيع الدراق وأخذت منها بعض السنتات، وقلت لروزالين:

- سأحاول التخلص منه. عودي إلى السرير في حال تفقد الغرفة.

وأمعنَتِ النظر فيّ إلى أن تقلص حجم عينيها إلى مجرد نقطتين، وقالت:

- يا مسيح.

وعندما خرجت إلى البهو، قفز الشرطي من مكانه.

- لا يفترض بك أن تكوني هنا!

وحركت رأسي في محاولة مني لافتعال الارتباك، وقلت:

- أعرف ذلك. أنا أبحث عن خالتي. أنا شبه متأكدة أنهم قالوا لي الغرفة رقم ١٠٢، ولكن هناك امرأة سوداء على السرير.

- أنت تائهة إذن. يجب أن تذهبي إلى الجهة الأخرى من البناية. أنت في الجهة المخصصة للسود.

ابتسمت له وقلت:

- آه، حسنا.

وفي جناح البيض، وجدت هاتفا يعمل بالنقود في محاذاة بهو الانتظار. وحصلت على رقم هاتف المستشفى من الإرشادات وركبت الرقم وطلبت قسم الممرضات في جناح السود.

تنحنحت وقلت للفتاة التي ردت على الهاتف:

- أنا زوجة السجان، أتحدث إليك من قسم الشرطة. السيد غاتسون يود أن ترسلوا الشرطي الذي وضعناه هناك إلى قسم الشرطة. قولي له إن القس قادم إلى هنا لتوقيع بعض الأوراق والسيد غاتسون غير موجود هنا لأنه اضطر للمغادرة. أرجو أن تقولي له أن يأتي حالا...

وكان جزء مني ينطق بتلك الكلمات فيما كان الجزء الآخر ينصت له، مفكرا في أن مكاني يوجد في مدرسة لإعادة التأهيل أو دار للجانحات الأحداث، ولربما زج بي في إحداهما قريبا.

ورددت الممرضة ما قلته للتأكد من فهمها لذلك. وعبرت تنهيدتها الهاتف.

- سأخبره بذلك.

ستقول له ذلك. لم أصدق الأمر.

وتسللت إلى الجناح المخصص للسود واختبأت خلف نافورة الماء لأشاهد الفتاة البيضاء وهي تبلغ الشرطي بالرسالة مستخدمة الكثير من الإشارات. ورأيت الشرطي وهو يضع قبعته على رأسه ويعبر الدهليز ثم يغادر.

****

حين غادرنا أنا وروزالين الغرفة، التفتّ ذات اليمين وذات الشمال. وكان علينا اجتياز مكتب الممرضات للخروج من جناح السود، ولكن الفتاة ذات الزي الأبيض بدت منشغلة إذ كانت تكتب شيئا ما وهي تطرق رأسها.

وقلت لروزالين

- تصرفي وكأنك زائرة.

وعندما وصلنا إلى منتصف الطريق إلى المكتب، توقفت الفتاة عن الكتابة ونهضت، فقلت:

- يا لسطل البراز.

وأمسكت بذراع روزالين وسحبتها إلى داخل إحدى الغرف.

وكانت على السرير امرأة هزيلة ومسنة تشبه الطائر، وكان وجهها بلون العليق. وفغرت فاهها حين رأتنا، وخرج لسانها معوجاً كفاصلة في غير محلها، وقالت:

- هل لي ببعض الماء؟

وذهبت إليها روزالين وصبت كأساً من الماء من الإبريق وناولته للمرأة بينما كنت أحمل حقيبة الدفل على صدري وأسترق النظر إلى الخارج.

وشاهدت الفتاة وهي تختفي داخل غرفة قريبة حاملة قنينة زجاجية، فقلت لروزالين:

- هيا بنا.

وقالت المرأة الهزيلة:

- ستغادران الآن؟

وأجابتها روزالين:

- نعم، ولكننا قد نعود قبل نهاية اليوم.

وربما كانت تلك الكلمات موجهة لي أكثر منه للمرأة.

وفي تلك المرة، لم نمش وكأننا زائرتان وإنما انطلقنا كومضة برق.

وحين أصبحنا في الخارج، أخذت يد روزالين وسحبتها إلى جانب الطريق، فقالت ونبرة صوتها تشي بشيء ما:

- والآن، وبما أنك تعرفين كل شيء، أعتقد أنك تعرفين إلى أين نحن ذاهبتان.

- سنتجه إلى الطريق الرئيسي ٤٠، وسنطلب توصيلة إلى تيبورون في كارولاينا الجنوبية. أو سنحاول ذلك على الأقل.

وسلكنا الطريق الخلفية عبورا بمنتزه المدينة، ثم مشينا في طريق صغيرة تفضي إلى شارع لانكاستر، وقطعنا ثلاثة مفارق إلى طريق ماي بوند وتسللنا منها إلى القطعة الأرضية الخالية خلف متجر غلينز.

وتخطينا الجزر البري وأزهار بنفسجية ذات سيقان عريضة ثم حشرات اليعسوب، وكانت رائحة ياسمين كارولاينا قوية جدا حتى تكاد تراها تطوف في الهواء كدخان ذهبي. ولم تسألني روزالين عن سبب ذهابنا إلى تيبورون ولم أقل لها شيئا عن ذلك. ولكن ما سألت عنه

هو: متى بدأت في استعمال كلمة سطل البراز؟

ولم أكن قد لجأت قط لاستخدام لغة بديئة على الرغم من أنني سمعت ما يكفي منها من تي-ري أو قرأتها في الحمامات العمومية. وأجبتها:

- أنا في الرابعة عشر من عمري الآن. وأعتقد أن في وسعي استعمالها إن أردتُ.

وكنت أرغب في أن أتلفظ بها في ذلك الحين، فقلت:

- يا لسطل البراز.

وسردت روزالين سلسلة من الكلمات البذيئة. وكانت تنطق كل كلمة وكأنها تستطعم البطاطس الحلوة.

****

وقفنا على جانب الطريق الرئيسي ٤٠ تحت ظل بقايا لوحة إعلانات سجائر لاكي سترايك. وكنت أشير بإبهامي للسيارات التي كانت ما تلبث أن ترانا حتى تزيد من سرعتها.

وأشفق علينا رجل أسود يقود شاحنة شيفي متهالكة محملة بالشمام. فصعدتُ أولا وكان عليّ التقدم إلى الأمام فيما كانت روزالين تجلس بقرب النافذة.

وقال الرجل إنه كان في طريقه لزيارة أخته في مدينة كولومبيا وإنه سيأخذ الشمام إلى سوق مزارعي الولاية. وأخبرتُه أننا ذاهبتان إلى

تيبورون لزيارة عمتي وأن روزالين كانت ستساعدها في القيام ببعض الأعمال المنزلية. وبدا الأمر واهيا ولكنه لم يسائلنا.

وقال:

- بإمكاني إنزالكما على مقربة ثلاثة أميال من تيبورون.

إن حمرة الغروب من أكثر الأضواء الباعثة على الحزن. وقد أمضينا معظم فترة الغروب في السيارة، وكان كل شيء صامتا باستثناء الصراصير والضفادع التي كانت تستعد لوقت الشفق. وكنت أرنو إلى الخارج من خلال زجاج السيارة الأمامي حيث كان الضوء المحترق يكتسح السماء.

وشغل المزارع الراديو فانساب صوت فرقة السوبريمز إلى مقصورة سائق الشاحنة «بيبي، بيبي، وير ديد يو غو؟» وما من شيء قد يذكرك بالطريقة التي يمكن أن تنزلق بها أشياؤك الثمينة من الشماعات التي علقتها عليها بكل حذر أكثر من أغنية عن حب ضائع. ووضعت رأسي على كتف روزالين، وكنت أرغب في أن تربت على الحياة وتعيدها إلى مجراها، ولكن يديها لم تتحركا من فوق حضنها.

وبعد تسعين ميلا من المكان الذي امتطينا فيه الشاحنة، توقف المزارع إلى جانب الطريق عند علامة تشير إلى أن تيبورون أصبحت على مبعدة ثلاثة أميال. وكانت العلامة تشير إلى طريق مظلمة نحو اليسار. وعندما نزلنا من الشاحنة، سألت روزالين المزارع ما إن كان بإمكاننا أخذ حبة شمام لتناولها على وجبة العشاء.

فأجاب: خذا اثنتين.

وانتظرنا إلى أن تضاءل ضوء سيارته الخلفي ولم يعد أكبر من حشرتين مضيئتين قبل أن نتكلم أو نتحرك حتى. وكنت أحاول ألا أفكر في مدى حزننا وضياعنا. ولم أكن متأكدة ما إن كان وضعنا الحالي أفضل من البقاء مع تي-ري أو حتى من الحياة في السجن. ولم يكن هناك أحد على الإطلاق لمساعدتنا. ولكني مع ذلك، كنت أحس بأني حية وبالألم الذي كان يبعثه فيّ ذلك، وكأن في كل خلية من خلايا جسدي شعلة ما تحترق بشدة وتؤلم.

وقلت لروزالين:

- لدينا ضوء البدر على الأقل.

وبدأنا في المشي. وإذا كنت تعتقد أن الريف هادئ، فإنك لم تعش فيه قط، فصوت الضفادع وحده كفيل بأن يجعلك تبحث عن سدادات الأذن.

وواصلنا المشي وكأننا في يوم عادي. وقالت روزالين إنه يبدو أن المزارع الذي أوصلنا قد حصل على حصاد جيد من الشمام، وقلت إن من الرائع أن البعوض لم يكن منتشرا هناك.

وحين بلغنا جسراً تجري من تحته المياه، قررنا أن نختار مكانا إلى جانب الجدول ونرتاح فيه تلك الليلة. وكان ذلك المكان مختلفا، فقد كانت بقع من الضوء المتحرك تلمع فوق الماء ونبات الكرمة المعترش ينتشر بين أشجار الصنوبر كأرجوحة شبكية ضخمة. وذكرني ذلك

بغابة غريم برادرز، وحرك بداخلي مشاعر التوتر التي كنت أشعر بها كلما دخلت صفحات الحكايات الخرافية التي يصبح فيها كل شيء خارج المتوقع ممكن الحدوث.

وفلقت روزالين حبتي الشمام فوق حجرة من الجدول وفتحتهما. والتهمناهما حتى الجلد ثم غرفنا من ماء الجدول وشربناه غير عابئتين بالطحالب أو الشراغيف أو ما إذا كانت الأبقار تستخدم الجدول لقضاء حاجتها، وجلسنا بعد ذلك على الضفة ونظرنا إلى بعضنا البعض.

وقالت روزالين:

- أود فقط معرفة سبب اختيارك لتيبورون من بين كل الأماكن الموجودة في هذا العالم، فأنا لم أسمع بها قط.

ورغم أن الظلام كان قد حل بالمكان، أخرجت صورة مريم السوداء من حقيبتي وسلمتها لروزالين، وقلت:

- لقد كانت لأمي. وخلفها كتب تيبورون، كارولاينا الجنوبية.

- دعيني أفكر في الأمر. اخترت تيبورون لأن والدتك كان تملك صورة كتب على ظهرها اسم هذه البلدة؟ هذا كل ما في الأمر؟

وقلت لها:

- حسنا، فكري في ذلك. لا بد وأنها جاءت إلى هنا يوما ما وهو سبب احتفاظها بالصورة، وإن كان الأمر كذلك، قد يتذكرها شخص ما. إن ذلك وارد جدا.

ووجهت روزالين الصورة نحو ضوء القمر لتتمكن من رؤيتها بشكل أفضل، وسألت:

- ومن هذه؟

فأجبتها:

- إنها مريم العذراء.

- حسنا. إنها سوداء في حال لم تنتبهي لذلك.

قالت روزالين، وكان بوسعي رؤية الأثر الذي أحدثه ذلك فيها لأنها استمرت في تمحيص الصورة وفمها مفتوح. وكان بإمكاني قراءة أفكارها: إذا كانت والدة المسيح سوداء، فلماذا لا نعرف غير مريم البيضاء؟ وكان ذلك وكأن النساء اكتشفن أن للمسيح أختاً توأماً تمتلك نصف الجينات المقدسة دون أن يلحقها شيء من المجد.

وأعادت الصورة إلي وقالت:

- أعتقد أنني أستطيع الآن الذهاب إلى قبري، فقد رأيت كل شيء.

وأعدت الصورة إلى جيبي، وسألتها وبي رغبة في أن أخبرها بكل ما حدث.

- هل تعرفين ما قاله تي-ري عن أمي؟ قال إنها تركتنا قبل أن تموت بكثير. وإنها كانت قد عادت لتأخذ أغراضها يوم الحادثة.

وانتظرت أن تقول روزالين إن ما قاله مضحك ولكنها نظرت جانبا وكأنها كانت تفكر في ذلك الاحتمال.

وقلت، وصوتي آخذ في الارتفاع وكأن شيئا ما شده إلى الأسفل ثم أخذ في دفعه نحو حلقي:

- حسنا، إن ذلك غير صحيح. وإن كان يعتقد أنني سأصدق تلك القصة، فأن لديه ثقبا في دماغه المزعوم. لقد ادعى ذلك لمعاقبتي. أعرف أنه فعل ذلك.

وكان بإمكاني أن أضيف أن للأمهات غرائز وهرمونات تمنعهن من التخلي عن أطفالهم وأن حتى الخنزير والكنغر لا يتركان صغارهما. ولكن روزالين، وقد فكرت في الأمر في آخر المطاف، قالت:

- قد تكونين على حق. أنا أعرف والدك، وهو قد يفعل ذلك.

- ثم إن أمي لا يمكن أن تفعل ما يدعيه.

وقالت روزالين:

- لم أكن أعرف والدتك، ولكني كنت أراها من بعيد أحيانا عندما كنت أخرج من البستان، وكانت تنشر الملابس أو تسقي نباتاتها، وأنت تلعبين إلى جانبها. ولم أرها دون أن تكوني معها إلا مرة واحدة.

ولم أكن أعرف أن روزالين قد رأت أمي من قبل. فشعرت فجأة بالدوار، ولم أعرف إن كان ذلك بسبب الجوع أم التعب أم بسبب ذلك الخبر المفاجئ. وسألتها:

- وماذا كانت تفعل حين رأيتها لوحدها؟

- لقد كانت تجلس على الأرض خلف مرآب الجرار وتنظر إلى

الفراغ. وحين مررنا بها، لم تنتبه لنا حتى. وأتذكر أني فكرت في أنها كانت حزينة.

فقلت:

- ومن لا يشعر بالحزن إذا عاش مع تي-ري؟

ولمع وجه روزالين عندها. وكانت تلك نظرة الإدراك. وقالت:

- آه، لقد فهمت الآن. أنت هربت بسبب ما قاله والدك عن والدتك، وليس بسبب دخولي السجن. لقد جعلتني أقلق حتى الموت لأمر هروبك وتكبد المشاكل بسببي... وكنت ستهربين على أي حال. لقد كان من الحري بك أن تخبريني بكل شيء.

وتدلت شفتها واتجهت عيناها إلى الطريق، وهو ما جعلني أتساءل عما إذا كانت ستعود أدراجها. وقالت:

- وماذا تخططين لفعله الآن؟ التنقل من بلدة إلى أخرى سائلة الناس عن والدتك؟ أهذه هي فكرتك العبقرية؟

وصحت:

- لو أردت شخصا ينتقدني على مدار الساعة لكنت جلبت تي-ري معي! ولتكوني على علم بأنه ليست لدي أي خطة.

- حسنا، لقد كانت لديك خطة بالتأكيد عندما كنا في المستشفى، فقد كنت تقولين سنفعل كذا وكذا، وأنا كان من المفروض أن أتبعك ككلب أليف. إنك تتصرفين وكأنك المسؤولة عني. كما لو كنت زنجية

معتوهة ستقومين بإنقاذها.

وكانت عيناها قاسيتان وضيقتان.

ووقفت على قدمي وقد شفط الغضب الهواء من رئتي. وقلت:

- هذا غير عادل!

وقالت:

- لقد فعلتِ خيرا، وأنا مسرورة لابتعادي عن ذلك المكان، ولكن، هل فكرت مرة في أن تسأليني عما كنت أريده؟

وصحت:

- حسنا، أنت حقا غبية. لا بد وأنك كنت غبية لتصبي مبصقتك على أحذية أولئك الرجال بتلك الطريقة. وأكثر غباء لأنك لم تعتذري حتى وإن كان ذلك سينقذ حياتك. لقد كانوا سيعودون ويقتلونك، أو ربما كانوا سيقومون بأسوأ من ذلك. لقد أخرجتك من هناك، وهذه هي طريقتك لتقديم الشكر. حسنا. طيب.

وخلعت حذائي وحملت حقيبتي ودخلت الجدول. وأحدث البرد دوائر حادة في عجول قدمي. ولكنني لم أكن أريد البقاء في نفس الكوكب الذي كانت فيه روزالين، فما عساك أن أبقى في ضفة الجدول نفسها.

وصرخت فيها دون أن أستدير:

- تدبري أمرك من الآن فصاعدا.

وعلى الضفة المقابلة، انزلقت رجلي فوق الحجر المغطى بالطحالب. وحدقنا في بعضنا من خلال صفحة الجدول. وكانت روزالين تبدو في الظلام كجلمود نحتته العواصف على مدى مئات الأعوام. واستلقيت على ظهري وأغلقت عيني.

ورأيت في حلمي أني عدت إلى مزرعة الدراق وجلست في مرآب الجرار، ورغم أن ضوء النهار كان ساطعا، فقد كنت أرى قمرا دائريا عملاقا في السماء. وكان يبدو في منتهى الكمال. وحملقت فيه لوهلة ثم اتكأت على المرآب وأغلقت عيني. وبعد ذلك، سمعت صوتا يشبه صوت تشقق الثلج. ونظرت إلى الأعلى فرأيت البدر وقد انكسر وهم بالسقوط. وكان عليّ الهرب لأنجو بنفسي.

واستيقظت وفي صدري ألم. وبحثت عن القمر فإذا به سليم ولا يزال يلقي بنوره على الجدول. ونظرت إلى الضفة المقابلة بحثا عن روزالين. ولم تكن هناك.

وارتج قلبي.

أرجوك يا إلهي. أنا لم أقصد معاملتها ككلب أليف. لقد كنت أحاول إنقاذها. هذا كل ما في الأمر.

وأنا أتلمس ما حولي لأجد حذائي، شعرت بنفس الحزن القديم الذي كان ينتابني في الكنيسة في كل عيد أم. أمي، سامحيني.

روزالين، أين أنت؟ لمت حقيبتي وركضت على جانب الجدول في اتجاه الجسر، دون أن أعي بأنني كنت أبكي. وتعثرت في جدع

شجرة ميت، وسقطت في العتمة دون أن أهتم بالنهوض. وكنت أتخيل روزالين على بعد أميال من ذلك المكان، وهي تقطع الطريق الرئيسية وتتمتم: سطل البراز، يا لها من فتاة حمقاء لعينة.

وحين تطلعت إلى الأعلى، انتبهت إلى أن الشجرة التي سقطتُ تحتها كانت جرداء. فلم يكن فيها سوى بعض الخضرة المتناثرة هنا وهناك والكثير من الطحالب المتدلية إلى الأرض. وحتى في الظلام، كنت أستطيع أن أرى أنها كانت ستموت وحيدة وسط كل أشجار الصنوبر المحيطة بها وغير الآبهة بأمرها. لقد كان هذا مسار الأشياء الحتمي. إن الضياع ينال من داخل كل شيء عاجلا أم آجلا ثم يكتسح ما تبقى.

وتناهت ترنيمة من وسط العتمة. ولم تكن ترنيمة إنجيلية تماما، وإنما تشبهها. وتتبعت الصوت فوجدت روزالين وسط الجدول مجردة من ملابسها تماما. وقد امتلأ كتفاها بقطرات الماء التي كانت تلمع كقطرات من الحليب، وكان نهداها يتحركان مع التيار. وقد كان ذلك مشهدا يستعصي على النسيان. ولم أستطع منع نفسي، ولكني كنت أرغب في لحس قطرات الحليب من كتفيها.

فتحت فمي. وكنت أريد شيئا ما. شيئا لم أستطع تحديد كنهه. سامحيني. ذلك كل ما كنت أشعر به. واجتاحني ذلك الاشتياق القديم كحضن رائع، وشدني إليه بقوة.

وخلعت حذائي وسروالي القصير وقميصي. وترددت في خلع ملابسي الداخلية ولكني فعلت ذلك في الأخير.

وشعرت وكأن الماء كتلة جليدية تذوب عند ساقي. ولابد وأنني

شهقت من شدة برودة الماء لأن روزالين التفتت ورأتني أدخل الماء وأنا عارية فأخذت تضحك وقالت:

- انظري كيف تتبخترين هنا وتهتزين...

ونزلت إليها، وكتمت أنفاسي من جراء لسعة الماء. وقلت لها:

- أنا آسفة.

فردت:

- أعرف ذلك، وأنا أيضا آسفة.

ومدت ذراعها وربتت على الجهة الدائرية ركبتي وكأنها عجينة حلوى.

وبفضل القمر، كنت أستطيع النظر إلى قاع الجدول حيث بُسِطت سجادة من الحصاة. والتقطت واحدة مائلة إلى الحمرة ودائرية، قلب مائي ناعم. ووضعتها في فمي وامتصصت لبها.

وأنا مستندة إلى مرفقي، نزلت إلى القعر وغمر الماء رأسي. وكبحت نَفَسي وأنصت إلى الجدول وهو يرتطم بأذنيّ، وأنا أغوص قدر الإمكان في ذلك العالم المظلم اللامع. ولكنني كنت أفكر في حقيبة ملقاة على الأرض، وفي وجه لم أكن أستطيع رؤيته حقا، وفي الرائحة الحلوة للمرهم الملطف والمرطب.

****

يُنصح النحالون الجدد عند بحثهم عن الملكة الفارة بالبدء بتحديد مكان خادماتها.

The Queen Must Die: And Other Affairs of Bees and Men

الفصل الثالث

إن كاتبي المفضل إلى جانب شكسبير هو ثورو. وكانت الآنسة هنري قد كلفتنا بقراءة أقسام من كتاب والدن بوند. وبعد ذلك، بدأت أحلم بالذهاب إلى حديقة خاصة لم يكن لتي-ري أن يجدني فيها أبدا. كما بدأت أكن التقدير لأمنا الطبيعة ولما بذلته من أجل العالم. وكنت أتخيلها في هيئة إليانور روزفلت.

وفكرت فيها صباح اليوم الموالي عندما استيقظت إلى جانب الجدول حيث كنت أفترش نبات الكرمة المعترش. وكان مركب ضبابي قد تكتل فوق سطح الماء، وكانت حشرات اليعسوب الزرقاء البراقة تقفز جيئة وذهابا وكأنها تحيك الهواء. لقد كان المنظر جميلا لدرجة أنه أنساني لوهلة ذلك الإحساس الثقيل الذي لازمني منذ أن قال تي-ري ما قاله عن أمي. وكنت عوضا عن ذلك في والدن بوند. اليوم الأول من حياتي الجديدة. هكذا هو الأمر. هذا ما قلته لنفسي.

وكانت روزالين تنام وفمها مفتوح واللعاب يسيل من شفتها السفلى. وبدا لي من الطريقة التي كانت ترفع بها عينيها إلى فوق أنها كانت تتابع الشاشة الفضية التي تُعرض فيها الأحلام وتختفي. وبدا أن وجهها المنتفخ قد تحسن قليلا، ولكن ضوء النهار كشف عن كدمات

أرجوانية على ذراعيها وساقيها. ولم تكن أي منا تلبس ساعة ولكن موقع الشمس من السماء كان يشير إلى أن الجزء الأكبر من الصباح قد مضى ونحن نائمتان.

ولم أرغب في إيقاظ روزالين، ولذلك، أخرجت صورة مريم الخشبية من حقيبتي وعلقتها على جذع شجرة لأتأملها كما ينبغي. وزحفت خنفساء صغيرة على الصورة واستقرت على وجنة الأم المقدسة، فكانت أجمل شامة قد تراها على الإطلاق. وتساءلت ما إن كانت مريم من محبي الفضاء الخارجي ممن يفضلون الأشجار والحشرات على الهالة الكنائسية التي أحيطت بها.

واستلقيت على ظهري وحاولت اختلاق تفسير لاحتفاظ أمي بصورة مريم السوداء. فاجتاح مخيلتي فراغ أبيض كبير، ربما بسبب جهلي بمريم التي لم تكن كنيستنا توليها كثير الاهتمام. ذلك أن الأخ جيرالد كان يرى أن جهنم مكتظة بالكاثوليكيين. ولم يكن في سيلفان سوى المعمدانيون والميثوديون. ومع ذلك كنا نتلقى إرشادات لكيفية التعامل مع الكاثوليكيين في حال صادفناهم خلال أسفارنا، حيث كان علينا أن نقدم لهم خطة الخلاص المكونة من خمسة أقسام وكان لهم أن يقبلوها أو يرفضوها. وأعطتنا الكنيسة قفازا بلاستيكيا يحدد كلُّ أصبع منه خطوة ما، بدءا من الخنصر ووصولا إلى الإبهام. وكانت بعض السيدات تحملن قفازات الخلاص في محافظهن تحسبا لمصادفة كاثوليكي على حين غرة.

وكانت المرة الوحيدة التي أتينا فيها على ذكر مريم هي عندما تحدثنا

عن قصة الزواج التي أقنعت فيها ابنها بصنع الخمر من الماء، أو أرغمته على ذلك في واقع الأمر. وصدمتني تلك القصة لأن كنيستنا لم تكن تؤمن بالخمر ولا بأن تكون للنساء الكلمة في اتخاذ قرار ما، كما كان الحال في القصة. ولذلك فكل ما استطعت تخيله هو أن أمي خالطت الكاثوليكيين بطريقة ما، ويجب أن أعترف بأن ذلك كان يثيرني.

وأقحمت الصورة داخل جيبي وكانت روزالين لا تزال نائمة وتنفخ الهواء وشفتاها تهتزان. وفكرت في أنها لم تكن ستستيقظ حتى الغد، فقمت بهز ذراعيها إلى أن فتحت عينيها.

- يا إلهي، إن جسدي متصلب. أشعر وكأن أحدا قد ضربني بعصا.

- لقد ضُرِبت بالفعل. هل نسيت ذلك؟

- ولكني لم أُضْرَب بعصا.

وانتظرت إلى أن وقفت على قدميها، وتطلب الأمر الكثير من النخير والأنين وعودة الأطراف إلى الحياة. وعندما استقامت، سألتها:

- بماذا كنت تحلمين؟

وحدقَت في أعالي الأشجار وحكت مرفقيها، ثم قالت:

- حسنا، لنرى. لقد حلمت أن الموقر مارثن لوثر كينغ الابن ركع على ركبتيه وصبغ أظافري بلعاب فمه فصارت جميعها حمراء وكأنه كان يمتص حلوى الريد هوتس الحمراء.

وفكرت في ذلك ونحن في طريقنا إلى تيبورون. وكانت روزالين

تتبختر وكأن رجليها مدهونتان بمرهم، وكأن أصابع رجليها الياقوتية تمتلك القرية بأكملها.

ومررنا بحظائر رمادية وحقول ذرة تحتاج إلى ري، وقطعان أبقار هيريفورد وهي تمضغ ببطء وفي رضى تام. وخزرت عيني وتطلعت إلى الأفق فرأيت منازل مزارع ذات شرفات واسعة، وعلى الأشجار القريبة منها عُلّقت أراجيح مصنوعة من إطارات الجرارات، ورأيت كذلك مطاحن هوائية باسقة إلى جانبها تصر أوراقُها الفضية الضخمة كلما هبت الرياح. وكانت الشمس قد حمَّصت كل شيء بعناية، حتى تحول المشمش نفسه الذي كان على السياج إلى زبيب.

وتهالك الأسفلت فتحول إلى حصى. وكنت أنصت إلى صوت احتكاكه بأحذيتنا. وكان العرق ينزلق إلى الثقب الذي يلتقي فيه عظاما الترقوة لدى روزالين. ولم أستطع تحديد أي من بطنينا كان يطالب بالأكل، بطني أم بطنها. وكنت قد انتبهت منذ بدأنا في المشي إلى أن ذلك اليوم كان يوم الأحد، وهو يوم إغلاق المتاجر. وكنت أخشى أن ينتهي بنا المطاف باقتيات الهندباء البرية والتقاط اللفت البري والأعشاب من الأرض للبقاء على قيد الحياة.

وكانت رائحة السماد الطبيعي الطازج تنبعث من الحقول وتكفلت بأمر شهيتي على الفور، ولكن روزالين قالت:

- أنا أتضور جوعا.

- إذا وجدنا مكانا مفتوحا عندما نصل إلى البلدة، سأدخل وأحضر لنا بعض الطعام.

- وأين سنقيم؟

- سنستأجر غرفة في حال لم نجد فندقا صغيرا.

وابتسمت لي عندئذ وقالت:

- ليلي، يا صغيرتي، لن يقبل أحد باستقبال امرأة سوداء، ولا آبه إن كانت مريم العذراء نفسها. لأن أحدا لن يستقبلها إن كانت سوداء.

فقلت، وقد توقفت تماما في منتصف الطريق:

- حسنا، وما جدوى قانون الحقوق المدنية؟ ألا يعني ذلك أنه يجب أن يستقبلك الناس في الفنادق الصغيرة وأن تستطيعي ارتياد مطاعمهم إن رغبت في ذلك؟

- نعم، ذلك هو الغرض منه. ولكن سيكون عليك الدخول في صراع مع الناس ليفعلوا ذلك.

وساورني القلق على طول الميل الموالي، إذ لم تكن لدي أي خطة أو حتى بوادر خطة. وإلى غاية تلك اللحظة، كنت أعتقد غالبا أن نافذة ستُفتح أمامنا وتفضي بنا إلى حياة جديدة تماما. وكانت روزالين، من جهة أخرى، تحصي الساعات التي تفصلنا عن لحظة القبض علينا، فكانت ترى هروبنا كإجازة صيفية نقضيها قبل العودة إلى السجن.

وكنت بحاجة إلى إشارة ما، إلى صوت يكلمني كما حدث البارحة في غرفتي، ذلك الصوت الذي همس لي: ليلي ميليسا أوينز، مرطبانك مفتوح.

سأخطو تسع خطوات وأنظر. وستكون الإشارةُ أول ما تقع عليه عيناي. وعندما نظرت، رأيت طائرة لرش المبيدات تحوم حول أحد الحقول مخلفة وراءها سحابة من المبيدات الحشرية. ولم أعرف أي طرف من المشهد كنت أمثله: النباتات التي كانت تُنْقَذ من الحشرات أم الحشرات التي كان سيقضي عليها البخاخ. وكان هناك احتمال ضئيل بأن أكون الطائرة التي تحوم حول الحقل جالبة الخلاص والخراب حيثما حللت.

وشعرت بالبؤس.

وكان الحر يتزايد كلما تحركنا، وكان يتصبب من وجه روزالين في تلك اللحظة.

وقالت روزالين:

- من المؤسف أنه ما من كنيسة هنا يمكننا أن نسرق منها بعض المراوح.

****

كان المتجر الموجود عند مدخل البلدة يبدو من بعيد بعمر المائة، إلا أنني اكتشفت عند وصولنا إليه أنه كان أقدم من ذلك. وكانت على بابه لوحة كتب عليها: متجر ومطعم يخنة فروغمور، منذ ١٨٥٤.

ولابد وأن الجنرال شيرمان قد مر من هنا وقرر عدم المساس بالمكان لأنه أحب اسمه، وليس لمظهره بالتأكيد. وكانت واجهة المتجر بأكملها مكونة من لوحة إعلانات مهملة: خدمة شركة ستودبيكر. طُعْم صيد الأسماك. مسابقة الأصدقاء لصيد الأسماك. الملح البلوري لدى الإخوة

رايفورد. بنادق لصيد الظباء بـ٤٥ دولاراً. ثم صورة لفتاة تعتمر قبعة عليها صورة لقنينة كوكا كولا. وكانت هناك لافتة تعلن عن إقامة قداس كنائسي في الكنيسة المعمدانية لجبل صهيون تعود لعام ١٩٥٧، في حال كان أحد ما يود معرفة ذلك.

وكان أكثر ما أحببته معرض رائع للوحات السيارات كانت معلقة على الحائط، وكانت هذه اللوحات تنتمي لولايات مختلفة. وكنت أود قراءة كل واحدة منها ولكن الوقت لم يكن يسعفني.

وفي الحديقة الجانبية كان هناك رجل أسود يرفع غطاء آلة شواء كانت برميل زيت في الأصل. وأسالت رائحة لحم الخنزير المنقوع في الخل والفلفل لعابي لدرجة أنه سال على قميصي.

وكانت بعض السيارات والشاحنات مركونة أمام المتجر، ولربما كان أصحابها أشخاصا قاطعوا الكنيسة وأتوا مباشرة من مدارس الأحد.

وقلت:

- سأذهب لأرى إن كنت أستطيع اقتناء بعض الطعام.

- والسعوط، أحتاج إلى شيء من السعوط.

وبينما جلست روزالين باسترخاء قرب برميل الشواء، عبرت ستار الباب ودخلت المتجر حيث اختلطت روائح البيض المخلل ونشارة الخشب تحت شرائح لحم الخنزير المدخنة بالسكر المتدلية من السقف. وكان المطعم يقع في القسم الخلفي من المتجر، فيما كان القسم الأمامي منه مخصصا لبيع كل شيء بدءا من سيقان قصب السكر ووصولا إلى زبد التربنتينة.

- هل لي بمساعدتك آنستي؟

قال رجل صغير الحجم كان يرتدي ربطة عنق فراشية ويقف على الجهة المقابلة من المنضدة، ويكاد يضيع خلف حاجز من هلام العنب ومخللات سوِيت فاير. وكان صوته حادا ومظهره رقيقا ومرهفا. ولم أستطع تخيل أنه كان يبيع بندقيات صيد الظباء.

وقال:

- لا أعتقد أني رأيتك قبل اليوم.

- أنا لا أسكن هنا. لقد جئت لزيارة جدتي.

- يعجبني أن يقضي الأطفال الوقت مع أجدادهم. يمكنك تعلم الكثير من الكبار.

- نعم، سيدي. لقد تعلمت من جدتي أكثر مما تعلمته في الصف الثامن بأكمله.

وضحك وكأن ما قلته للتو كان أطرف شيء في العالم، ثم سألني:

- هل ستتناولين الغداء هنا؟ لدينا طبق خاص بيوم الأحد، شرائح الخنزير المشوية.

فقلت:

- سآخذ اثنتين، مع قنينتي كوكا كولا من فضلك.

وبينما كنت أنتظر أن يجهز غداءنا، تجولت بين أجنحة المتجر متزودة

للعشاء: علب الفول السوداني المملح، وحلوى مخيض اللبن، وشطيرتا جبن الفلفل الحلو ملفوفتين في غلاف بلاستيكي، وكرات الحلوى الحامضة، وعلبة سعوط ريد روز. وكومت كل شيء فوق المنضدة.

وحين عاد الرجل إلى المنضدة بالطبقين وقنينتي المشروب، هز رأسه وقال:

- أنا آسف ولكنني لا أستطيع بيع شيء من المتجر يوم الأحد. لا بد وأن جدتك تعرف ذلك. ما اسمها في كل الأحوال؟

- روز.

أجبت وقد قرأت الاسم على علبة السعوط.

- روز كامبيل؟

- نعم سيدي، روز كامبيل.

- كنت أعتقد أن لها أحفاداً ذكوراً فقط.

- لا يا سيدي، لديها أنا أيضا.

ومد يده إلى كيس كرات الحلوى الحامضة وقال:

- اتركي كل شيء هنا، وسأهتم بأمر إرجاع كل شيء إلى مكانه.

ورن صندوق الدفع وخرج الدرج، فنقبت عن المال في حقيبتي ودفعت له.

- هل تستطيع فتح قنينتي الكولا من فضلك؟

سألته، وحين قصد المطبخ، وضعت علبة سعوط ريد روز داخل حقيبتي وأغلقتها.

لقد تعرضت روزالين للضرب وعانت من الجوع ونامت على أرضية صلبة، ومن يعرف متى كانت ستعود إلى السجن أو تتعرض للقتل؟ لقد كانت تستحق الحصول على علبة السعوط.

وجال بخاطري أنني يوما ما بعد سنوات من تلك اللحظة، كنت سأرسل ظرفا إلى المتجر وأضع فيه دولارا لدفع ثمن علبة السعوط، وأعبر عن شعور الذنب الذي لازمني في كل لحظة من لحظات حياتي. وفجأة وقعت عيني على صورة مريم السوداء، ولا أعني أي صورة ولا أي مريم سوداء، وإنما تلك الصورة نفسها التي كانت بين أغراض أمي. وكانت تحدق فيَّ من لصائق عشرات من مرطبانات العسل. **عسل مادونا السوداء.**

وفُتِحت الباب ودخلت أسرة عادت لتوها من الكنيسة. وكانت الأم والابنة ترتديان زيا متطابقا. وكان لونه أزرق بحريا وبه ياقة بيضاء كياقة بيتر بان. وانساب الضوء من الباب ضبابيا وملتويا تشوبه نقط صفراء. وعطست الفتاة الصغيرة فقالت لها أمها:

- تعالي، دعيني أمسح أنفك.

ونظرت إلى مرطبانات العسل من جديد وإلى الأضواء الكهرمانية التي تسبح بداخلها، وأخذت في التنفس ببطء.

وأدركت لأول مرة في حياتي أن العالم مغرق في الغموض، غموض

يختفي في طيات أيامنا البئيسة المستأسدة، ويلمع بشدة، دون أن ندرك ذلك حتى.

وفكرت في النحل الذي جاء إلى غرفتي خلال الليل، وكيف كان جزءا من ذلك كله. وذلك الصوت الذي سمعته البارحة وهو يقول ليلي أوينز ميليسا، مرطبانك مفتوح. ويتحدث إليّ بنفس البساطة والوضوح اللذين تحدثت بهما المرأة ذات الرداء الأزرق البحري إلى ابنتها.

- ها هو ذا مشروبك.

قال صاحب ربطة العنق الفراشية، وأشرت إلى مرطبانات العسل وسألته:

- من أين حصلت على هذه؟

واعتقد أن نبرة الصدمة التي عبرت صوتي كانت نابعة من الرعب الذي انتابني.

- أعرف ماذا تقصدين. لن يشتري الكثير من البيض هذا العسل بسبب صورة مريم العذراء السوداء الموجودة عليه. ولكنها كذلك لأن النحالة التي تصنعه هي نفسها سوداء.

- وما اسمها؟

- آب بوترايت. إنها تربي النحل في المقاطعة كلها.

استمري في التنفس. استمري في التنفس.

- وهل تعرف أين تسكن؟

- نعم، بالتأكيد، إن منزلها هو ألعن منزل قد ترينه على الإطلاق. إنه مطلي باللون الوردي. ولا بد وأن جدتك قد رأته من قبل. ويمكنك الوصول إليه بعبور شارع البلدة الرئيسي إلى أن يتعرج إلى الطريق الرئيسي المؤدي إلى فلورانس.

وشكرته واتجهت إلى الباب.

وكانت ألواح الدكة بالخارج تهتز من شخير روزالين، فزعزعتها وقلت:

- استيقظي. ها هي ذي علبه السعوط ولكن ضعيها في جيبك لأنني لم أشترها حقاً.

- سرقتها؟

- كان عليّ أن أفعل ذلك فهم لا يبيعون شيئا من المتجر يوم الأحد.

- ستذهبين إلى الجحيم لا محالة.

وبسطتُ غداءنا على الدكة وكأننا كنا في نزهة، ولكني لم أستطع أن آكل قبل أن أخبر روزالين عن مريم السوداء الموجودة على مرطبانات العسل وعن مربية النحل، آب بوترايت.

- ألا تعتقدين أن أمي كانت تعرفها؟ لا أعتقد أن الأمر مجرد صدفة.

لم تجبني، ولذلك سألتها بصوت أعلى:

- روزالين، ألا تعتقدين ذلك؟

فأجابت:

- لا أعرف. ولا أريد أن أضخم آمالك، هذا كل ما في الأمر.

ومدت يدها ولمست وجنتي، وقالت:

- آه يا ليلي، ماذا فعلنا وما مصيرنا؟

****

كانت تيبورون تشبه سيلفان باستثناء الدراق. وأمام دار القضاء ذات القبة، كان أحدهم قد غرز علما اتحاديا في فوهة المدفع العمومي. ففي كارولاينا الجنوبية يأتي الجنوب أولا ثم أمريكا بعد ذلك. ولم تكن لتجردنا من فخر حصن سمتر مهما حاولت.

ونحن نجوب الشارع الرئيسي، كنا نمشي تحت ظلال زرقاء طويلة منبعثة من البنايات ذات الطابقين القائمة على طول الشارع. وفي أحد المتاجر، استرقت نظرة من خلال النافذة الزجاجية إلى آلة المشروبات الغازية التي كانت تتخذ شكل سبيكة معدنية لامعة، وكانت تباع فيها كولا الكرز وتحلية الموز والمرطبات، وفكرت في أنها لن تبقى حكراً على البيض في القريب العاجل.

ومررنا بمكتب تأمينات وورث، ومكتب الكهرباء الريفي لمقاطعة تيبورون ومتجر آيمن دولار الذي كان يعرض حلقات الرقص ونظارات الغطس والألعاب النارية في واجهة المحل وقد طليت عليها عبارة: استمتع بصيفك. وكانت بعض الأماكن من قبيل البنك الائتماني للمزارعين تضع لافتات مؤيدة لترشيح غولدووتر للرئاسة على نوافذها

وترفقها أحيانا بملصقات تؤيد حرب فييت نام.

وعندما وصلنا إلى مركز بريد تيبورون، تركت روزالين عند الطوار ودخلت حيث كانت صناديق البريد وجرائد يوم الأحد. ولم ألمح صورتينا بين صور المطلوبين هناك. وعلى الصفحة الرئيسية لجريدة كولومبيا كان العنوان الرئيسي يدور حول تجسس شقيقة كاسترو لصالح وكالة الاستخبارات الأمريكية، ولم يكن هناك أي خبر عن فتاة بيضاء هرّبت زنجية من سجن سيلفان.

ووضعت عشرة سنتات داخل الثقب، وأخذت جريدة متسائلة ما إن كانت قصتنا في مكان ما بداخلها. وجلسنا أنا وروزالين القرفصاء في أحد الأزقة وفتحت الجريدة وتفحصت جميع صفحاتها. وكانت كلها تتحدث عن مالكولم إكس وسايغون والبيتلز والتنس في ويمبلدون وأحد الفنادق الصغيرة الذي فضل إغلاق أبوابه على أن يستضيف الزنوج. ولم يكن هناك شيء عني وعن روزالين.

أحيانا يود المرء أن يركع على ركبتيه ويشكر السماء على سوء التغطية الإعلامية في هذا العالم.

****

إن نحل العسل حشرات اجتماعية تعيش في مستعمرات. وكل مستعمرة هي وحدة أسرية تتكون من أنثى واحدة تنتج البيض، وهي الملكة، ومن بناتها العقيمات، وهن الخادمات. وتسهر الخادمات على جمع الأكل وبناء القفران ورعاية الناشئة. ولا يربَّى الذكور إلا في أوقات السنة التي يكون فيها حضورهم ضرورياً.

Bees of the World

الفصل الرابع

كانت المرأة تتحرك بين صف من الصناديق البيضاء التي كانت تفصل بين الغابة والمنزل الوردي. وعلق لون المنزل بداخل عيني من هول الصدمة حتى عندما أشحت بنظري عنه. وكانت المرأة طويلة القامة وترتدي زيا أبيض وخوذة يتدلى منها حجاب يغطي الوجه والكتفين ويمتد حتى الظهر. وكانت تبدو كعروس إفريقية.

ورفعَت المرأة الأغطية عن الصناديق، وألقت نظرة بداخلها وهي تحرك سطلا قصديريا ينبعث منه الدخان جيئة وذهابا، فانطلقت سحب من النحل وحامت حول رأسها كأكاليل. واختفت المرأة مرتين وسط كتل السحاب الضبابية قبل أن تعاود الظهور شيئا فشيئا كحلم ينبعث من جوف الليل.

ووقفنا أنا وروزالين في الجانب المقابل من الطريق، وبقينا ساكنتين لبعض الوقت. أنا من ذهولي من غموض المشهد الذي كنت أتابعه، وروزالين لأن شفتيها كانتا ملتصقتين بسعوط ريد روز.

- إنها المرأة التي تصنع عسل مادونا السوداء.

قلت، ولم أنجح في رفع عيني عنها، سيدة النحل وطريقي إلى حياة أمي. آب.

وأخرجت روزالين المنهكة سيلا من العصير الأسود من فمها ثم مسحت شارب العرق الذي تكون فوق شفتها، وقالت:

- أتمنى أن يكون العسل الذي تصنعه أفضل من ذوقها في اختيار طلاء المنزل.

وقلت:

- إنه يعجبني.

وانتظرنا إلى أن دخلتْ إلى المنزل، ثم قطعنا الطريق الرئيسي وفتحنا باب السياج الخشبي الذي كان يطفح بياسمين كارولاينا. وأضف إلى ذلك نبات الثوم المعمِّر والشبت والحبق الترنجاني الذي كان ينمو حول الشرفة. وكانت الرائحة قوية لدرجة تبعث على الإغماء.

ووقفنا عند الشرفة مظللتين بالضوء الوردي المشع من المنزل وخنافس الصيف ترفرف حول المكان والنوتات الموسيقية تنساب من المنزل. وكان يبدو وكأنها منبعثة من آلة كمان، إلا أنها كانت أكثر حزنا.

وتوالت ضربات قلبي، وسألْتُ روزالين إذا ما كانت تسمعها، لأنها كانت صاخبة.

- لا أسمع شيئا غير صوت الرب الحبيب يسألني عما أفعله هنا.

قالت روزالين وبصقت ما كنت آمل أنه آخر ما تبقى من سعوطها.

طرقْتُ الباب فيما كانت هي تتمتم سيلا من الكلمات: **امنحني القوة... يا مسيح ... لقد فقدنا عقولنا الضعيفة.**

وتوقف العزف. ولمحت بجانب عيني حركة خفيفة في النافذة حيث فتحت الستارة الفينيسية المتحركة وأغلقت من جديد.

وحين فُتِح الباب، لم تظهر المرأة ذات الرداء الأبيض وإنما امرأة أخرى كانت ترتدي الأحمر وشعرها قصير لدرجة أنه كان يشبه قبعة سباحة ملفوفة مشدودة إلى فروة رأسها. وكان وجهها يحدق فينا بريبة وصرامة. وانتبهت إلى أنها كانت تحمل قوسا موسيقيا تحت ذراعها وكان يبدو كسوط. وخطر لي أنها قد تضربنا به.

- نعم؟

- هل أنت آب بوترايت؟

- لا، أنا حزيران بوترايت.

أجابت وعيناها تعاينان الغرز على مقدمة رأس روزالين، ثم أضافت:

- آب بوترايت هي أختي. هل أتيتما لرؤيتها؟

أومأت لها برأسي، وفي نفس اللحظة، ظهرت امرأة أخرى حافية القدمين. وكانت ترتدي فستانا قطنيا بمربعات خضراء وبيضاء عاري الأكمام، وكان شعر رأسها كله مجدولا إلى ضفائر في غاية القصر. وقالت:

- أنا أيار بوترايت. وأنا أيضا أخت آب.

وابتسمت لنا ابتسامة غريبة وشت بأنها لم تكن شخصا طبيعيا تماما.

وتمنيت أن تبتسم لنا أيضا حزيران التي كانت تحمل السوط، ولكن

لم يكن يبدو عليها سوى الانزعاج. وقالت موجهة كلماتها إلى روزالين:

- ألديكم موعد مع آب؟

وبطبيعة الحال، اندفعت روزالين وهي على أتم الاستعداد لسرد تفاصيل حكايتنا.

- لا، لدى ليلي صورة...

فقاطعتها وقلت:

- لقد رأيت مرطبان عسل في المتجر، وقال لي الرجل...

- آه، أنتما هنا من أجل العسل. لماذا لم تخبراني بذلك منذ البداية؟ تفضلا إلى غرفة الاستقبال الأمامية، وسأنادي آب.

ورمقْتُ روزالين بنظرة كانت تقول هل أنت حمقاء؟ لا تقولي شيئا عن الصورة. وأدركْتُ أنه كان علينا الاتفاق على حكاية واحدة بالتأكيد.

إن بعض الأشخاص يتمتعون بحاسة سادسة لا يعرف عنها الآخرون شيئا. وأعتقد أنني ممن يمتلكونها، فما أن وطئت المنزل حتى سرت ارتعاشة في جسدي، تيار اجتاح عمودي الفقري وتسرب إلى ساعدي وخفق في أطراف أصابعي. وقد كنت أُشِعُّ في الواقع. إنني أعتقد أن الجسد يعرف بالأشياء قبل أن يدركها العقل بوقت طويل. وكنت أتساءل عما كان جسدي يعرفه حينها ولم أكن أنا على علم بعد.

وكان المكان يعبق برائحة شمع تنظيف الأثاث. وأعتقد أن أحدا

ما كان قد استخدمه في تنظيف غرفة الاستقبال بأكملها، وكانت غرفة كبيرة بها بسط مهدبة الحواشي، وبيانو قديم عليه غطاء دانتيل، وكراسي خيزران هزازة مغطاة بلحف ملونة. وكان أمام كل كرسي مسند قدم مخملي. المخمل. واقتربت من أحدها وفركت يدي فوقه.

واتجهت بعد ذلك إلى طاولة لها جناحان قابلان للطي واستنشقت رائحة شمعة مصنوعة من شمع النحل ولم تكن تختلف عن رائحة شمع تنظيف الأثاث على الإطلاق. وكانت موضوعة على حامل على شكل نجمة إلى جانب لعبة تركيب الصور، وكان أحدهم قد بدأ في تركيبها دون أن يتبين ما يمكن أن تكون الصورة النهائية. وعلى الطاولة الأخرى الموجودة إلى جانب النافذة، وضعت قنينة حليب واسعة الفتحة ومليئة بنبات سيف الغراب. وكانت الستائر من القماش الرقيق، إلا أنها كانت مختلفة عن الستائر البيضاء المألوفة، لأنها كانت فضية، فكان الهواء يتسرب منها بوميض ضبابي.

تخيل حيطاناً لا شيء عليها سوى المرايا. لقد كان على حيطان الغرفة خمس مرايا يحيط بكل واحدة منها إطار نحاسي أصفر.

واستدرت بعد ذلك ونظرت إلى الباب التي دخلنا منها. وفي الركن، كان هناك تمثال امرأة بطول ثلاثة أقدام تقريبا. وكنت لتجدها عند مقدمة سفينة من العصور الخالية، ولربما سافرتْ مع كولومبوس على متن سفينة سانتا ماريا، على حد علمي.

وكانت شديدة السواد ومجدولة كقطعة خشب طافية على وجه الماء التوت بفعل الجو. وكان وجهها خريطة لجميع العواصف والأسفار

التي مرت بها. وكانت يدها اليمنى مرفوعة إلى الأعلى وكأنها تهدي إلى الطريق، ولكن أصابعها كانت متجمعة في شكل قبضة وكأنها كانت لتقومك إن استدعى الأمر ذلك.

ورغم أنها لم تكن في أبهى حللها كمريم، ولم تكن تشبه صورة المرأة الموجودة على مرطبانات العسل، فإنني عرفت أنها هي نفسها. ورُسِم على صدرها قلب أحمر باهت، وهلال أصفر خافت وملتو عند المكان الذي كان فيه جسدها ليلتحم مع خشب السفينة. وكانت هناك شمعة موضوعة في كأس أحمر تلقي بوميضها على جسدها. ولم أستطع تكوين رأي عنها ولكنني كنت أشعر بشيء ساحر وعظيم لدرجة أنه كان يؤلمني وكأن القمر قد دخل إلى صدري وتربعه.

ولم أستطع تشبيه الأمر إلا بذلك الشعور الذي انتابني ذات مرة عندما كنت عائدة من كشك الدراق ورأيت الشمس تبسط ذراعيها عند آخر أنفاس الزوال وتلهب أعالي البستان فيما كان الظلام يتجمع تحتها. واجتاح الصمت رأسي، واكتسى الجمال كل شيء، وأصبحت الأشجار شفافة لدرجة مكنتني من استشفاف شيء خالص بداخلها. وشعرت بالألم في صدري عندها، تماما كما حصل في تلك اللحظة.

واعترت شفتيْ التمثال نصف ابتسامة جميلة ومتسلطة جعلتني رؤيتها أضع يدي على عنقي. وكان كل شيء في تلك الابتسامة يهمس لي. ليلي أوينز، أعرفك عز المعرفة.

وأحسست بحقيقتي، بذلك الشخص الكاذب والقاتل والحاقد. كم كنت أمقت تي-ري وفتيات المدرسة، والأكثر من ذلك، كم كنت

أمقت نفسي لأنني سلبت أمي روحها.

وانتابتني رغبة في البكاء ثم في الضحك، لأن التمثال جعلني أشعر أيضا بأنني ليلي التي يُبتَسَم لها وبأن بداخلي الخير والجمال أيضا؛ وبأن لي مستقبلا جميلا كما قالت الآنسة هنري.

وأنا أقف هناك، أحببت نفسي ومقتُّها. وهذا ما فعلته بي مريم السوداء، لقد جعلتني أحس بشموخي وبعاري في الوقت نفسه.

واقتربت منها واستنشقت رائحة العسل الخفيفة المنبعثة من الخشب. واقتربت مني أيار ووقفت بجانبي، ولم أعد أشتم شيئا سوى مزيج رائحة المرهم العطري على شعرها ورائحة البصل في يديها ورائحة الفانيلا المنبعثة من نَفَسِها. وكانت راحتا يديها ورديتين مثل أسفل رجليها، وكان مرفقاها أسود من باقي جسدها. ولسبب ما كانت رؤيتها تغمرني بالحنان.

دخلت آب بوترايت، وكانت ترتدي نظارات دون إطار وتعلق على حزامها شالاً حريرياً أخضر مائلاً إلى الصفرة. فقالت:

- من لدينا هنا؟

وأعادني صوتها إلى حواسي العادية.

وكان وجهها كزبدة اللوز من العرق والشمس، وكانت تتموج عليه الكثير من التجاعيد الكراميلية، وكان بعض شعرها أبيض، ولكن باقي جسدها كان يبدو أكثر شبابا بعقود.

- أنا ليلي وهذه روزالين.

قلت، وقد أشعرني ظهور حزيران خلفها عند المدخل بالتردد. وفتحت فمي دون أن أعرف ما كنت سأتلفظ به. وفاجأني ما قلته أيما مفاجأة.

- لقد هربنا من منزلنا وليس لدينا أي مكان نقصده.

وأعتقد أنني في ظروف أخرى، كنت لأفوز بمسابقة للكذب دون أي جهد يذكر. وكان هذا ما اخترعته: حقيقة مثيرة للشفقة. وتابعت وجهيهما، ولا سيما وجه آب التي خلعت نظارتها وأخذت في فرك أعلى أنفها. وأطبق الصمت على المكان لدرجة أني كنت أستطيع سماع دقات الساعة في الغرفة المجاورة.

وارتدت آب نظارتها من جديد، واقتربت من روزالين ومحصت الغرز الموجودة على مقدمة رأسها، والجرح الموجود تحت عينها والكدمات المتفرقة على صدغها وذراعيها. وقالت:

- يبدو أنك تعرضت للضرب.

فقلت وقد عدت إلى طبيعتي الكذابة:

- لقد سقطت من أدراج المنزل الأمامية عند مغادرتنا.

وتبادلت آب وحزيران النظرات، وشزرتني روزالين بعينيها في إشارة منها إلى أنني قد فعلتها من جديد، إلى أنني قد تحدثت مكانها وكأنها غير موجودة.

وقالت آب:

- حسنا، يمكنكما البقاء هنا إلى أن تعرفا ما ستفعلانه بعد ذلك. لن نتركك‌ما في الشارع.

وتنفست حزيران بطريقة بدت وكأنها قد شفطت كل الهواء الموجود في الغرفة.

- ولكن، يا آب...

- ستبقيان هنا.

رددت آب بطريقة جعلتني أعرف لمن كانت الكلمة، وأضافت:

- سيكون كل شيء على ما يرام. لدينا سريران نقالان في بيت العسل.

وانتفضت حزيران وانطلقت خارج الباب ولحقتها تنورتها. وقلت لآب:

- شكرا لك.

- على الرحب والسعة. والآن، اجلسا. سأحضر لكما بعضا من عصير البرتقال المحلى.

وجلسنا على كراسي الخيزران الهزازة، وبقيت معنا أيار وعلى وجهها ابتسامة خرقاء. ولفتت انتباهي عضلات ذراعيها المفتولة. وسألتها روزالين:

- لماذا تحملن جميعا أسماء شهور السنة؟

فأجابت أيار:

- لقد كانت والدتنا تحب فصلي الربيع والصيف. وكانت لدينا

نيسان كذلك. ولكنها... توفيت عندما كانت صغيرة.

وتلاشت ابتسامتها وبدأت تدندن فجأة، «آه، يا سوزانا» وكأن حياتها كانت تتوقف على ذلك.

وحدقنا فيها أنا وروزالين عندما بدأت دندنتها تتحول إلى نحيب، وكانت تبكي وكأن نيسان توفيت للتو.

وفي الأخير، عادت آب حاملة صينية بها أربعة كؤوس من الهلام مع شرائح برتقال معلقة على شفة الكأس بطريقة جميلة جدا.

- آه، أيار يا عزيزتي، اذهبي إلى الحائط وابك هناك.

قالت آب، وأشارت إلى الباب ووكزت أيار. وكانت تتصرف وكأن ما حدث مشهد طبيعي يحصل في كل بيوت كارولاينا الجنوبية.

- تفضلا عصيركما.

واحتسيت المشروب. ولكن روزالين تجرعت كأسها بسرعة البرق وتجشأت بصوت عال كان جميع فتيان المدرسة الثانوية ليحسدوها عليه. لقد كان ذلك غير معقول.

وتظاهرت آب بأنها لم تسمع ذلك بينما بدأت أحدق في مسند الأقدام المخملي وتمنيت لو أن روزالين كانت أكثر تهذيبا.

- حسنا، أنتما ليلي وروزالين؟ وما اسماكما العائليين؟

- روزالين ... سميث، وليلي... ويليامز.

قلت كاذبة، ثم انطلقت:

– لقد توفيت أمي عندما كنت صغيرة، ثم توفي أبي الشهر الماضي بعد أن دهسه جرار في مزرعتنا في مقاطعة سبارتانبورغ. وليس لدي أي أقرباء هنا، ولذلك فقد كنت سأُرسَل إلى مأوى.

وهزت آب رأسها، وكذلك فعلت روزالين، ولكن الاثنتين فعلتا ذلك لسببين مغايرين.

وتابعت:

– لقد كانت روزالين مدبرة منزلنا. وهي مثلي، ليس لها أقرباء، ولذلك قررنا الذهاب إلى فرجينيا للبحث عن عمتي. ولكن المشكلة هي أننا لا نملك النقود، ولذلك، إن كان بالإمكان العمل لديك خلال مكوثنا هنا، قد نكسب بعض المال لنتمكن من مواصلة طريقنا إلى فرجينيا. ونحن لسنا مستعجلتين على أي حال.

ورمقتني روزالين بنظرات حانقة. وللحظات لم نسمع شيئا سوى صوت ارتطام الثلج بكؤوسنا. ولم أنتبه من قبل إلى مدى قيظ الغرفة ولا مدى تحفز غدد العرق لدي. لقد كان باستطاعتي أن أشتم رائحة عرقي. ونظرت إلى مريم السوداء في ركن الغرفة ثم حولت نظري إلى آب.

وضعت آب كأسها. ولم أكن قد رأيت عيونا بذلك اللون، عيونا بلون الزنجبيل الخالص. وقالت:

– أنا أيضا من فرجينيا.

ولسبب ما، حرك كلامها التيار الذي سرى بين أطرافي عندما دخلت الغرفة لأول مرة.

- حسنا، يمكن لروزالين أن تساعد أيار في أعمال المنزل، ويمكنك أن تساعديني وزاك في تربية النحل. وزاك هو مساعدي الرئيسي، ولذلك لا يمكنني أن أدفع لك أجرا. ولكن على الأقل يمكنكما الاستفادة من الغرفة وتناول الطعام هنا إلى أن نتصل بعمتك لترسل لك بعض المال لأخذ الحافلة.

- ولكن، أنا لا أعرف اسمها الكامل بالتحديد. لقد كان والدي يناديها العمة بيرني، ولم ألتق بها قط.

- وماذا كنت تنوين فعله، أيتها الفتاة، هل كنت ستطرقين أبواب فيرجينيا كلها؟

- لا، سيدتي، أبواب ريتشموند فقط.

- حسنا، أنا أرى ما تقصدين.

والحقيقة هي أنها كانت تفعل ذلك. لقد كانت ترى ما بداخلي.

****

وبعد الظهيرة، قاظت تيبورون وأفرجت سماؤها في الأخير عن عاصفة رعدية. ووقفنا أنا وآب وروزالين في شرفة المنزل الزجاجية خلف المطبخ، وتابعنا السحب وهي تتراكم وتصبح بنفسجية اللون ثم تغطي أعالي الأشجار، والريح وهي تجلد الأغصان. وكنا ننتظر انفراجا حتى تتمكن آب من اصطحابنا لمشاهدة مأوانا الجديد في بيت العسل

الذي كان مرآبا في السابق، ويوجد خلف الحديقة، وكان مطليا بنفس لون طائر النحام الوردي الذي طُلي به المنزل.

وبين الفينة والأخرى، كانت بعض رشات المطر تتناثر فوقنا وتبلل وجوهنا. وفي كل مرة، كنت أرفض أن أمسح البلل عن وجهي لأنه كان يجعل العالم من حولي ينبض بالحياة. ولم أستطع منع نفسي من أن أحسد الطريقة التي كانت تستأثر بها العاصفة بانتباه الجميع.

واتجهت آب إلى المطبخ، ثم عادت بثلاثة من قوالب الفطائر المصنوعة من الألمنيوم، فقدمتها لنا وقالت:

هيا، فلنركض إلى هناك. وستحمي هذه رؤوسنا من البلل على الأقل.

وركضت أنا وآب تحت المطر، ممسكتين بالقالبين فوق رأسينا. وحين نظرت إلى الخلف، رأيت روزالين تحمل القالب في يدها دون أن تفهم الغرض منه.

وحين وصلنا أنا وآب إلى بيت العسل، كان علينا أن نربض عند الباب في انتظار أن تصل روزالين. وكانت هي تمشي بخفة وتجمع المطر داخل القالب وتسكبه كطفل صغير. وكانت تخطو فوق البرك الصغيرة وكأنها زرابي إيرانية. وحين دوى الرعد من حولنا، نظرتْ إلى السماء الغرقى وفتحت فاهها وتركت المطر يصب بداخله. منذ أن ضرب أولئك الرجال روزالين، أصبح وجهها ذابلا ومرهقا وعيناها باهتتين وكأن البريق قد انتزع منهما. وفي تلك اللحظة، كنت أراها وهي تعود لطبيعتها وتبدو كملكة لكل الفصول، وكأن ما من شيء يستطيع المساس بها.

وتمنيت لو أنها تهذبت قليلا.

كان بيت العسل يتكون من غرفة كبيرة مليئة بآلات غريبة لصناعة العسل: براميل كبيرة ومواقد غازية وأحواض ورافعات وصناديق بيضاء ورفوف مكدسة بأقراص شمع النحل. وكاد منخاراي يغرقان في طيب الحلاوة.

وكانت روزالين تمشي مخلفة وراءها بركاً مائية كبيرة بينما أسرعت آب لإحضار الفوط. واستوقف نظري جدار عند الجانب مغطى برفوف عليها مرطبانات. وعلقت خوذ ذات شباك وأدوات وأقراص شمع النحل في مسامير عند الباب الأمامي وكانت قشرة رقيقة من العسل تغطي كل شيء. وكان نعل حذائي يتخبط على الأرض قليلا كلما مشيت.

وأخذتنا آب إلى غرفة ركنية صغيرة عند الخلف بها مغسلة ومرآة طويلة ونافذة دون ستارة وسريران خشبيان نقالان عليهما شرشفان بيضاوان نقيان. ووضعت حقيبتي على السرير الأول.

وقالت آب:

- أنا وأيار ننام هنا في أوج موسم جني العسل. قد يصبح المكان حارا، ولذلك قد تحتاجان إلى استعمال المروحة.

ومدت روزالين يدها إلى الرف الذي كانت عليه المروحة، وكان معلقا على الحائط الخلفي، وضغطت زر التشغيل فتطاير نسيج العنكبوت من شفراتها وتناثر في الغرفة بأكملها. وكان عليها أن تزيله

عن عظم وجنتها.

وقالت لها آب:

- أنت بحاجة إلى ملابس يابسة.

- سأنشف بالهواء.

أجابت روزالين وتمددت على السرير فاعوجت أرجله.

وقالت آب:

- سيكون عليكما المجيء إلى المنزل لاستخدام الحمام. ونحن لا نقفل الأبواب ولذلك يمكنكما المجيء متى شئتما.

وكانت عينا روزالين مغلقتين، حيث غطت في النوم وأصبحت تحدث ضوضاء صغيرة بنفخ فمها.

وتكلمت آب بصوت منخفض:

- هل قلت إنها سقطت من الأدراج؟

- نعم سيدتي، لقد سقطت على رأسها أولا عندما تعثرت في السجاد المبسوط عند أعلى الدرج. ذلك السجاد الذي ثبتته أمي بنفسها.

إن نجاح الكذبة يعتمد على عدم الإسهاب في التفسير ونثر تفصيل واحد جيد.

- حسنا آنسة ويليامز، يمكنك البدء غدا.

ووقفت هناك متسائلة عمن كانت تخاطب، ومن كانت الآنسة

ويليامز تلك إلى أن تذكرت أن اسمي في تلك اللحظة كان هو الآنسة ويليامز. وهذا هو الشرط الثاني لنجاح الكذبة، أن تحافظ على اتساقها.

وأضافت آب:

- سيتغيب زاك لأسبوعين. لقد ذهبت أسرته إلى باوليس لزيارة خالته.

- هل تسمحين لي بالسؤال عن العمل الذي سأقوم به؟

- ستعملين معي أنا وزاك في صنع العسل والقيام بما يتعين القيام به. هيا، لنقم بجولة في المكان.

وعدنا إلى الغرفة الواسعة حيث الآلات، وقادتني آب إلى صف من الصناديق البيضاء المخزنة فوق بعضها البعض.

- هذه تسمى العاسلات.

قالت ووضعت إحداها بقربي على الأرض وأزاحت الغطاء عنها. وكانت تبدو من الخارج كأي درج عادي قديم أخرج من خزانة، ولكن داخلها كان يتكون من براويز من الأقراص الشمعية معلقة في صف متسق. وكان كل برواز مليئا بالعسل ومسدودا بشمع النحل.

وأشارت بأصبعها وقالت:

- ذلك يدعى الكاشط، وبه نفصل الشمع عن الخلية، ثم نضعها في مذيب الشمع.

وتبعتها متخطية قطع من شمع العسل وهو مقابل منفضات الغبار

هنا. وتوقفَت عند برميل حديدي كبير موجود في مركز الغرفة. وقالت:

- وهذا فراز العسل.

وربتت على جانبه وكأنها تربت على ظهر كلب جيد، ثم قالت لي:

- اذهبي وألق نظرة بداخله.

وصعدت السلم ذي الدرجتين وألقيت نظرة من الحافة في حين كبست آب زرا فاشتغل محرك عتيق على الأرض وانطلقت منه الأصوات. وبدأ فراز العسل في الاشتغال ببطء، ثم أخذت سرعته تتزايد كآلة صنع غزل البنات في المعارض، وانبعثت منه روائح زكية وانتشرت في أرجاء المكان.

وقالت آب:

- إنه يفصل العسل، فيُخرج المكونات السيئة ويبقي الجيدة منها. تعرفين، لطالما أحببت أن توجد فرازات مثل هذه للبشر، فيلقي بهم المرء جميعا بداخلها وتتكفل هي بالباقي.

ونظرت إليها، فكانت عيناها الشبيهتان بحلوى الزنجبيل تحدقان فيَّ. هل كنت مهووسة بالارتياب عندما اعتقدت أنها كانت تقصدني أنا بالذات؟

وأطفأت المحرك وتوقف الطنين بسلسلة من التكتكات، وانحنت إلى الجعبة البنية التي تخرج من فراز العسل وقالت:

- ومن هنا يمر العسل عبر الصهريج الحاجز، ثم وعاء التدفئة

ليصل أخيرا إلى المُنضِج. وهذه هي بوابة العسل التي نملأ منها الدلاء.
سوف تتعلمين كل هذا.

وكنت أشك في الأمر، فأنا لم أر في حياتي شيئا بذلك القدر من التعقيد.

- حسنا. أعتقد أنك تريدين أخذ قسط من الراحة مثل روزالين.
العشاء على الساعة السادسة. هل تحبين بسكويت البطاطا الحلوى؟ إن أيار تبرع في إعداده.

وحين غادرت، استلقيت على السرير الشاغر وكان المطر يطرق السقف القصديري. وشعرت وكأن السفر استغرق أسابيع، وكأنني كنت أراوغ الأسود والنمور في رحلة قنص في الأدغال محاولة الوصول إلى مدينة الألماس المفقودة المدفونة في الكونغو، وكان ذلك موضوع آخر حفلة نهارية شاهدتها في سيلفان قبل أن أغادر. وكنت أشعرت أنني أنتمي إلى ذلك المكان بصورة أو بأخرى. لقد كنت أنتمي إليه بالفعل. إن أمر مكوثي في بيت نساء سوداوات والأكل من صحونهن والنوم على شراشفهن، ولم أكن أعارض الأمر، كان شيئا جديدا لي، وقد جعلي أشعر ببياض جلدي لدرجة لم أشعر بها من قبل.

لم يكن تي-ري يؤمن بأن النساء السوداوات ذكيات. ولأنني أود أن أقول الحقيقة، رغم أن ذلك يعري الجانب الأسوأ مني، فأنا كنت أعتقد أنهن قد تكن ذكيات، ولكن ليس أذكى مني، أنا البيضاء. ومع ذلك، وأنا مستلقية على السرير في بيت العسل، لم أستطع التفكير بشيء سوى أن آب ذكية جدا ومثقفة جدا، وكان ذلك يفاجئني. وهذا ما

جعلني أدرك أن هناك بعض الأحكام المسبقة المدفونة بداخلي.

وحين استيقظت روزالين من قيلولتها وقبل أن تحظى بفرصة رفع رأسها عن المخدة حتى، سألتها:

- هل يعجبك المكان؟

فقالت وهي تحاول الجلوس:

- أعتقد ذلك، إلى حد الساعة.

- حسنا، وأنا أيضا يعجبني المكان، ولذلك لا أريدك أن تقولي أي شيء قد يفسد الأمر. هل اتفقنا؟

فشبكت ذراعيها ووضعتهما فوق بطنها وقطبت حاجبيها وقالت:

- مثل ماذا؟

- لا تقولي أي شيء عن صورة مريم السوداء الموجودة في حقيبتي، هل فهمت؟ ولا تذكري أمي.

ومدت ذراعيها وبدأت في إعادة جدل بعض ضفائرها المفتوحة.

- ولماذا لا تريدين التحدث عن ذلك؟

ولم يكن لدي الوقت لتحديد الأسباب ولكنني كنت أرغب في أن أقول لها، فقط لأنني أريد أن أكون شخصا عاديا لبعض الوقت، لا فتاة لاجئة تبحث عن أمها. فقط فتاة عادية تقوم بزيارة لتيبورون، كارولاينا الجنوبية خلال فصل الصيف. إنني أرغب في قضاء بعض الوقت مع

آب لكسب ودها حتى لا تعيدني أدراجي عندما تعرف بفعلتي. وكانت تلك أشياء حقيقية، ولكنها حتى عندما خطرت ببالي، كنت أدرك أنها لم تكن كافية لشرح ما كان يجعل الحديث مع آب عن أمي أمرا غير هين.

واقتربت من روزالين وساعدتها في ضفر شعرها. وانتبهت إلى أن يدي كانتا ترتعشان قليلا، وقلت:

- أخبريني فقط أنك لن تقولي شيئا.

فأجابت:

- إنه سرك فافعلي به ما يحلو لك.

****

وفي صباح اليوم الموالي، استيقظت باكرا وتجولت في الخارج. وكان المطر قد توقف والشمس تشع خلف كومة من السحب.

وكانت أشجار الصنوبر تمتد خلف بيت العسل في كل الاتجاهات. وكنت أستطيع تمييز حوالي أربعة عشر قفيرا بعيدا تحت الأشجار، وكانت أغطيتها بيضاء لامعة.

وفي اليوم السابق، خلال وجبة العشاء، قالت آب إن جدها قد ترك لها ثمانية وعشرين فدانا. وقد تضل فتاة في هذا القدر من الفدادين في بلدة مثل تلك. قد تفتح بابا مسحورا وتختفي.

وانساب شعاع من الضوء من بين شق سحابة حمراء الحواف، فمشيت نحوه متتبعة مسلكا ينطلق من بيت العسل ويفضي إلى الغابة.

ومررت بعِربة أطفال محملة بمعدات الحديقة وُضِعت بمحاذاة قطعة من الأرض زرعت فيها الطماطم وربطت إلى أعمدة خشبية بقطع من جوارب النايلون، واختلطت بها زهرة الزينية البرتقالية ونبات سيف الغراب المنحني نحو الأرض.

ولا بد وأن الأخوات كن يحببن الطيور، فقد كان هناك حمام إسمنتي للطيور والكثير من مِلْقَمات الطيور المرتجلة من القنينات وصفوف من أكواز الصنوبر الكبيرة المدهونة بزبدة الفول السوداني المتناثرة في أرجاء المكان.

وعند نقطة التقاء العشب بمقدمة الغابة، وجدت حائطا من الأحجار المثبتة إلى بعضها بالإسمنت الخشن بعشوائية، ولم يكن علوه يبلغ الركبة، ولكنه كان يمتد على طول خمسين ياردة، ويلتف حول المكان ثم يتوقف فجأة. ولم يكن الغرض منه واضحا. وانتبهت إلى قطع ورقية صغيرة مطوية دُسّت بين الأحجار. ومشيت على طول السياج لأجد المئات من الأوراق الصغيرة.

والتقطت واحدة منها وفتحتها، ولكن الكتابة لم تكن واضحة بفعل المطر. وأخرجت أخرى. **بريمنغهام، ١٥ أيلول، وفاة أربع ملائكة.**

وطويت الورقة ثم أعدتها إلى مكانها وقد تمالكني شعور بأنني قمت بشيء خاطئ.

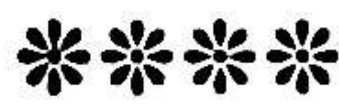
وتجاوزت الحائط ودخلت بين الأشجار وشققت طريقي عبر نباتات السرخس بريشاتها الزرقاوية الخضرة، وحرصت على ألا أفسد الشكل الهندسي الذي جدت العناكب في نسجه طوال الصباح.

وشعرت وكأنني وروزالين قد عثرنا على مدينة الألماس المفقودة.

وأنا أمشي، تناهى إلى مسامعي خرير مياه. ومن المستحيل أن يسمع المرء ذلك الصوت دون أن ينطلق بحثا عن مصدره. وواصلت السير داخل الغابة، وتكاثفت النباتات وعلِقت النباتات الشوكية بساقي، ولكنني وجدته؛ لقد وجدت نهرا صغيرا لم يكن يكبر كثيرا الجدول الذي استحممت فيه رفقة روزالين. وتابعت انعطاف التيارات والتموجات الصغيرة الكسولة التي كانت تبزغ عند السطح من حين لآخر.

وخلعت حذائي ودخلت النهر، وكان القعر رطبا فاعتصرته أصابع قدمي. وقفزت سلحفاة من حجرة وغطست داخل الماء على مقربة مني فأفزعتني حتى الموت. ولم تكن لدي فكرة عن أي مخلوقات غير مرئية أخرى كانت تشاركني السباحة، ربما ثعابين وضفادع وأسماك ونهر كامل من الحشرات اللاسعة. لقد كنت في قمة الهلع.

وحين لبست حذائي وتوجهت صوب المنزل، كانت أشعة الشمس منسكبة، وكنت أرغب في أن يكون الأمر كذلك دائما. ما من تي-ري وما من سيد غاتسون، وما من أحد يرغب في الاعتداء على روزالين. فقط الغابة التي غسلها المطر والضوء الساطع.



لنتصور للحظة أننا صغار بالقدر الذي يسمح لنا بتتبع نحلة داخل خلية. وفي الغالب، سيكون أول أمر علينا الاعتياد عليه هو الظلام...

Exploring the World of Social Insects

الفصل الخامس

كان الأسبوع الأول الذي قضيناه في منزل آب أسبوع سلوى وراحة خالصة. وستمنحك الحياة ذلك بين الفينة والأخرى، استراحة قصيرة، يرن جرس حلبة المصارعة فتقصد زاويتك حيث يُغدق أحد ما الرحمة على حياتك الكليلة.

وطوال ذلك الأسبوع، لم يأت أحد على ذكر والدي الذي زعمت أنه توفي في حادثة بالجرار، ولا حتى على ذكر العمة بيرني التي تقطن في فيرجينيا. لقد آوتنا الأخوات الثلاث دون طرح أي أسئلة.

وكان أول شيء تفعلنه هو إحضار ملابس لروزالين. فقد ذهبت آب إلى متجر آيمن دولار واشترت لها أربعة أزواج من الملابس الداخلية وقميص نوم أزرق فاتحا، وثلاثة فساتين مزركشة واسعة الخصر وحمالة صدر كانت لتأوي صخرة كبيرة.

وقالت روزالين عندما بسطت آب الملابس على طاولة المطبخ:

- أنا لا أقبل الصدقة. سأدفع لك مقابلها.

فأجابت آب:

- يمكنك فعل ذلك من خلال عملك هنا.

ودخلت أيار حاملة محلولا مطهرا وكرات قطنية وبدأت في تنظيف غرز روزالين، ثم قالت:

- لقد أوسعك أحدهم ضربا.

وبعد لحظات، بدأت في دندنة «آه يا سوزانا» بنفس السرعة الجنونية التي كانت تدندنها بها فيما قبل.

واشرأب عنق حزيران فجأة من الطاولة حيث كانت تتفحص المشتريات، وقالت لأيار:

- إنك تدندنين تلك الأنشودة من جديد. هل ترغبين في الانصراف؟

ووضعت أيار الكرة القطنية على الطاولة وغادرت الغرفة. ونظرتُ إلى روزالين فهزت كتفيها. وأكملت حزيران تنظيف الغرز بنفسها، وكان من الواضح أنها كانت تتقزز من ذلك لأنها كانت تجمع شفتيها فكانتا تبدوان كعروة ضيقة.

وانسحبتُ من الغرفة بهدوء لأبحث عن أيار. وكنت أنوي أن أقول لها سأغني معك «آه يا سوزانا» من البداية حتى النهاية. ولكني لم أجدها.

****

إن أيار هي من علمني أغنية العسل:

حطوا خلية نحل على قبري

ودعوه يتشرب العسل

حين أموت وأرحل

هذا ما أريده منكم

شوارع الجنة ذهبية ومشمسة

ولكني سأتشبث بأرضي وبسطل عسلي

حطوا خلية نحل على قبري

ودعوني أتشرب العسل.

أحببت ظرافة الأغنية. وقد جعلني الغناء أشعر وكأني إنسانة طبيعية من جديد. فكانت أيار تدندن الأغنية في المطبخ وهي تبسط العجين أو وهي تقطع الطماطم إلى شرائح. وكانت آب تدندنها وهي تضع اللاصقات على مرطبانات العسل. وكانت هذه الأغنية تعبر كثيرا عن طريقة العيش في هذا المكان.

لقد كنا نعيش من أجل العسل. فكنا نبتلع ملعقة منه عند الصباح لتوقظنا وأخرى عند الليل لتجعلنا ننام. ولم تكن أي وجبة تخلو منه، فقد كان يهدئنا ويعطينا الجلد ويقينا من الأمراض القاتلة. وكنا ننظف أنفسنا به لتعقيم الجراح أو معالجة الشفاه المتشققة. وكان يدخل في حماماتنا ومرطبات البشرة وفي شاي توت العليق وفي حلوياتنا. ولم يكن أي شيء ليسلم من العسل. وفي غضون أسبوع واحد، بدأ ساعداي وساقاي الهزيلان في الاكتناز وتحول شعري المتجعد إلى شعر مموج حريري. وكانت آب تقول إن العسل هو طعام الآلهة وغسول الإلاهات.

وكنت أقضي وقتي في بيت العسل مع آب بينما كانت روزالين تساعد أيار في الأشغال المنزلية. وتعلمت كيف أمرر سكينا مسخنا بالبخار على الغطاء لكشط طبقة الشمع عن قرص العسل وكيف أضع هذه الأقراص داخل الفراز بدقة. وكنت أعدل النار تحت مولد البخار وأغير جوارب النايلون الطويلة التي كانت آب تستخدمها لترشيح العسل في الصهريج المُنضِج. وقد تعلمت بسرعة فائقة لدرجة جعلت آب تقول إنني أعجوبة. وكانت تلك كلماتها: أنت أعجوبة يا ليلي.

وكان أفضل عمل لدي هو صب شمع النحل في قوالب الشمع. وكانت آب تستعمل رطلا من الشمع في كل شمعة وتضع بداخلها أزهار البنفسج الصغيرة التي كنت ألتقطها من الغابة. وكانت ترسل منتجاتها عن طريق الإرساليات إلى محلات تصل حتى مين وفيرمونت. وكان الناس هناك يقبلون على شمعها ومرطبانات عسلها لدرجة أنها لم تكن تستطيع مواكبة الأمر. وكانت تعد لزبائنها المميزين شمع عسل مادونا السوداء الخاص بجميع الاستعمالات. وكانت تقول إنه يجعل خيط الصنارة يطفو فوق الماء ويجعل الخيط أكثر قوة والأثاث أكثر لمعانا كما يجعل النوافذ المستعصية على الفتح أكثر انسيابية والجلد المتهيج يلمع كجلد رضيع. إن شمع العسل هو العلاج المعجزة لكل شيء.

وحدث تناغم سريع بين أيار وروزالين. وكانت أيار ساذجة، ولا أقصد بذلك أنها كانت متخلفة عقلية إذ كانت ذكية بطريقتها الخاصة، وكانت لا تكل من قراءة كتب الطبخ. وأقصد أنها كانت بسيطة ومتواضعة؛ بالغة وطفلة في نفس الوقت، إضافة إلى أنها كانت حمقاء نوعا ما. وكانت روزالين تحب القول إن أيار كانت مرشحة لمستشفى

الأمراض العقلية باستحقاق، ولكنها كانت تحبها مع ذلك. وكان يحدث أن أدخل المطبخ وأجدهما واقفتين أمام المغسلة وكتفاهما ملتصقان وهما تحملان سنابل القمح التي شغلهما الحديث عن تقشيرها، أو تدهنان كوز الصنوبر بالزبدة لإطعام العصافير.

وكانت روزالين هي من حل لغز "آه يا سوزانا". وقالت إن أيار تكون بخير طالما كانت الأمور مفرحة، ولكن ما أن يتحدث المرء عن أمر مزعج حتى تبدأ أيار في دندنة الأغنية، كأن يتعلق الأمر بالغرز الموجودة على جبهة روزالين أو حتى بطماطم متعفنة. وكان يبدو أن تلك كانت طريقتها الخاصة في تجنب البكاء. وكانت تلك الطريقة فعالة حين يتعلق الأمر بطماطم متعفنة، ولكن الأمر كان يختلف في حالات أخرى.

وفي بعض المرات، كانت تنتحب وتتكلم بغضب وتشد شعرها حتى إن روزالين كانت تأتي لاصطحاب آب من بيت العسل. وكانت آب ترسل أيار بهدوء إلى الحائط الإسمنتي، وهو الشيء الوحيد الذي كان يهدئ من روعها.

ولم تكن أيار تسمح باستخدام مصائد الفئران في المنزل لأنها لم تكن تتحمل حتى فكرة رؤية فأر يتعذب. ولكن ما كان يثير غيض روزالين هو أن تلتقط أيار العناكب بلقاطة الكناسة وتأخذها إلى خارج المنزل. وكان تصرف أيار هذا يعجبني لأنه كان يذكرني بأمي التي كانت تحب الحشرات. وكنت أساعد أيار في التقاط العناكب طويلة الأرجل، ولم يكن ذلك فقط لأنها قد تنهار من رؤية حشرة مدهوسة وإنما لأنني كنت أشعر أن قيامي بذلك يجعلني وفية لروح أمي.

وكانت أيار تأكل موزة كل صباح، وكان من الضروري أن تكون هذه الموزة سليمة تماما. وذات صباح، تابعتها وهي تقشر سبع موزات تباعا قبل أن تجد واحدة سليمة تماما. وكانت تخزن أطنانا من الموز في المطبخ، في زبديات خزفية ممتلئة عن آخرها. وقد كان الموز أكثر الأشياء وفرة في المنزل بعد العسل. وقد تقشر أيار خمسة أو ستة منها كل صباح قبل أن تعثر على الموزة المثالية الخالية من كل الشوائب؛ تلك الموزة التي لم تُعَنَّف في عالم المتاجر.

وأخذت روزالين في إعداد بودينغ الموز وفطيرة الموز وهلام الموز وقطع الموز الموضوعة على قطع الخس إلى أن طلبت إليها آب أن تدع الموز وشأنه.

وكانت حزيران أكثر الأخوات استعصاء على الفهم. وكانت تدرِّس التاريخ واللغة الإنجليزية في ثانوية السود، ولكن الموسيقي هي أكثر ما كان يستهويها. وحين كنت أنهي عملي في بيت العسل باكرا، كنت أقصد المطبخ وأشاهد أيار وروزالين وهما تطبخان، ولكن ما كان يجعلني أذهب إلى هناك حقا هو رغبتي في الاستماع إلى حزيران وهي تعزف التشيللو.

وكانت تعزف الموسيقى للموتى، فتذهب إلى بيوتهم أو حتى إلى المستشفى لتعزف لهم وهم يعبرون نحو العالم الآخر. ولم أكن قد سمعت بذلك من قبل، فكنت أجلس على الطاولة لاحتساء الشاي الحلو المثلج وأتساءل عما إذا كان ذلك هو ما يجعل حزيران لا تبتسم إلا قليلا. وأعتقد أنها كانت تحتك بالموت أكثر مما ينبغي.

وكان من الواضح لي أنها لا تزال منزعجة من فكرة مكوثنا أنا وروزالين في منزلهن. وكانت تلك النقطة التي تنغص علينا وجودنا هناك.

وسمعتها ذات ليلة تتحدث إلى آب في الشرفة الخلفية، وكنت أقطع الحديقة متجهة إلى الحمام في المنزل الوردي. واسترعى صوتاهما سمعي فوقفت بمحاذاة شجيرة الأرطنسية.

وقالت حزيران:

- أنت تعرفين أنها تكذب.

وردت آب:

- نعم، أعرف ذلك، ولكنهما في مأزق ما، وهما في حاجة إلى مكان يأويهما. ومن سيفعل ذلك إن لم نفعل نحن؟ فتاة بيضاء وامرأة زنجية؟ لن يستقبلهما أحد هنا.

ولاذت كلتاهما بالصمت للحظة. وسمعت العثّ وهي تحط على مصباح الشرفة.

وقالت حزيران:

- لا يمكننا إيواء فتاة هاربة هنا دون أن نخبر أحدا ما بذلك.

واستدارت آب نحو الزجاج ونظرت إلى الخارج، مما جعلني أتوارى خلف الظل وأسند ظهري على حائط المنزل.

- ومن سنخبر؟ لن تفعل الشرطة شيئا سوى أخذها إلى مكان ما. وماذا لو كان والدها قد توفي فعلا؟ وإن كان الأمر كذلك، فهل هناك

مكان تمكث فيه أفضل من هنا؟

- وماذا عن العمة التي ذكرتها؟

- تعرفين جيدا أنه ما من وجود لتلك العمة.

وكان في صوت حزيران نبرة من السخط.

- وماذا لو لم يكن والدها قد توفي في حادثة الجرار المزعومة؟ ألن يبحث عنها؟

وتوقف كل شيء بعد ذلك. وزحفت مقتربة أكثر من حافة الشرفة.

- أشعر بشيء ما حيال هذا الأمر، يا حزيران، شيء ما يدفعني إلى عدم إعادتها إلى مكان لا ترغب هي في الذهاب إليه. ليس الآن على الأقل. لقد دفعها شيء ما إلى الرحيل. وربما كانت تتعرض لسوء المعاملة. وأنا أعتقد أن في وسعي مساعدتها.

- ولماذا لا تسألينها مباشرة وبوضوح عن المأزق الذي هي فيه؟

وقالت آب:

- لكل شيء أوان. إن آخر ما أريده هو إرعابها بطرح الكثير من الأسئلة. ستخبرنا حين تكون مستعدة لذلك. فلنتحل بالصبر.

- ولكنها بيضاء يا آب.

وكان ذلك اكتشافا كبيرا. ولا أقصد فكرة أنني بيضاء، ولكن فكرة أن تنبذني حزيران بسبب لوني. ولم أكن أظن أن ذلك كان ممكنا؛ أن يُنبذَ

الناس لأنهم بيض. واعترت جسدي موجة حارة. المبرر الأخلاقي. هذا ما كان الأخ جيرالد يسمي الأمر. لقد كان للمسيح مبرر أخلاقي عندما قلب طاولات المعبد وطرد صرافي النقود اللصوص. وقد كنت أرغب في الذهاب إليها وقلب بعض الطاولات وأن أقول لها، **عذارا يا حزيران بوترايت ولكنك لا تعرفينني حتى!**

- دعينا نرى إذا كان بمقدورنا مساعدتها. نحن مدينات لها بذلك.

قالت آب فيما كانت حزيران تختفي عن حقل رؤيتي.

وأجابت حزيران:

- لسنا مدينات لها بأي شيء.

وارتطم الباب. وأطفأت آب النور وتنهدت تنهيدة طفت في الظلام.

وعدت إلى بيت العسل وأنا أشعر بالخجل لأن آب اكتشفت خدعتي، ولكني كنت أشعر بالارتياح كذلك لأنها لم تكن تخطط للاتصال بالشرطة أو إعادتي إلى منزلي بعد. لقد قالت **ليس بعد.**

وكان أكثر ما شعرت به تجاه موقف حزيران هو الامتعاض. وأنا أجلس القرفصاء عند حافة الغابة، شعرت بالبول وهو ينساب حارا بين ساقي. وتابعته وهو يشكل بركة صغيرة فوق التراب، ورائحته تتصاعد مع أنفاس الليل. ولم يكن هناك فرق بين بولي وبول حزيران. هذا ما شعرت به عندما نظرت إلى الدائرة السوداء التي تكونت على الأرض. إن البول هو البول.



كنا نجتمع كل مساء بعد وجبة العشاء في غرفة الجلوس حول التلفاز الذي وُضع فوقه أصيص من السيراميك على شكل نحلة. وكنا نرى التلفاز بالكاد بسبب أغصان النبات الاستوائي التي كانت تتدلى على صور النشرة الإخبارية.

وكان والتر كرونكايت يعجبني بنظارته السوداء وصوته الذي كان يعرف كل شيء يستحق أن يعرفه المرء. ها هو ذا رجل لا يعادي الكتب، وكان ذلك واضحا. خذ كل شيء لم يكنه تي-ري، وضعه في هيئة شخص وسترى والتر كرونكايت.

وكان يخبرنا عن مسيرة إدماج في سانت أوغيستين هاجمتها عصابة بيضاء، أو عن فرق يقظة بيضاء، وعن خراطيم إطفاء الحريق وعن الغازات المسيلة للدموع. وكنا نتلقى أخبار ما يحدث بالإجمال. مقتل ثلاثة مناصرين للحقوق المدنية. انفجار قنبلتين. مطاردة ثلاثة طلاب سود بمقابض الفؤوس.

ومنذ أن وقَّع السيد جونسون على مشروع القانون ذلكَ، وكأن أحدا ما أضرم النار في الحياة الأمريكية. فكنا نشاهد صف الحكام وهو يتعاقبون على شاشات التلفاز مطالبين بـ «التروي والعقلانية». وكانت آب تقول إنها كانت تخشى أن تحدث أشياء مماثلة في تيبورون بعد وقت قصير.

وكنت أشعر ببياضي وبالخجل وأنا أجلس هناك خصوصا عندما كانت حزيران في الغرفة. وكنت أشعر بالخجل وبالعار.

ولم تكن أيار تشاهد التلفاز عادة، ولكنها انضمت إلينا ذات ليلة، وفي منتصف السهرة، بدأت تدندن «آه يا سوزانا». لقد انتابها الغضب

لأن سيارة عابرة رمت رجلا أسود اسمه السيد رين بالرصاص في جورجيا. وأظهروا صورة لأرملته وهي تمسك بأطفالها، وفجأة، بدأت أيار في البكاء. وطبعا وثبنا جميعا على أقدامنا وكأنها كانت قنبلة مؤقتة وحاولنا تهدئتها ولكننا لم نفلح في ذلك.

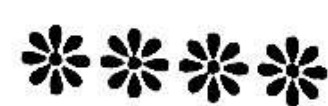
وكانت أيار تهتز وتلطم ذراعيها وتخدش وجهها. ومزقت قميصها لدرجة جعلت أصدافها الصفراء الفاتحة تتطاير في الهواء كالفشار. ولم يكن قد سبق لي أن رأيتها في تلك الحالة قط، ولذلك شعرت بالرعب.

وأمسكت آب وحزيران بمرفقي أيار واجتازتا بها الباب في غاية الانسيابية، فبدا من الواضح أن ذلك قد حدث سابقا. وبعد لحظات، سمعت الماء ينهمر داخل الحوض ذي الأرجل المخلبية الذي سبق أن استحممت فيه مرتين بماء العسل. وكانت إحدى الأخوات قد وضعت زوجا من الجوارب الحمراء في إحدى رجلي الحوض، ولا أعرف ما كان الغرض من ذلك. وأعتقد أن أيار هي من فعل ذلك دون سبب.

وتسللنا أنا وروزالين إلى باب الحمام، وكان مواربا بما يكفي لنتمكن من رؤية أيار وهي تجلس داخل الحوض وسط غيمة صغيرة من البخار وهي تعانق ركبتيها. وملأت حزيران كفيها بالماء ونثرته على ظهر أيار شيئا فشيئا. وخفت انتحابها وتحول إلى نشيج.

وتناهى صوت آب من خلف الباب وهي تقول:

- حسنا أيار. دعي كل البؤس يتسرب منك. دعيه يذهب.



بعد مشاهدة الأخبار كل ليلة، كنا نركع على البساط أمام مريم السوداء في غرفة الاستقبال ونتلو صلواتنا لها، أو بالأحرى كنت أركع أنا والأخوات الثلاث فيما كانت روزالين تجلس على كرسي. وكانت آب وحزيران وأيار تنادين التمثال «سيدتنا ذات الأصفاد». ولم أكن أعرف مصدر تلك التسمية.

السلام عليك يا مريم، يا ممتلئة بالنعم، الرب معك. مباركة أنتِ في النساء...

وكانت الأخوات تمسكن بخيوط مليئة بخرزات خشبية وتحركنها بين أصابعهن. ورفضت روزالين المشاركة في البداية ولكنها سرعان ما انضمت إلينا. وكنت قد حفظت الكلمات منذ الأمسية الأولى لأننا رددناها مرارا وتكرارا فعلقت بذهني وبدأت تكرر نفسها حتى بعد أن توقفت عن ترديدها بوقت طويل.

وكانت نوعا من الكلمات الكاثوليكية، ولكني حين سألت آب إذا كن كاثوليكيات، أجابت:

- حسنا، نعم ولا. لقد كانت والدتي كاثوليكية جدا، فكانت تحضر القداس مرتين في الأسبوع في سانتا ماريا في ريتشموند، ولكن والدي كان أرثدوكسيا اصطفائيا.

ولم تكن لدي فكرة عما كانت تعنيه كلمة أرثدوكسي اصطفائي، ولكني أومأت برأسي وكأن سيلفان كانت تعج بهم.

وأضافت آب:

- أنا وأيار وحزيران نأخذ كاثوليكية والدتنا ونمزجها بمكوناتنا الخاصة. ولست متأكدة مما يمكن تسمية ذلك، ولكن الأمر يروقنا.

وحين انتهينا من ترديد الصلاة المريمية لحوالي ثلاثمائة مرة، تلونا صلواتنا الخاصة بصمت، وجعلنا ذلك وجيزا جدا لأن ركبنا كانت تؤلمنا بعد كل ذلك. ولم أكن لأتذمر لأن ذلك لم يكن شيئا مقارنة بالركوع على دقاق المارتا وايتس. وفي الأخير، كانت الأخوات ترسمن إشارة الصليب انطلاقا من الجبهة ووصولا إلى السرة، ثم ينتهي كل شيء.

وذات مساء، وبعد أن قامت الأخوات بذلك ولم يبق في الغرفة أحد سواي وآب، قالت:

- ليلي، إذا طلبتِ من مريم أن تساعدك، فسوف تفعل ذلك.

ولم أعرف ما أقوله، ولذلك هززت كتفي.

وأشارت إليَّ بالجلوس إلى جانبها في الكرسي الهزاز، ثم قالت:

- أريد أن أحكي لك قصة. إنها قصة كانت تحكيها لنا والدتنا كلما سئمنا من واجباتنا أو من حياتنا.

- ولكني لم أسأم من واجباتي.

- أعرف، ولكنها قصة جميلة. اسمعيها فقط.

وجلست على الكرسي، وبدأت في هزه، منصتة إلى الصرير الذي يميز الكراسي الهزازة.

- في قديم الزمان، بعيدا في ألمانيا، كانت هناك راهبة شابة كانت تحب مريم، اسمها بياتريز. ولكنها سئمت، ذات يوم، من كونها راهبة ومن كل الواجبات التي كان عليها إنجازها والقوانين التي كان عليها التقيد بها. ولذلك، حين شعرت بحمل كبير يرزح فوق ظهرها ذات ليلة، خلعت رداء الراهبة وطوته ووضعته على فراشها، ثم تسللت من نافذة الدير وهربت.

طيب، كنت أرى أين كانت ستقودنا القصة.

وتابعت آب:

- واعتقدَت أنها كانت ستقضي أوقات رائعة. ولكن الحياة كانت مختلفة عما تصورت أن تعيشه راهبة فارة. فكانت تجول وبداخلها شعور بالضياع. وتسولت في الشوارع. وبعد مضي وقت من الزمن، عادت إلى الدير، ولكنها كانت تعرف أنهم لم يكونوا ليستقبلوها من جديد.

وكان من الواضح جدا أننا لم نكن نتحدث عن الراهبة بياتريز. لقد كنا نتحدث عني.

وسألت، متظاهرة بالاهتمام:

- وماذا حدث لها؟

- حسنا، ذات يوم، وبعد سنوات من التجوال والمعاناة، تنكرت بياتريز وعادت إلى ديرها القديم لزيارته لآخر مرة. فذهبت إلى الكنيسة وسألت إحدى أخواتها القديمات: «هل تذكرين الراهبة بياتريز التي هربت؟» فأجابتها الراهبة: «ماذا تقصدين؟ إن الراهبة بياتريز لم تهرب.

إنها هناك تكنس الأرض قرب المذبح.» ويمكنك تخيل مدى صدمة بياتريز الحقيقية. لقد ذهبت إلى المرأة التي كانت تكنس قرب المذبح واكتشفت أنها لم تكن سوى مريم وقد ارتدت زي راهبة. هل رأيت يا ليلي، لقد كانت مريم تحل محلها كل ذلك الوقت.

وتوقف صرير كرسيي حيث ابطأت حركتي ثم توقفت. ما الذي كانت تحاول آب قوله؟ إن مريم في سيلفان تحل محلي حتى لا ينتبه تي-ري إلى غيابي؟ لقد كان ذلك غير معقول حتى للكاثوليكيين أنفسهم. وأعتقد أنها كانت تقول لي: أعرف أنك هربت. كلنا نرغب بفعل ذلك أحيانا، ولكنك ستودين العودة إلى منزلك عاجلا أم آجلا. فقط اطلبي العون من مريم.

واستأذنت بالمغادرة، مسرورة بأن أخرج من دائرة الاهتمام. وبعد ذلك، بدأت في طلب العون من مريم، لا أن تعيدني إلى منزلي كالراهبة بياتريز المسكينة، وإنما العكس تماما، كنت أطلب منها أن تحول بيني وبين ذلك تماما. وطلبت منها أن تحيط المنزل الوردي بحجاب حتى لا يجدنا أحد أبدا. وكنت أطلب ذلك كل يوم، وبدا وكأن ذلك يتحقق، إذ لم يطرق أحد بابنا ويقتادنا إلى السجن. لقد أحاطتنا مريم بستارة تحمينا.

****

في أول جمعة لنا هناك، وبعد تلاوة الصلوات، كانت دوامات برتقالية ووردية لا تزال تتدلى من السماء ساعة الغروب حين خرجت مع آب إلى حديقة النحل.

ولم أكن قد ذهبت إلى قفران النحل من قبل، ولأبدأ ذلك، لقنتني

آب درسا أسمته "أدبيات حديقة النحل"، وذكرتني بأن العالم حديقة نحل كبيرة، وكانت تلك القاعدة تسري على كلا المكانين: لا تخف، لأن النحل المحب للحياة لن يلسعك. ومع ذلك، لا تكن أحمقا، ارتد أكمام وسراويل طويلة. ولا تضرب بعنف، بل لا تفكر في ذلك على الإطلاق. وإذا شعرت بالغضب، صفر. إن الغضب يشعر النحل بالقلق، في حين أن الصفير يلطف مزاجه. وتصرف وكأنك تعرف ما تقوم به، حتى وإن كنت لا تعرف ذلك. وفوق هذا وذاك، امنح النحل حبك. كل شيء يحتاج إلى الحب مهما صغر حجمه.

وكانت آب قد لُسعت مرات عديدة إلى أن اكتسبت المناعة. وكان من النادر أن يؤذيها النحل. وفي الحقيقة، كانت تقول إن لسع النحل جيد لالتهاب المفاصل الذي كانت تعاني منه، ولكن، ولأني لم أكن أعاني منه أنا أيضا، كان عليَّ تغطية نفسي. ولذلك فقد جعلتني أرتدي أحد قمصانها البيضاء طويلة الأكمام وأضع إحدى الخوذ البيضاء على رأسي وأعدل الشبكة.

ولو كان ذلك عالم رجال، لكان الحجاب قد نزع عنه اللحية الخشنة. ولكان كل شيء يبدو أكثر نعومة وأكثر لطفا. وأنا أمشي خلف آب مرتدية لباس النحالين، شعرت كقمر يطفو خلف ليلة غائمة.

وكانت آب تمتلك ثمانية وأربعين قفيرا متفرقا في الغابة المحيطة بالمنزل الوردي، وكان مائتان وثمانون قفيرا آخر موزعا في مزارع مختلفة وعلى أراض محادية للوادي وفي التلال. وكان المزارعون يحبون نحلها لأنه كان يلقح النباتات ويجعل البطيخ أكثر حمرة والخيار أكبر حجما.

وكانوا ليرحبوا به من دون مقابل، ولكن آب كانت تعطي لكل واحد منهم خمسة غالونات من العسل.

وكانت تتفقد قفرانها باستمرار، فتقود شاحنتها القديمة من أقصى المقاطعة إلى طرفها المقابل. وكانت تسميها "شاحنة العسل". وكانت تقوم عن طريقها بدورية تفقد النحل.

وتابعتها وهي تشحن العربة الحمراء التي سبق أن رأيتها في فناء الحديقة بالبراويز، وهي تلك الإطارات التي توضع فيها أقراص النحل لينتج فيها النحل العسل.

وقالت آب:

- علينا أن نتأكد من أن هناك مكانا كافيا لتضع فيه الملكة البيض وإلا حصل التطريد.

- وماذا يعني ذلك؟

- حسنا، إذا كانت لديك ملكة ومجموعة من النحل المستقل فكريا الذي ينشق عن باقي الخلية ويبحث عن مكان آخر ليعيش فيه، فإن ذلك يسمى تطريدا. وغالبا ما يتجمع فوق غصن ما.

وكان من الواضح أنها لم تكن تحب التطريد.

وقالت وقد بدأت في العمل:

- إذا، ينبغي أن نأخذ البراويز المليئة بالعسل وأن نضع أخرى فارغة.

وجرَّت آب العربة فيما كنت ألحق بها حاملة مدخنة محشوة بقش

الصنوبر وأوراق نبتة التبغ. وكان زاك قد وضع لبنة فوق كل خلية لتعرف آب ما ينبغي فعله. ففي حال كانت اللبنة في الجهة الأمامية من الخلية، فإن ذلك كان يعني أن المستعمرة قد اقتربت من ملء أقراص الشمع وأنها بحاجة إلى عاسلة جديدة. وإذا كانت اللبنة موضوعة في الجهة الخلفية منها فإن ذلك يعني أن هناك مشكلا ما، كحشرات عث الشمع أو أن الملكة مريضة. وأما اللبنات الموضوعة على الجانب فتشير إلى عدم وجود أي مشاكل في الخلية، وأنه ما من غول يهدد سلامتها.

وأشعلت آب عود ثقاب ثم أوقدت النار في القش الموجود داخل المدخنة، فانعكس الوهج على وجهها ثم خبا. ولوَّحت بالسطل موجهة الدخان نحو القفير، وقالت إن الدخان أكثر نجاعة من أي عقار منوم.

ومع ذلك، حين فتحت آب الأغطية، تدفق النحل نحو الخارج مشكلا حبال سوداء سميكة، ثم انقسم إلى خيوط، ورفرفت أمام وجهينا فورة من الأجنحة الصغيرة. لقد كانت السماء تمطر نحلا فكنت أغمره بالحب، تماما كما قالت لي آب.

وأخرجت آب بروازا، قماشا متموجا من الأسود والرمادي وبعض المسحات الفضية، وقالت:

- ها هي ذي يا ليلي، هل ترينها؟ إنها الملكة، تلك الكبرى.

وانحنيت باحترام كما يفعل الناس أمام ملكة إنجلترا، وهو ما جعل آب تضحك.

وكنت أرغب في جعلها تحبني حتى تبقيني معها إلى الأبد. وإذا

استطعت جعلها تحبني، فلربما نسيت عندئذ قصة عودة الراهبة بياتريز إلى الدير وسمحت لي بالبقاء معها.

****

وعندما كنا في طريقنا صوب المنزل، كان الظلام قد اكتنف الفضاء وكانت الحشرات المضيئة تلمع عند كتفينا. وكنت أستطيع رؤية روزالين وأيار من خلال نافذة المطبخ وهما تغسلان الأطباق.

وجلسنا أنا وآب على كراسي الحديقة القابلة للطي إلى جانب شجرة اللاجرسترمية الهندية التي ما فتئت تطرح أزهارها على الأرض. وكان عزف التشيللو ينبعث من المنزل ويعلو أكثر فأكثر إلى أن يرفع الأرض ويبحر بها نحو كوكب الزهرة.

وكنت أستطيع تصور تلك الموسيقى وهي تبعد الأشباح عن الناس وهم على فراش الموت، وتنقلهم بأمان إلى الحياة التالية. وكنت أتمنى لو أن موسيقى حزيران فعلت نفس الشيء مع أمي.

وتطلعت إلى الحائط الحجري عند طرف الحديقة.

- هناك أوراق صغيرة في ذلك الحائط.

قلت، وكأن آب لم تكن على علم بذلك.

- نعم، أعرف ذلك. إنه حائط أيار، لقد بنته بنفسها.

- هل فعلت ذلك حقا؟

سألت، وحاولت تخيلها وهي تخلط الإسمنت وتحمل الحجر في مريلتها.

- إنها تحضر الكثير من الأحجار من النهر الذي يعبر الغابة. وهي تفعل ذلك منذ عشر سنوات أو أكثر.

وفهمت ما ساعدها على بناء عضلاتها المفتولة، نقل الحجر.

- وما تلك الأوراق الموضوعة فيه؟

وقالت آب:

- آه، تلك قصة طويلة. أعتقد أنك لاحظت أن أيار مميزة.

وقلت:

- إنها تنفعل بسرعة بالتأكيد.

- نعم، ذلك لأنها تأخذ الأشياء بطريقة مختلفة عنا نحن.

ومدت آب ساعدها ووضعت يدها فوق ساعدي وأضافت:

- أنظري يا ليلي، عندما نسمع أنا وأنت عن مأساة ما، قد يعكر ذلك صفونا لبعض الوقت ولكنه لا يهشم عالمنا بأكمله، وكأن بداخلنا قوة تحمي قلوبنا وتمنع الألم من اعتصارنا. ولكن أيار لا تملك تلك القوة. إن كل شيء يجتاحها، كل المعاناة الموجودة في العالم، وهي تشعر وكأن ذلك يحدث لها هي. إنها لا تستطيع تمييز الفرق.

وهل كان ذلك يعني أنني إذا أخبرت أيار عن تلال الدُّقاق التي كان تي-ري يجعلني أجثو عليها وعن فظاعاته وعن كوني قتلت أمي، فإنها كانت ستشعر بكل شيء كذلك؟ لقد كنت أرغب في معرفة ما يحدث حين يتشارك شخصان الشعور بشيء ما. وهل يقسم ذلك الجرح

إلى قسمين ويخفف منه، تماما كما تضاعف مشاركة شخص ما فرحه من هذا الفرح؟

وتعالى صوت روزالين من نافذة المطبخ وأعقبه ضحك أيار. وكانت أيار تبدو عادية وسعيدة عندئذ، ولم أستطع تخيل ما جعلها في الحال الذي كانت عليه: لقد كانت تضحك في لحظة ثم تغمرها المأساة في اللحظة الموالية. وكان آخر شيء قد أرغب في أن يحدث لي هو أن أكون مثلها، ولكني لم أكن كذلك أرغب في أن أكون مثل تي-ري الذي لم يكن يؤثر فيه شيء سوى حياته الأنانية. ولم أكن أعرف أيهما كان أفضل.

وسألت آب:

- هل ولدت كذلك؟

- لا، لقد كانت طفلة عادية في بداية الأمر.

- وماذا حدث لها؟

وركزت آب نظرها على الحائط الحجري، وقالت:

- لقد كان لأيار أخت توأم. أختنا نيسان. وكانت كلتاهما كروح واحدة في جسدين. ولم أر في حياتي قط شيئا مثل ذلك. فعندما كانت نيسان تعاني من ألم في أسنانها، كانت لثة أيار تصبح حمراء وتنتفخ كلثة نيسان تماما. وذات مرة، ضرب والدنا نيسان بحزام وأقسم أن آثار الضرب ظهرت على ساقي أيار كذلك. ولم يكن شيء ليفرق بين الاثنتين.

- لقد أخبرتنا أيار عن نيسان يوم وصلنا إلى هنا.

- هكذا بدأ الأمر مع أيار.

قالت آب ونظرت إليَّ وكأنها كانت تفكر فيما إذا كانت ستكمل الحكاية أم لا.

- إنها قصة بشعة.

- وقصتي بشعة كذلك.

قلت فابتسمت هي.

- حسنا، عندما كانت نيسان وأيار في الحادية عشر من عمرهما، ذهبتا إلى السوق ولدى كل منهما خمسة قروش لشراء المثلجات. وكانتا قد رأتا أطفالا بيض وهم يلعقون رقاقات البوظة وينظرون إلى كتب الرسوم الكاريكاتورية. ومد مالك السوق البوظة لنيسان وأيار ولكنه طلب منهما أكلها خارجا. ولكن نيسان كانت عنيدة وأصرت على التفرج على كتب الرسوم. وتجادلت مع الرجل من أجل ذلك كما كانت تفعل مع والدي، فما كان من الرجل إلا أن أمسكها من ساعدها وأخرجها من الباب عنوة فسقطت البوظة على الأرض. وعندها عادت نيسان إلى المنزل وهي تصرخ بأن ذلك لم يكن عادلا. وقد كان والدنا طبيب الأسنان الأسود الوحيد في ريتشموند وكان قد رأى ما يكفي من الجور، فقال لنيسان. «لا شيء عادل في هذا العالم. فلتفهمي ذلك جيدا الآن.»

وكنت أفكر في أنني تعلمت ذلك الدرس جيدا قبل أن أبلغ الحادية

عشر من عمري. ونفخت في الهواء، ورفعت رأسي لأشاهد الدب الأكبر. وتدفقت موسيقى حزيران، متغنية لأجلنا.

وقالت آب:

- أعتقد أن معظم الأطفال كانوا ليتقبلوا الأمر، ولكن ذلك أثر في نيسان. لقد أفقدها حماسها للحياة وفتح عينيها على أشياء لم تكن قد انتبهت لها لصغر سنها. وبدأت تمر بفترات لم تكن ترغب فيها بالذهاب إلى المدرسة أو أن تفعل أي شيء. وعندما بلغت الثالثة عشر من عمرها، كانت تمر بحالات سيئة من الاكتئاب، وبطبيعة الحال، فإن أيار كانت تشعر دائما بما كانت تشعر به نيسان. وحين بلغت نيسان الخامسة عشر، أخذت سلاح والدي وقتلت نفسها.

ولم أتوقع ذلك. فابتلعت ريقي وأحسست بيدي تسارع وتغطي فمي.

وقالت آب:

- أعرف، من المروع سماع شيء من هذا القبيل.

وتوقفت لهنيهة ثم تابعت:

- حين ماتت نيسان، مات شيء ما معها في أيار أيضا. ولم تعد طبيعية بعد ذلك. وكأن العالم أصبح توأمها.

وكان وجه آب يمتزج بظلال الشجرة، فعدلت وضعية كرسيي حتى أتمكن من رؤيتها.

- لقد كانت والدتنا تقول إن قلبها خارج صدرها مثل مريم.

وكانت تجيد التعامل معها، ولكن حين توفيت، انتقل الحمل إليَّ أنا وحزيران. وحاولنا الحصول على بعض المساعدة لأيار لسنوات، فأخذناها إلى أطباء ولكنهم لم يجدوا طريقة للتعامل معها سوى عزلها. ثم أتينا أنا وحزيران بفكرة حائط المبكى.

- حائط ماذا؟

ورددت:

- حائط المبكى، مثل الحائط الموجود في القدس. ذلك الذي يقصده اليهود عند فترات الحداد. إن تلك هي طريقتهم في التعامل مع المعاناة. إنهم يكتبون صلواتهم في قطع صغيرة من الورق ويحشونها في الحائط.

- وهذا ما تفعله أيار؟

هزت آب رأسها بالإيجاب وقالت:

- كل قطع الورق التي ترينها هناك محشوة بين الأحجار هي أشياء كتبتها أيار، جميع المشاعر الثقيلة التي تحملها. ويبدو أن تلك هي الطريقة الوحيدة التي تساعدها.

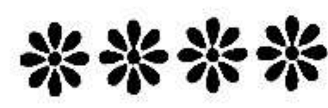
ونظرت في اتجاه الحائط الذي كان الظلام قد التهمه في تلك اللحظة. بريمينغهام، **١٥ سبتمبر، وفاة ثلاثة ملائكة صغار**. وقلت:

- المسكينة.

وأجابت آب:

- نعم، يا لها من مسكينة.

وبقينا جالستين في جو من الأسى لوهلة، إلى أن اجتمع حولنا البعوض وطردنا إلى الداخل.



كانت روزالين مستلقية على سريرها في بيت العسل والأضواء مطفأة والمروحة تدور بأقصى سرعة. وتجردت من ملابسي باستثناء ملابسي الداخلية وقميصي غير ذي الأكمام، ولكني مع ذلك كنت أشعر بأن الحر يعيق حركتي.

وقد كان صدري يؤلمني من الأشياء التي كنت أشعر بها. وتساءلت ما إن كان تي-ري يذرع الأرض جيئة وذهابا ويشعر بأنه مجروح كما كنت آمل أن يشعر. لربما كان يلوم نفسه على التبرير المتعفن الذي كان يعطيه لنفسه كأب ليعاملني بتلك الطريقة، ولكني كنت أشك في ذلك. فهو غالبا ما كان يفكر في الطريقة التي كان سيقتلني بها.

وأدرت مخدتي عدة مرات بحثا عن شيء من البرودة، وكنت أفكر في أيار وفي حائطها وما آل إليه العالم حتى يحتاج شخص ما لشيء مماثل. وكان التفكير بما يمكن أن يكون بين تلك الأحجار يشعرني بالقشعريرة. وذكرني الحائط بقطع اللحم الدامية التي كانت تطبخها روزالين والجراح التي كانت تخطها فيها قبل أن تحشوها بقطع من الثوم البري المر.

وكان أسوأ ما في الأمر أن أستلقي هناك وأتوق إلى أمي. وهذا ما كان عليه الأمر دائما، كان شوقي إليها غالبا ما يداهمني في ساعة متأخرة من الليل حيث تكون مقاومتي ضعيفة. وكنت أدخل فراشي متمنية لو

أني كنت أستطيع أن أحبو معها إلى الفراش وأستنشق رائحتها. وكنت أتساءل: هل كانت ترتدي ثوبا من النايلون قبل الخلود إلى السرير؟ وهل كانت تجمع شعرها بالدبابيس؟ وكنت أستطيع رؤيتها داخل فراشها. والتوى فمي وأنا أتخيل أنني أصعد إلى الفراش وأستلقي إلى جانبها وأضع رأسي على نهديها، على قلبها النابض تماما وأنصت لدقاته. أمي. كنت لأقول. وكانت لتنظر إلي وتقول لي، **نعم يا صغيرتي، أنا هنا.**

وسمعت روزالين وهي تتقلب على الفراش، فسألتها:

- هل أنت مستيقظة؟

- ومن له أن ينام داخل هذا الفرن؟

وكنت أريد أن أقول لها، أنت تستطيعين ذلك، فقد رأيتها ذلك اليوم وهي تنام خارج متجر ومطعم يخنة فروغمور، وقد كان الجو بهذه الدرجة من الحرارة على الأقل. وكان على جبهة روزالين ضماد جديد حيث قامت آب في وقت مبكر بغلي ملقطها ومقص الأظافر في قدر على الموقد واستعملتهما لإزالة غرز روزالين.

- كيف حال رأسك؟

- رأسي بخير.

وخرجت الكلمات من فمها ككلمات صغيرة متصلبة وانطلقت في الهواء.

- هل أنت غاضبة أو شيئا من هذا القبيل؟

- ولماذا قد أغضب؟ لأنك تقضين كل وقتك مع آب، لا أنا لا أهتم لذلك. بوسعك أن تختاري مع من تودين الحديث.

ولم أستطع تصديق ذلك. فقد بدا وكأن روزالين كانت تشعر بالغيرة.

- ولكنني لا أقضي معها كل وقتي.

وردت روزالين قائلة:

- معظمه.

- حسنا، وما الذي تتوقعينه؟ أنا أعمل معها في بيت العسل، ومن الطبيعي أن أقضي الوقت معها.

- وماذا عن هذه الليلة؟ هل كنتما تعملان وأنتما جالستان في الحديقة؟

- كنا نتحدث فقط.

- نعم، أعرف ذلك.

قالت واستدارت نحو الحائط محولة ظهرها إلى سنام ضخم من الصمت.

- روزالين، لا تتصرفي بتلك الطريقة، لربما كانت آب تعرف أشياء عن أمي.

ونهضت واستندت على مرفقها ونظرت إلي وقالت بلطف:

- ليلي، لقد رحلت أمك. وهي لن تعود.

فاستقمت وقلت:

- وكيف تعرفين أنها ليست على قيد الحياة وتعيش في هذه البلدة؟ قد يكون تي-ري اختلق موتها، تماما كما ادعى أنها تخلت عني.

- آه يا ليلي، توقفي عن هذا كله.

وقلت:

- أشعر بها هنا. لقد كانت هنا. وأنا متيقنة من ذلك.

- ربما كانت هنا. أنا لا أستطيع تأكيد ذلك. ولكني أعرف أن من الأفضل عدم الخوض في بعض الأمور.

- ماذا تقصدين؟ هل تقصدين أنه لا يجدر بي معرفة ما يمكنني معرفته عن أمي؟

- وماذا لو...

وتوقفت وفركت ظهر عنقها.

- ماذا لو اكتشفت أشياء لا تودين معرفتها؟

وما كنت أسمعها تقول هو: **لقد تركتك أمك يا ليلي. دعي الأمر.**

ووددت الصراخ في وجهها، وأن أقول لها كم كانت غبية، ولكن الكلمات تكومت في حلقي، وأصابتني الحازوقة عوضا عن ذلك.

- هل تعتقدين أن تي-ري كان يقول الحقيقة عندما قال إنها قد تركتني؟

وقالت روزالين:

ليس لدي أي فكرة عن ذلك، ولكنني لا أريد أن تؤذي نفسك.

واستلقيت على السرير من جديد، فيما ترددت الحازوقة في صمت المكان كالقذيفة.

وقالت روزالين.

- احبسي أنفاسك، وربتي على رأسك ثم حكي بطنك.

وتجاهلتها. وتحول تنفسها في الأخير إلى مكان أعمق.

وارتديت سروالي القصير وخفي وسرت ببطء إلى المكتب الذي كانت تملأ فيه آب طلبيات العسل. ومزقت قطعة ورق من دفتر ملاحظات وكتبت اسم أمي عليها. ديبورا أوينز.

وعندما نظرت إلى الخارج، عرفت أنه كان عليَّ أن أتبين طريقي على ضوء النجوم. ومشيت ببطء على العشب متجهة صوب حائط أيار عند حافة الغابة. وكانت الحازوقة تصيبني على طول الطريق. ووضعت يدي على الحجر وكان كل ما أردته ألا أشعر بكل ذلك الألم.

وكنت أريد أن أتخلص من مشاعري لبعض الوقت وأن أتوقف عند قنطرتي. وحشرت الورقة التي كتبت عليها اسم أمي داخل حفرة بدت وكأنها تناسبها. وأعطيتها لحائط المبكى. واختفت الحازوقة في لحظة ما.

وجلست على الأرض، واتكأت على الحجر ورأسي مائل إلى الخلف حتى أستطيع رؤية النجوم مع كل الأقمار الاصطناعية الجاسوسة التي

تتخللها. ولربما كان أحدها يأخذ صورتي في تلك اللحظة بالذات، فقد كان بإمكانهم تحديد مكاني وسط الظلام. ولم يكن أي شيء آمنا. وكان عليَّ أن أتذكر ذلك.

وبدأت في التفكير أنه ربما كان يتعين عليَّ اكتشاف ما أستطيع اكتشافه عن أمي قبل أن يعثر علينا تي-ري والشرطة ويأتوا لأخذنا. ولكن من أين أبدأ؟ لم يكن بإمكاني إخراج صورة مريم السوداء بكل بساطة وإظهارها لآب دون أن تحطم الحقيقة كل شيء، وهي ستقرر، قد تقرر... لا أعرف... قد تقرر أن تتصل بتي-ري وتطلب إليه أن يأتي ليأخذني. وفي حال عرفت أن روزالين هاربة من العدالة، ألن يكون عليها الاتصال بالشرطة؟

وبدا الليل كاختبار بقعة حبر كان عليَّ التعامل معه. وجلست هناك وتفحصت الظلام محاولة استشفاف خيط من الضوء.

يجب أن تنتج الملكة مادة تجذب خادماتها ولا يمكن الحصول عليها إلا بالاتصال المباشر معها. ومن الواضح أن هذه المادة تحفز العمل داخل القفير. وسميت هذه الرسالة الكيميائية «مادة الملكة». وبينت التجارب أن النحل يحصل عليها من جسم الملكة مباشرة.

Man and Insects

الفصل السادس

في صباح اليوم الموالي، استيقظت داخل بيت العسل على صوت طرق في الحديقة. وعندما غادرت سريري وخرجت من بيت العسل، وجدت أطول رجل أسود رأيته في حياتي. وكان منهمكا في إصلاح الشاحنة ومنحنيا على المحرك والأدوات متناثرة حول قدميه. وكانت حزيران تمد له مفاتيح الربط وما إلى ذلك، ورأسها مائل باتجاهه وهي تبتسم له.

وكانت أيار وروزالين في المطبخ تعدان عجينة الفطائر المحلاة التي لم أكن أحبها كثيرا، ولكني لم أقل ذلك. وكنت فقط ممتنة أنها ليست دقاقا، فبعد أن تركع عليه نصف حياتك، لن ترغب بأكله.

وكان سلة النفايات مليئة بقشور الموز ومرشح القهوة الكهربائي يبقبق ويحرك الفوهة الزجاجية الصغيرة في أعلاه. بق بق بق بق. وكنت أحب الصوت الذي كان يصدره والرائحة التي كانت تنبعث منه.

وسألت:

- من ذلك الرجل هناك؟

وأجابت أيار:

- إنه نيل. إنه يحب حزيران.

- ويبدو لي أنها تحبه كذلك.

وقالت أيار:

- نعم، ولكنها لا تعترف بذلك. لقد علقت ذلك الرجل المسكين لسنين. فهي لا ترغب في الزواج منه وترفض أن تتركه وشأنه.

وسكبت أيار العجينة في المقلاة على شكل لام كبيرة وقالت:

- هذه لك، لام كأول حرف من اسمك يا ليلي.

وأعدّت روزالين الطاولة وسخنت العسل في زبدية من الماء الساخن، ثم صبت عصير البرتقال في كؤوس الهلام.

وسألت:

- ولماذا لا ترغب حزيران في الزواج منه؟

فأجابت أيار:

- لقد كانت ستتزوج من شخص آخر قبل وقت طويل. ولكنه لم يأت عند يوم الزفاف.

ونظرت إلى روزالين وأنا أخشى أن تكون ذكرى حادثة الحب المهجور تلك باعثة على الشقاء لدرجة تجعل أيار تدخل في إحدى نوباتها، ولكنها كانت منشغلة بإعداد الفطائر. لقد تعجبت في البداية إلى أن أيا منهن لم تكن متزوجة. ثلاث أخوات غير متزوجات تعشن معا هكذا.

وسمعت روزالين تصدر صوتا، هممم، وعرفت أنها كانت تفكر في زوجها البائس متمنية لو أنه لم يحضر يوم زفافهما.

- وابتعدت حزيران عن الرجال وقالت إنها لن تتزوج أبدا، ثم التقت بنيل عندما أصبح المدير الجديد لمدرستها. ولا أعرف ما حدث لزوجته ولكنه لم يعد متزوجا عندما انتقل إلى هنا. وقد حاول أن يجعل حزيران تتزوجه بشتى الطرق ولكنها لم تكن لتوافق. ولم نستطع أنا وآب إقناعها بذلك.

وتصاعد أزيز من صدر أيار، ثم بدأت تدندن:

- آه، يا سوزانا.

ها قد بدأنا. وقالت روزالين:

- يا إلهي، ليس مرة أخرى.

وقالت أيار:

- أنا آسفة، إن الأمر خارج عن إرادتي.

وأخذت ملعقة الطهي من يديها، وقلت:

- لماذا لا تذهبين إلى الحائط. لا بأس في ذلك.

وقالت روزالين:

- نعم، افعلي ما عليك فعله.

وتابعناها من زجاج الباب وهي تمر بجانب حزيران ونيل.

وبعد لحظات جاءت حزيران وكان نيل يلحق بها، وكنت أخشى ألا يدخل رأسه من الباب.

- ما بها أيار؟

سألت حزيران، وعيناها تتبعان خنفساء انطلقت تحت المبرد.

- هل دهست خنفساء أمامها؟

وأجبتها:

- لا، أنا لم أر خنفساء حتى.

وفتحت الدرج الذي كان تحت المغسلة ونقبت بداخله عن مضخة قاتل الحشرات. وفكرت في أن أشرح لها طريقة أمي العبقرية في تخليص المنزل من الخنافس عن طريق استخدام فتات الحلوى والمارشملو، ولكني فكرت في أن تلك حزيران؛ **انسي الأمر**.

وسألت حزيران:

- حسنا، ما الذي أغضبها؟

وكنت أكره أن أقف وأقول ذلك بحضور نيل ولكن روزالين لم تر أي مشكلة في ذلك، فقالت:

- إنها غاضبة لأنك لا ترغبين في الزواج من نيل.

ولم يسبق لي حتى أن أفكر في أن الأشخاص السود قد يحمرون من الخجل. أو ربما كان الغضب ما جعل وجه حزيران وأذنيها يكتسبان

لونا أحمر قانيا.

وضحك نيل، وقال:

- هل رأيت. يجب أن تتزوجيني وتتوقفي عن إغضاب أختك.

وأجابته حزيران ودفعته:

- فلتخرج من هنا.

- لقد وعدتني بالفطائر المحلاة، وسآكلها.

قال، وكان يرتدي سروال جينز أزرق وقميصا داخليا عليه بقع الشحم، ونظارة ذات إطار بارز. وكان يبدو كميكانيكي جاد.

وابتسم لي ثم لروزالين وقال:

- هل ستعرفينني عليهما، أم لا؟

ولاحظت أنك إذا أمعنت النظر في عيون الناس خلال الثواني الخمسة الأولى التي ينظرون إليك فيها، فإن حقيقة مشاعرهم تبزغ لوهلة قبل أن تختفي. وكانت عينا حزيران تبهتان وتصبحان قاسيتين كلما نظرت إلي. وقالت:

- هذه ليلي، وهذه روزالين. إنهما في زيارة عندنا.

- ومن أين أنت؟

سألني. وكان ذلك السؤال الأكثر شيوعا في كارولاينا الجنوبية كلها. إذ كنا نود أن نعرف إن كنت واحدا منا، وإن كان قريبك يعرف

قريبنا، وإن كانت أختك الصغرى ترتاد نفس المدرسة التي يرتادها أخونا الأكبر، وإذا كنت ترتاد نفس الكنيسة المعمدانية التي كان يرتادها رئيس عملنا السابق. إننا نبحث عن سبل تقاطع حكاياتنا. ولكن، كان من النادر أن يسأل السود البيض عن المكان الذي ينتمون إليه، لأن السؤال لم يكن مجديا، ذلك أن حكايات الاثنين لم تكن تتقاطع.

وأجبت:

- أنا من مقاطعة سبارتانبيرغ.

وكان عليّ التوقف لأتذكر ما قلته سابقا.

- وأنت؟

قال موجها سؤاله لروزالين.

وحدقت في قوالب الهلام النحاسية المعلقة في كلا جانبي نافذة المغسلة، وقالت:

- من نفس المكان.

وقالت حزيران:

- شيء ما يحترق.

وانطلق الدخان من المقلاة، واحترقت الفطيرة التي كانت على شكل اللام متحولة إلى فتات. فانتزعت حزيران ملعقة الطبخ من يدي وكشطت الفوضى وكبتها في سلة النفايات.

وسأل نيل:

- وكم ستبقيان هنا؟

وحدقت فيّ حزيران، وكانت تنتظر جوابي وتزم شفتيها.

- لبعض الوقت.

أجبت، وأنا أنظر إلى سلة النفايات. لام، أول حرف من اسمي ليلي. وكنت أشعر بالأسئلة تتناسل في ذهنه، ولم أكن أستطيع مواجهتها، فقلت:

- لست جائعة.

وانصرفت من الباب الخلفي.

وأنا أقطع الشرفة الخلفية، سمعت روزالين وهي تسأله:

- هل سجلت نفسك في قائمة التصويت؟

****

يوم الأحد، اعتقدت أنهن سيذهبن إلى الكنيسة، ولكنهن لم يفعلن، بل نظمن قداسا خاصا في المنزل الوردي، وجاء الناس إليهن. وكانت مجموعة تسمى بنات مريم نظمتها آب.

وبدأت بنات مريم في التوافد على غرفة الاستقبال عند الساعة العاشرة صباحا. وكان أول الواصلين امرأة مسنة اسمها كويني جاءت رفقة ابنتها البالغة فيوليت. وكانتا ترتديان زيا متطابقا، تنورة صفراء

فاقعة وقميص أبيض، ولكن قبعتيهما كانتا مختلفتين على الأقل. وبعد ذلك، وصلت لينيل ومابيلي وكريسي وكانت قبعاتهن أكثر القبعات التي وقعت عليها عيناي فخامة على الإطلاق.

وتبين أن لينيل صانعة قبعات شديدة الجرأة. وأتحدث هنا عن قبعات بنفسجية بعرض الصمبريرة وعلى الجزء الخلفي منها فواكه مزيفة. وتلك كانت لينيل.

وكانت مابيلي ترتدي قبعة من فرو النمر ملفوفة بأهداب ذهبية، ولكن كريسي كانت الأكثر تميزا لأن قبعتها كانت تشبه مدخنة قرمزية وبها شبكة سوداء وريش النعام.

وكما لو أن ذلك لم يكن كافيا، فقد ارتدين أقراط أذن دائرية من حجر الراين مختلفة الألوان، ووضعن دوائر حمراء على خدودهن. وكنت أجدهن جميلات.

وكان برفقة بنات مريم ابن اسمه أوتيس هيل، وكانت أسنانه صغيرة، وكان يرتدي بذلة زرقاء بحرية كبيرة الحجم، وبدا أنه كان يجدر أن تسمى المجموعة بنات مريم وابنها. وجاء أوتيس برفقة زوجته التي كان الجميع يلقبها بالفتاة الحلوة، وكانت ترتدي فستانا أبيض، وقفازات قطنية فيروزية، وتضع عمامة خضراء زمردية على رأسها.

وبدت آب وحزيران اللتان لم تكونا ترتديان قبعات أو قفازات أو أقراط وكأنهما تعيشان في فقر مدقع مقارنة بهن. ولكن أيار الطيبة كانت تلبس قبعة زرقاء فاتحة اللون كان أحد أطرافها مرفوعا نحو الأعلى والآخر منحنيا إلى الأسفل.

وكانت آب قد أحضرت الكراسي ورتبتها في نصف دائرة قبالة تمثال مريم الخشبي. وحين جلسنا جميعا، أشعلت الشمعة وأخذت حزيران في عزف التشيللو. وتلونا جميعا الصلاة المريمية، وكانت كويني وفيوليت تحركان خيوط الخرز بين أصابعهما.

ووقفت آب وقالت إنها كانت سعيدة بحضوري أنا وروزالين معهم، ثم فتحت الإنجيل وقرأت:

«وقالت مريم: فها منذ الآن تطوبني جَميعُ الأجيال لأن القدير صنع بي عظائم.... وشتت المتكبرين. . . وحطَّ المقتدرين عنِ العروش ورفَعَ المتواضعين. وأشبَعَ الجياعَ خيراتٍ وصرفَ الأغنياءَ فارغين».

وبعد ذلك، وضعت آب الإنجيل جانبا وقالت:

- لقد مضى زمن لم نقص فيه حكاية سيدتنا ذات الأصفاد، وبما أن لدينا زوارا لم يسمعوا قصة التمثال من قبل، فقد فكرت في أن أحكيها من جديد.

وهنا، أدركت أن آب كانت تحب أن تحكي القصص الجيدة.

وأضافت:

- حقا، من الجيد أن نسمع القصة من جديد. لأن القصص تموت عندما نتوقف عن حكيها. وإذا ماتت، فلن يكون بإمكاننا تذكر من نحن وما المغزى من وجودنا.

وأومأت كريسي برأسها، وهو ما جعل ريش النعام يتحرك في الهواء ويعطي الانطباع بأن هناك طائرا حقيقيا في الغرفة، وقالت:

- هذا صحيح، قصي لنا الحكاية.

وقربت آب كرسيها من تمثال مريم السوداء وجلست قبالتنا. وعندما بدأت في الحكي، بدت مختلفة، وكأن شخصا آخر يتقمصها، شخص من زمان ومكان مختلفين. وطوال الوقت، كانت عيناها تحدقان بالنافذة وكأنها تتابع مجرى الأحداث من خلالها.

وقالت:

- حسنا، في قديم الزمان، زمان العبودية، حين كان الناس يُضربون ويُستعبدون، كان هؤلاء يطلبون الخلاص كل يوم وكل ليلة. وفي الجزر القريبة من شارلستون، كانوا يذهبون إلى بيت الصلاة ويغنون ويتلون صلواتهم، وفي كل مرة كان أحدهم يدعو الإله أن يرسل لهم الخلاص، وأن يرسل لهم العزاء، وأن يرسل إليهم الحرية.

وكان يبدو أن آب رددت ذلك التمهيد لآلاف المرات، وأنها كانت تردده بنفس الطريقة التي خرج بها من بين شفتي امرأة عجوز سمعته هي بدورها من عجوز أخرى أكبر منها. وكانت الكلمات تخرج من شفتيها كأغنية، بإيقاعات كانت تجعلنا نتمايل ذات اليمين وذات الشمال إلى أن غادرنا مقاعدنا وانتقلنا نحن أنفسنا إلى جزر شارلستون باحثين عن الخلاص.

وتابعت آب:

- وذات يوم، كان عبد اسمه عوبديا يشحن اللبنات داخل قارب كان سيبحر إلى وادي آشلي، عندما لمح شيئا جرفته الأمواج إلى الضفة.

واقترب منه، فرأى مجسم امرأة خشبي. وكان جسدها ناتئا من قطعة خشب، امرأة سوداء ترفع ساعدها ويدها تتخذ شكل قبضة.

وهنا وقفت آب واتخذت نفس الوضعية. وكانت تبدو كالتمثال الواقف هناك تماما، وساعدها الأيمن مرفوع ويدها في شكل قبضة. وبقيت كذلك لعدة ثوان بينما كنا نجلس مشدوهين إليها.

ثم تابعت:

- وأخرج عوبديا المجسم من الماء، وحاول جاهدا إيقافه. ثم تذكر أنهم طلبوا إلى الإله أن يبعث لهم الخلاص، أن يبعث لهم العزاء، أن يبعث لهم الحرية، فأدرك عوبديا أن الإله قد أرسل إليهم تلك المرأة، ولكنه لم يكن يعرف من تكون.

وجثا أمامها في وحل المستنقع ثم أتاه صوتها يتكلم واضحا في قلبه. فقالت له: «لا بأس. أنا هنا. وسأعتني بكم الآن.»

وكانت هذه القصة أفضل بكثير من قصة الراهبة بياتريز. وكانت آب تتحرك في الغرفة بانسيابية وهي تتحدث.

- حاول عوبديا حمل المرأة المغمورة بالمياه التي أرسلها الإله لتعتني بهم، ولكنها كانت ثقيلة جدا، ولذلك فقد ذهب وأتى بعبدين آخرين فنقلوا المرأة جميعا إلى بيت الصلاة ووضعوها في قلبه. ويوم الأحد الموالي، كان الجميع قد سمع بالتمثال الذي جرفه النهر، وكيف تحدث لعوبديا. واكتظ بيت العبادة بالناس، فكانوا يقفون في الباب وعند حواف النوافذ. وأخبرهم عوبديا أنه يعرف أن الإله قد أرسلها، ولكنه

لم يمكن يعرف من تكون.

- لم يعرف من تكون!

صرخت الفتاة الحلوة فقاطعت سير القصة. وانطلقت جميع بنات مريم، ورددن مرارا وتكرارا «**لم يتعرف عليها أي منهن.**»

ونظرت إلى روزالين، التي لم أكد أعرفها من الطريقة التي كانت تنحني بها إلى الأمام وهي تجلس على كرسيها، وتردد العبارة مثلهن.

وحين هدأ كل شيء، قالت آب:

- وكانت أكبر العبيد سنا امرأة اسمها بيرل، وتقدمت مستندة إلى عكازها، وحين تكلمت، أصخى الجميع السمع. ووقفت على رجليها وقالت: هذه أم المسيح. وكان الجميع يعرفون أن أم المسيح اسمها مريم، وأنها رأت جميع أنواع العذاب. وكانوا يعرفون أنها قوية ومخلصة وأن لها قلب أم. وها هي، قد أرسلت إليهم في نفس المياه التي أحضروا فيها إلى هنا مكبلين. وكان يبدو لهم أنها كانت تعرف كل شيء عن معاناتهم.

وحدقت في التمثال وشعرت بالمكان المشروخ في صدري.

وواصلت آب:

- ثم بكى الناس ورقصوا وصفقوا بأيديهم. وذهبوا الواحد تلو الآخر للمس صدرها رغبة منهم في استمداد شيء من العزاء من قلبها. وكانوا يفعلون ذلك كل يوم أحد في بيت الصلاة، فيرقصون ويلمسون صدرها، ثم رسموا قلبا أحمر على صدرها حتى يكون للناس قلب يلمسونه.

- وملأت سيدتنا قلوبهم بالجسارة وهمست لهم بخطط للفرار. ففر الجسورون منهم، ووجدوا طريقهم نحو الشمال. وعاش من لم يفروا بقبضة مرفوعة في قلوبهم. وحين كانوا يشعرون بالضعف، لم يكن منهم إلا أن يلمسوا قلبها من جديد.

- وأصبحت قوية جدا وعرف السيد بأمرها. وذات يوم، أخرجها في عربة وقيدها وزج بها في مرآب العربات. ولكنها هربت خلال الليل من دون أن يساعدها أي إنسان وعادت إلى بيت الصلاة. وقيدها السيد في الحظيرة خمسين مرة، وفي كل مرة، كانت تتخلص من أصفادها وتعود إلى بيت الصلاة. وفي الأخير، استسلم السيد وتركها وشأنها.

وأطبق الصمت على الغرفة وتوقفت آب لدقيقة تاركة بعض الوقت لاستيعاب الأمر. وحين تحدثت من جديد، رفعت ساعديها إلى جانبها وقالت:

- وأطلق عليها الناس اسم سيدتنا ذات الأصفاد. ولم يسموها كذلك لأنها كانت مكبلة...

وغنت البنات:

- ليس لأنها كانت مكبلة.

- سموها سيدتنا ذات الأصفاد لأنها كانت تكسرها.

وحشرت حزيران التشيللو بين ساقيها وعزفت "أمايزين غري" ووقفت بنات مريم وتمايلن معا كطحلب بحري ملون في قعر المحيط.

واعتقدت أننا وصلنا إلى نهاية القداس، ولكن الأمر لم يكن كذلك،

فقد انتقلت حزيران إلى البيانو وسارعت بعزف أنشودة "غو تيل إت أون ذا ماونت" على طريقة موسيقى الجاز. وهنا بدأت آب صفا من رقص الكونغا، ورقصت باتجاه لينيل التي أمسكت بخصر آب، فأمسكت كريسي بدورها بخصر لينيل وتبعتها مابيلي وبدأن في الدوران حول الغرفة، وهو ما جعل كريسي تمسك بطرف قبعتها القرمزية. وعندما اقترين منا التحقت بهن كويني وفيوليت ثم الفتاة الحلوة. وودت أن أشارك في ذلك أيضا ولكني اكتفيت بالمشاهدة، وكذلك فعل كل من روزالين وأوتيس.

وبدا وكأن حزيزان تعزف أسرع فأسرع. وحركت المروحة أمام وجهي محاولة الحصول على شيء من الهواء وكنت أشعر بالدوار.

وعند انتهاء الرقصة، شكلت البنات نصف دائرة أمام سيدتنا ذات الأصفاد وكن يتصببن عرقا، وأصابني ما فعلنه بعد ذلك بالذهول، فقد تناوبن على الذهاب إلى التمثال ولمس قلبه الأحمر الباهت.

وذهبت كويني وابنتها معا وفركتا راحتيهما في الخشب. وضغطت لينيل بأصابعها على قلب مريم ثم قبلت أصابعها كلها ببطء وتأنٍّ، بطريقة أجرت الدمع في مقلتي.

وضغط أوتيس بجبهته على القلب، وأطال مكوثه هناك أكثر من أي منهن، ورأسه على قلبها، وكأنه يملأ خزانه منه.

واستمرت حزيران في العزف بينما كانوا جميعا يذهبون إلى التمثال، ولم يتبق سوى أنا وروزالين. وهزت أيار رأسها لحزيران حتى تواصل العزف وأخذت يد روزالين وجرتها إلى سيدتنا ذات الأصفاد، فكان

لروزالين أيضا أن تلمس قلب مريم.

وأردت أن ألمس قلبها الأحمر الباهت أيضا فقد انتابتني رغبة شديدة في ذلك. وحين نهضت من الكرسي، وكنت ما أزال أشعر بالدوار. تقدمت نحو مريم السوداء ويدي مبسوطة. ولكن ما أن اقتربت منها حتى توقفت حزيران عن العزف. وتوقفت عند وسط الأغنية وتسمرت هناك في الصمت ويدي مبسوطة.

وسحبت يدي، ونظرت حولي، وكان الأمر وكأنني أرى كل شيء من خلال نافذة قطار سميكة. وأصبحت الرؤية أمامي ضبابية. ومرت أمامي موجة من الألوان. **لست واحدة منكم**، فكرت.

وتخدر جسدي. وتمنيت لو أنني أخذت في التضاؤل شيئا فشيئا إلى أن أصبح نقطة صغيرة وأتلاشى.

وسمعت آب وهي توبخ حزيران:

- ما الذي يحدث لك؟

ولكن صوتها كان يبدو بعيدا. وناديت سيدتنا ذات الأصفاد، ولكنني ربما لم أكن أنطق اسمها حقا، ربما كنت أسمع نفسي وأنا أناديها من الداخل. وكان هذا آخر ما أتذكره. وتردد صدى اسمها في الفضاء الفارغ.

وحين استفقت، وجدت نفسي على سرير آب في آخر البهو وعلى جبهتي فوطة وجه شديدة البرودة فيما كانت آب وروزالين تحدقان في. وأمسكت روزالين بتنورة فستانها وكانت تهويني بها، وكان الجزء الأكبر

من فخذيها عاريا.

وصاحت:

- منذ متى بدأت في فقدان الوعي؟

وجلسَت على حافة السرير وهو ما جعلني أميل إلى جانبها. واحتضنتني ولسبب ما ملأ ذلك صدري بحزن كنت أصغر من أن أطيقه، فتنصلت منها وطلبت كأسا من الماء.

وقالت آب:

- ربما كان ذلك بسبب الحر. كان عليَّ أن أشغل المراوح. لا بد وأن درجة الحرارة كانت مرتفعة جدا.

وقلت لهما:

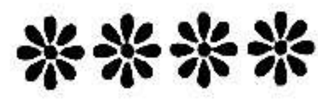
- أنا بخير.

ولكن، ولأكون صريحة، لقد كنت منذهلة من نفسي.

لقد شعرت وكأنني تعثرت بسر رائع. لقد كان من الممكن إغلاق العينين ومغادرة الحياة دون أن يموت المرء. ولكنني لم أكن أعرف كيف أفعل ذلك؟ كيف أسحب القابس وأتلاشى عندما أكون بحاجة لفعل ذلك.

وكان الحادث قد شتت بنات مريم وأرسل أيار إلى حائط المبكى. وذهبت حزيران إلى غرفتها في الطابق العلوي وأغلقت عليها الباب في حين احتشدت بنات مريم في المطبخ.

وعزونا كل شيء إلى الحر. الحر. إنه يجعل الشخص يفعل أشياء غريبة.



كان يجب أن ترى مقدار الاهتمام الذي أولته لي آب وروزالين ذلك المساء، هل ترغبين بمشروب الجذور يا ليلي؟ هل تريدين مخدة ريش؟ تفضلي، ابتلعي ملعقة العسل هذه.

وجلسنا في غرفة الجلوس حيث تناولت عشائي في صينية، وكان ذلك شرفا في حد ذاته. وكانت حزيران لا تزال في غرفتها ولم تكن ترد عندما كانت آب تطرق بابها. وكانت أيار، التي لم يُسمح لها عندها بالاقتراب من التلفاز لأنها قضت الكثير من الوقت عند الحائط ذلك اليوم، في المطبخ تعلق وصفات من مجلة ماكالز.

وعلى التلفاز، قال السيد كرونكايت إنهم سيرسلون صاروخا إلى القمر: «**في الثامن والعشرين من يوليو، ستطلق الولايات المتحدة الأمريكية رينجر ٧ من قاعدة كيب كينيدي، فلوريدا.**» وكان سيقطع مسافة ٢٥٣ ٦٦٥ ميل قبل أن يحط على القمر. وكان الغرض من ذلك كله هو أخذ صور للسطح وإعادة إرسالها.

وصاحت روزالين:

- أيها المسيح، صاروخ في القمر.

وهزت آب رأسها وقالت:

- سيمشون على القمر في المرة القادمة.

واعتقدنا جميعا أن الرئيس كينيدي قد فقد عقله حين أعلن أننا سنرسل رجلا إلى القمر. وأطلقت جريدة ذي سيلفان على ذلك «الرؤية الحمقاء». وكنت قد أخذت المقالة إلى القسم لنعلقها على سبورة الأحداث الراهنة. وكنا جميعا نقول، رجل على القمر. **حسنا.**

ولكن لا يمكنك الاستهانة بقوة المنافسة الشرسة بتاتا. فقد كنا نرغب في التغلب على الروس، وهذا ما كان يجعل الأرض تدور بالنسبة لنا. وكان يبدو في تلك اللحظة أننا بتنا قادرين على ذلك.

وأطفأت آب التلفاز، وقالت:

- أنا بحاجة إلى بعض الهواء النقي.

وخرجنا جميعا، وكانت روزالين وآب تسندان مرفقي تحسبا لئلا أسقط من جديد.

وكنا في لحظة انتقالية، حيث لم يكن النهار قد رحل بعد ولم يكن الليل قد حل بعد، وهو وقت لم أكن مولعة به بسبب الحزن الذي يسكن المسافة بين الرحيل والاستقبال. وحدقت آب في السماء حيث كان القمر آخذا في الطلوع، واسعا وفضيا شاحبا. وقالت:

- انظري إليه جيدا يا ليلي لأنك الآن ترين أفول شيء ما.

- ماذا؟

- نعم، أنت تشهدين نهاية شيء، لأن القمر كان لغزا لنا منذ أن جئنا إلى الأرض. فكري فيه، إنه قوي بما فيه الكفاية ليجر المحيطات، وحين يخبو، فإنه يعود دائما إلى الحياة. لقد كانت أمي تقول لي إن سيدتنا

كانت تعيش في القمر وإنه كان عليَّ أن أرقص حين يكون وجهه لامعا وأن أُسبِت حين يكون قاتما.

وحدقت آب في السماء لوقت طويل ثم استدارت نحو المنزل وقالت:

- الآن، لن يكون القمر كما عهدناه، ليس بعد أن نزلوا على سطحه ومشوا عليه. سيصبح مجرد مشروع علمي ضخم.

وفكرت في الحلم الذي رأيته في الليلة التي قضيناها أنا وروزالين قرب الجدول، وكيف تفتت القمر إلى قطع.

واختفت آب داخل المنزل وذهبت روزالين إلى سريرها في بيت العسل، ولكنني بقيت هناك أحملق في السماء متخيلة رينجر ٧ وهو ينطلق نحوها.

وكنت أعرف أنني سأعود يوما ما إلى غرفة الاستقبال حين لا يكون أحد هناك وألمس قلب سيدتنا. وبعد ذلك سأري صورة أمي لآب وأرى إن كان القمر سيسقط من السماء.

****

كيف أصبح النحل مربوطا بالجنس؟ إنه لا يعيش حياة جنسية مستهترة، بل إن القفير نفسه يوحي بالدير أكثر منه بمبغى.

The Queen Must Die: And Other Affairs of Bees and Men

الفصل السابع

كنت أقفز من مكاني كلما سمعت صوت صفارة إنذار. وسواء أكان ذلك الصوت منبعثا من سيارة إسعاف على مبعدة منا أم من مطاردة شرطة على التلفاز، لم يكن هناك فرق. وكان جزء مني دائما على أهبة الاستعداد لقدوم تي-ري أو السيد شو غاتسون بالسيارة ووضع نهاية لحياتي الجميلة. وكنا قد أمضينا ثمانية أيام بأكملها في منزل آب، ولم أكن أعرف المدة التي كان ستار مريم السوداء سيبقى مسدلا.

وفي صباح ١٣ يوليو، كنت متجهة صوب بيت العسل بعد أن تناولت فطوري حين لاحظت وجود سيارة فورد سوداء عند المدخل، فانقبض قلبي للحظة ولكني تذكرت أن زاك كان سيعود للعمل في ذلك اليوم.

وكان ذلك يعني أنني وآب وزاك سنعمل معا. وكنت أمتعض من ذلك التطفل رغم أنني لم أكن فخورة بذلك الشعور.

ولم يكن زاك بالشكل الذي توقعته. وحين دخلت بيت العسل، وجدته في الداخل يحمل رشاش عسل وكأنه ميكروفون ويغني «آي فاوند ماي تريل أون بلو بيري هيل. وأخذت في متابعة المشهد دون أن يراني، ودون أن أحدث صوتا، ولكن عندما انطلق في غناء «بيبا لاس فيغاس» وشرع في تحريك وركيه على طريقة إلفيس، انتابتني نوبة من الضحك.

واستدار بسرعة فأسقط مجموعة من البراويز وأحدث فوضى عارمة على الأرض. وقال، وكأنني لم أكن أعرف ما كان يفعله:

- لقد كنت أغني فقط. ومن تكونين على أي حال؟

فأجبته:

- أنا ليلي، وسأبقى مع آب لبعض الوقت.

- وأنا زاكاري تايلور.

- لقد كان زاكاري تايلور رئيسا.

- نعم، سمعت بذلك.

قال وأخرج صفيحة معدنية تتدلى من سلسلة تحت قميصه وأراني إياها.

- أنظري هنا، زاكاري لنكولن تايلر.

وابتسم فظهرت غمازة على إحدى وجنتيه. ولطالما كانت الغمازات تستهويني.

وذهب لإحضار منشفة ونظف الأرضية. وقال:

- أخبرتني آب أنك ستكونين هنا وستساعديننا، ولكنها لم تقل شيئا عن كونك... بيضاء.

فقلت:

- نعم... أنا بيضاء، حسنا. بيضاء جدا.

ولم يكن في زاكاري لينكولن تايلر أي شيء أبيض، فحتى بياض عينيه لم يكن أبيض تماما. وكان لديه كتفان واسعان وخصر ضيق وشعر حليق مثل جميع الفتيان السود، ولكنني لم أتمكن من منع نفسي من التحديق في وجهه. وإن كان هو قد صدم بكوني بيضاء، فقد كنت مصدومة بكونه جميلا.

لقد كانوا يسخرون من شفاه السود وأنوفهم في مدرستي، وكنت أنا أيضا أضحك من تلك النكت على أمل الاندماج. ولكني في تلك اللحظة، كنت أرغب في أن أمسك القلم وأكتب رسالة إلى مدرستي لتُقرأ عند اجتماع الافتتاح وأن أقول لهم فيها كم كنا جميعا مخطئين. وكنت لأقول لهم إن عليهم أن يروا زاكاري تايلر.

وتساءلت كيف نسيت آب أن تخبره بأني بيضاء. لقد أخبرتني أشياء كثيرة عنه. وكنت أعرف أنها عرابته، وأن والده رحل عندما كان هو صغيرا وأن والدته تعمل طباخة في نفس المدرسة التي تعمل فيها حزيران. وكان سيبدأ الصف الثالث في ثانوية السود وكان يحصل على نقط ممتازة في كل المواد، ويلعب خط وسط في فريق كرة القدم. وقالت إنه كان يركض بسرعة الريح، وقد تكون تلك تذكرته لدخول جامعة ما في الشمال. لقد أذهلني لأن ذلك كان أفضل مما كنت أعتقد أنني سأحققه، وقد بات من الوارد أن أذهب إلى مدرسة للتجميل.

وقلت:

- لقد ذهبت آب إلى مزرعة ساترفيلد لتفقد بعض القفران، وطلبت مني أن أساعدك هنا، ماذا يمكنني أن أفعل؟

- أعتقد أن بإمكانك أخذ بعض البراويز من صناديق النحل تلك ومساعدتي في نزع أغطية الشمع عنها.

- من تُفضِّل إذن، فاتس دومينو أم إلفيس؟

سألته وأنا أنزل البرواز الأول.

وأجاب:

- مايلز ديفيس.

- أنا لا أعرفه.

- طبعا، أنت لا تعرفينه. ولكنه أفضل عازف بوق في العالم. قد أفعل أي شيء لأعزف مثله.

- وهل تستطيع التخلي عن كرة القدم؟

- وكيف عرفت أنني ألعب كرة القدم؟

- لدي بعض المعلومات.

قلت، وابتسمت له.

- هذا واضح.

قال، وكان يحاول ألا يبتسم أيضا. وجال في خاطري أننا سنصبح صديقين.

وأدار المفتاح، وبدأ الفراز في الدوران بسرعة متزايدة.

- وما سبب مكوثك هنا إذن؟

- إنني وروزالين في طريقنا إلى فرجينيا للعيش مع عمتي. لقد توفي والدي في حادثة بالجرار وتوفيت أمي عندما كنت صغيرة. وأنا الآن أحاول الوصول إلى أقربائي هناك قبل أن أزج في ميتم أو شيء من هذا القبيل.

- ولكن، كيف وصلت إلى هنا؟

- تقصد إلى منزل آب. لقد وقفنا عند الطريق وطلبنا توصيلة، فأوصلنا أحدهم إلى تيبورون، ثم طرقنا باب آب فاستقبلتنا. هذا كل ما في الأمر.

وهز رأسه وكأن ذلك كان منطقيا. ورغبت في تغيير الموضوع فسألته:

- منذ متى وأنت تعمل هنا؟

- منذ أن دخلت المدرسة الثانوية. أنا آتي إلى هنا كل يوم بعد المدرسة خارج موسم لعب كرة القدم، وكل يوم سبت وخلال فصل الصيف. لقد اشتريت سيارة من المال الذي جنيته العام الماضي.

- سيارة فورد تلك؟

- نعم، إنها سيارة فورد فيرلان لعام ١٩٥٩.

وضغط زر تشغيل الفراز من جديد، وأحدثت الآلة صريرا قبل أن تتوقف.

وقال:

- هيا، سأريك إياها.

وكنت أستطيع رؤية وجهي على واجهتها، واستنتجت أنه كان يقضي لياليه في تلميعها بقميصه الداخلي. وطفت حولها متفحصة إياها.

وقلت:

- يمكنك أن تعلمني القيادة.

- ليس في هذه السيارة.

- ولم لا؟

- لأنه يبدو أنك تستطيعين تحطيم أي شيء بالتأكيد.

واستدرت لمواجهته وكنت مستعدة للدفاع عن نفسي، ورأيت أنه كان يبتسم وقد ظهرت الغمازة على إحدى وجنتيه من جديد.

وقال:

- بالتأكيد. ستحطمين شيئا ما بالتأكيد.

****

كنا أنا وزاك نعمل كل يوم في بيت العسل. وكان هو وآب قد استخراجا معظم العسل الذي أنتجه نحل الحديقة، إلا أن لوحات التحميل المحيطة بنا كانت لا تزال مكدسة بالعاسلات.

وشغلنا المسخن وجمعنا الشمع في حوض من القصدير ثم حمّلنا البراويز داخل الفراز ورشحنا العسل في جورب النايلون الجديد. وكانت آب تحب ترك بعض من حبوب اللقاح في عسلها لأنها كانت

مفيدة للناس، فكنا نحرص على القيام بذلك. وأحيانا كنا نكسر قطع من أقراص الشمع ونضعها في المرطبانات قبل أن نملأها بالعسل. وكنا نحرص كذلك على أن تكون أقراص الشمع جديدة وتخلو من بيض الحاضنة فلا أحد يرغب في أن يجد يرقة نحلة داخل عسله.

وعندما لم نكن نقوم بهذا كله، كنا نملأ قوالب الشمع بشمع النحل أو نغسل المرطبانات إلى أن أصبحت يداي صلبة كقشرة الذرة الصفراء من صابون التنظيف.

وكانت اللحظة الوحيدة التي كنت أخشاها هي وجبة العشاء لأنها كانت تجمعني بحزيران. قد تتوقع أن يكون من يعزفون الموسيقى للأموات لطفاء. ولكن حزيران كانت تمتعض مني بشدة، ولم أستطع فهم سبب ذلك، فأحيانا لم يكن بياض بشرتي وفرضي نفسي عليهن كافيا.

وكانت تسألني كل ليلة ونحن على الطاولة، وكأنها تدربت على تلك الكلمات أمام المرآة، فتقول:

- كيف هي أمورك يا ليلي؟

وكنت أجيبها.

- أموري على ما يرام. وكيف هي أمورك يا حزيران؟

وكانت تنظر عندها لآب التي تكون قد تابعت الحديث وكأنها شديدة الاهتمام به، وترد:

- بخير.

وبعد الانتهاء من تلك المهمة، كنا نحرك مناديلنا ونبذل قصارى جهدنا لتجاهل بعضنا لما تبقى من الوجبة. وكنت أعرف أن آب كانت تحاول تغيير الجفاء الذي كانت تعاملني به حزيران ولكنني كنت أرغب في أن أقول لها:

هل تعتقدين أنني وحزيران بوترايت نهتم بأمور بعضنا حتى؟ فقط تجاهلي الأمر.

وذات ليلة بعد أن تلونا صلواتنا، قالت آب:

- ليلي، إذا كنت ترغبين في لمس قلب سيدتنا ذات الأصفاد، يمكنك فعل ذلك، أليس كذلك يا حزيران؟

ونظرت إلى حزيران وافتعلت هي الابتسام، فقلت:

- قد أفعل ذلك لاحقا.

وما أريد قوله هو أنني لو كنت على سرير الموت في بيت العسل وكان ما سينقذني منه هو أن تغير حزيران مشاعرها تجاهي، لكنت مت وانفلتت روحي وصعدت إلى الجنة بسرعة البرق، أو ربما إلى جهنم. فأنا لم أعد متأكدة من ذلك حتى.

وكانت أفضل وجبة في اليوم هي وجبة الغداء التي كنا نتشاركها أنا وزاك تحت أشجار الصنوبر الجميلة. وكانت أيار تعد لنا سندوتشات النقانق الإيطالية كل يوم تقريبا. وكنا ننتظر كذلك سلطة الشمعدان المكونة من نصف موزة مركوزة على قطعة من الأناناس. وكانت أيار تقول: «دعاني أنير شمعتكما.» فتشعل عود ثقاب افتراضي، ثم

تثبت حبة كرز معلبة فوق الموزة بعود أسنان وكأنني وزاك لا نزال في الحضانة، ولكننا كنا نطاوعها ونتظاهر بأننا متحمسان للأمر. وأما التحلية فكانت مكعبات كول إيد بالليمون الحامض التي سبق وأن جمَّدَتها في صينية التجميد.

وذات يوم، جلسنا على العشب بعد الغداء، وأخذنا في الإنصات للريح وهي تلاعب الشراشف التي كانت روزالين قد نشرتها على الحبل. وسألني زاك:

- ماهي مادتك المفضلة في المدرسة؟

- الإنجليزية.

- أراهن أنك تحبين الإنشاءات.

قال وهو يدير عينيه.

- نعم، بالفعل. لقد كنت أخطط لأن أصبح كاتبة وأن أدْرس اللغة الإنجليزية في وقتي الحر.

- كنت تخططين؟

- لا أعتقد أن لي مستقبلا زاهرا الآن وأنا يتيمة.

وما كنت أقصده هو أنني كنت فتاة هاربة من العدالة. وعلى اعتبار واقع الحال، لم أكن أعرف حتى إن كنت سأعود إلى المدرسة الثانوية.

وتفحص أصابعه. وكنت أشتم رائحة عرقه القوية. وكانت على قميصه بقع من العسل أثارت حشدا من الحشرات وجعلته يضربها دون توقف.

وقال بعد برهة:

- ولا أنا

- ماذا تقصد؟

- لا أعرف إن كان لدي مستقبل زاهر أيضا.

- لماذا؟ أنت لست يتيما.

- ولكنني زنجي.

وشعرت بالإحراج.

- طيب، يمكنك لعب كرة القدم مع فرقة جامعية وأن تصبح لاعبا محترفا فيما بعد.

وقال:

- لماذا يرى البيض أننا لا نستطيع النجاح إلا في الرياضة؟ أنا لا أريد لعب كرة القدم. أنا أريد أن أصبح محاميا.

وأجبته وأنا أشعر بشيء من الانزعاج:

- أنا لا أعترض على ذلك. كل ما في الأمر أنني لم أسمع قط عن محام أسود. عليك أن تسمع بالأشياء قبل أن تستطيع تصورها.

- هذا هراء. عليك أن تتخيل أشياء لم تخرج بعد إلى الوجود.

وأغلقت عيني، وقلت:

- حسنا إذن، أنا أتخيل محاميا أسود. أنت بيري مايسن أسود. ويأتيك الناس من جميع أنحاء الولاية، أشخاص اتهموا ظلما، وأنت تجد الحقيقة في آخر لحظة عن طريق الإيقاع بالمجرم الحقيقي وهو يدلي بشهادته.

وقال:

- نعم، أحطم مؤخراتهم بالحقيقة.

وحين ضحك، كانت مكعبات الليمون الحامض قد جعلت لسانه أخضر كالعشب. وبدأت في مناداته بزاك المحامي محطم المؤخرات.

- انظروا من هنا، إنه زاك، المحامي محطم المؤخرات.

****

عند تلك النقطة بدأت روزالين تسألني عما كنت أحسب أنني أفعله. هل كنت أعرِض نفسي لتتبناني الأخوات الثلاث؟ وقالت إنني كنت أعيش في عالم خيالي. وأصبحت جملة «عالم خيالي» لازمتها المفضلة.

لقد كان ادعاؤنا أننا نعيش حياة عادية بينما نحن مطاردتان ضربا من الخيال، أن نعتقد أننا نستطيع المكوث في ذلك المكان إلى الأبد، وأن أعتقد أنني قد أجد أي شيء يستحق المعرفة عن أمي.

وفي كل مرة كنت أجيبها، **وما الضير في أن نعيش في عالم خيالي؟** وكانت تقول: **عليك أن تستيقظي.**

وذات يوم بعد الظهيرة، عندما كنت وحدي في بيت العسل،

دخلت حزيران بحثا عن آب، أو هذا ما ادعته. وكانت قد شبكت ذراعيها ووضعتهما على صدرها، وقالت:

- حسنا، كم قضيت هنا حتى اللحظة؟ أسبوعين؟

ألم تكن واضحة جدا؟

- أنظري، إذا أردتِ أن نغادر أنا وروزالين، سوف نفعل ذلك. سأراسل عمتي وستبعث لنا المال وسنذهب في الحافلة.

فقطبت حاجبيها وقالت:

- كنت أعتقد أنك لا تتذكرين لقب عمتك، والآن صرت تعرفين اسمها وحتى عنوانها.

- في الواقع، كنت أعرفه طوال الوقت. وكنت فقط آمل في أن أحظى ببعض الوقت قبل أن أغادر.

وبدا وكأن تعابير وجهها أصبحت أكثر لطفا، ولكن قد يكون ذلك ما تمنيته فقط.

- يا إلهي، لماذا تتحدثين عن الرحيل؟

قالت آب وهي تقف عند الباب. ولم تكن أي منا قد انتبهت لوجودها. ورمقت آب حزيران بنظرة قاسية، ثم قالت لي:

- لا أحد يريدكما أن تغادرا إلى أن تكوني على خير ما يرام ومستعدة لذلك.

وأنا أقف إلى جانب مكتب آب، كنت أحرك حزمة من الأوراق. وتنحنحت حزيران ثم قالت:

- حسنا، عليّ العودة إلى تمريني.

ثم انطلقتْ إلى الخارج. ودخلت آب وجلست على كرسي مكتبها، وقالت:

- ليلي، يمكنك التحدث إلي، تعرفين هذا، أليس كذلك؟

وعندما لم أجبها، أخذت يدي وجرتني إليها، وأجلستني على حجرها الذي لم يكن يشبه السرير كحجر روزالين وإنما كان رفيعا وبه زوايا.

ولم أكن أرغب في شيء أكثر من مصارحتها. فقد كنت أرغب في تناول حقيبتي من تحت الفراش وإخراج أشياء أمي منها. وكنت أريد أن أريها صورة مريم السوداء وأقول: **لقد كانت هذه الصورة لدى أمي، إنها نفس الصورة التي تضعينها على مرطبانات العسل. هي نفسها. وعلى ظهرها كتب تيبورون، كارولاينا الجنوبية، ولذلك، لا بد وأنها قد كانت هنا.** وكنت أرغب في أن أمسك صورتها وأسأل آب: هل سبق لك أن رأيتها؟ خذي وقتك الآن وفكري بترو.

ولكني لم أكن قد لمست قلب مريم السوداء بعد، وكنت أخشى كثيرا أن أبوح بكل ما كان في جعبتي قبل أن أفعل ذلك على الأقل. واتكأت على صدر آب متجاهلة رغبتي لشدة خوفي من أن تقول: **لا، أنا لم أر هذه المرأة قط.** وحينها كان سينتهي كل شيء. لقد كان من الأفضل ألا أعرف شيئا.

وتنصلت منها ووقفت على قدمي، وقلت:

- أعتقد أنني سأذهب لمد يد المساعدة في المطبخ.

وعبرت الحديقة دون أن أستدير إلى الخلف.

وعند حلول الليل، عندما أثقل الليلَ غناء الصراصير وشخير روزالين، بكيت بحرقة. ولم أعرف السبب. ربما بسبب كل شيء. فأنا كنت أكره أن أكذب على آب بينما كانت هي تعاملني معاملة جيدة. وربما لأن روزالين كانت على الأرجح على صواب عندما تحدثت عن العالم الخيالي، ولأنني كنت متأكدة من أن مريم العذراء لم تكن هناك في مزرعة الدراق تحل محلي كما فعلت مع الراهبة بياتريز.

****

كان نيل يأتي كل مساء تقريبا ويجلس مع حزيران في غرفة الاستقبال، فيما كنا نشاهد نحن الباقين سلسلة ذا فيوجيتيفز على شاشة التلفاز في غرفة الجلوس. وكانت آب تقول إنها تتمنى أن يجد الهارب الرجل ذي الذراع الواحدة وينتهي كل شيء.

وخلال الاستراحات الإشهارية، كنت أتظاهر أنني أذهب لإحضار الماء، وكنت وعوض ذلك أزحف إلى البهو وأحاول استراق السمع لما كان يقوله كل من حزيران ونيل.

وذات مساء، قال لها نيل:

- أريدك أن تخبريني السبب.

فردت:

- لأنني لا أستطيع.

- هذا ليس مبررا.

- حسنا، إنه مبرري الوحيد.

- أنظري، لن أنتظرك إلى الأبد.

وكنت في انتظار ما ستقوله حزيران عندما اقترب نيل من الباب على حين غرة وفاجأني وأذني ملتصقة بالحائط تسترق السمع لحديثهما الخاص جدا. وبدا لوهلة أنه سيخبر حزيران بأمري ولكنه غادر، وخبط الباب الأمامي خلفه.

وانطلقتُ إلى غرفة الجلوس، ولكن ليس قبل أن أسمع بداية نشيج تعبر حنجرة حزيران.

****

ذات صباح، أرسلتني آب رفقة زاك لإحضار العاسلات الأخيرة التي كان علينا جنيها. وكانت على بعد ستة أميال من المنزل. وقد كان الجو شديد الحرارة والمكان يعج بالبعوض.

وكان زاك يقود شاحنة العسل بأقصى سرعتها، بحوالي ثلاثين ميلا في الساعة. وكانت الريح تضرب شعري وتغرق الشاحنة برائحة العشب حديث الجز.

وكانت جوانب الطريق مغطاة بالقطن الملتقط حديثا، وكان قد

تطاير من الشاحنات التي كانت تنقله إلى محلج تيبورون. وأخبرني زاك أن المزارعين قد زرعوا القطن وحصدوه مبكرا تلك السنة بسبب خنفساء القطن. وكان القطن المنتشر على طول الطريق الرئيسي يبدو كالثلج ويجعلني أتوق لاستمداد بعض البرودة من ندفه.

وانطلقت في حلم يقظة يركن فيه زاك الشاحنة جانبا لأنه لا يستطيع القيادة وسط الثلج، فنبدأ عراكا بكرات الثلج، ونعصف بعضنا البعض بثلج ناعم كالقطن. وتخيلت أننا نبني كهفا ثلجيا وننام بجسدينا متشابكين للحصول على الدفء، وساعدانا وساقانا مجدولان كضفيرتين يختلط فيهما السواد والبياض. وصدمتني الفكرة الأخيرة إلى أن بدأت في الارتعاش. ووضعت يدي تحت إبطي وكان العرق يتصبب مني باردا كالثلج.

وسألني زاك:

- هل أنت بخير؟

- نعم، لماذا؟

- لأنك ترتعدين.

- أنا بخير. يحدث لي ذلك أحيانا.

وأشحت بنظري عنه ورنوت إلى خارج النافذة، ولم يكن بالخارج سوى الحقول وبعض الحظائر القديمة المتهاوية هنا وهناك أو البيوت القديمة الملونة والمهجورة. وقلت بطريقة أوحت بأن الرحلة قد تمططت:

- ألم نصل بعد؟

- هل أنت غاضبة أو شيئا من هذا القبيل؟

ورفضت الإجابة، وحملقت في الزجاج الأمامي بغضب عوضا عن ذلك.

وحين انحرفنا عن الطريق الرئيسي وسلكنا طريقا متهالكة وموحلة، قال زاك إن تلك الأرض في ملكية السيد كلايتون فوريست الذي كان يعرض عسل مادونا السوداء وشمع شمع النحل للبيع في قاعة الانتظار بمكتبه. وكان من بين مهام زاك توصيل شحن جديدة من العسل والشمع للأماكن التي كانت تبيعهما برسم الأمانة.

وقال:

- إن السيد فورست يسمح لي بالتجول في مكتب المحاماة الخاص به.

- هاه...

- ويخبرني عن القضايا التي يفوز بها.

وتعثرنا بحفرة وقفزنا من مقعدينا إلى أن ضربنا رأسينا على سقف الشاحنة وهو ما حول مزاجي فجأة إلى النقيض، فبدأت في الضحك وكأن أحدا كان يمسكني ويدغدغ إبطي، وكان ذلك يزيد كلما ضرب رأسي سقف الشاحنة، إلى أن بدأت في الضحك بهستيرية. لقد كنت أضحك بنفس الطريقة التي كانت أيار تبكي بها.

وفي البداية، كان زاك يتعمد التعثر بالحفر فقط لسماعي ولكنه بدأ يشعر بالتوتر عندما لم أستطع التوقف عن الضحك. وتنحنح وأبطأ سير

الشاحنة إلى أن توقفنا عن التعثر تماما.

وفي الأخير استنفذت الضحك أو شيئا من هذا القبيل. وتذكرت المتعة التي شعرت بها عندما أغمي عليَّ خلال اجتماع بنات مريم وشعرت بالرغبة في أن يحدث ذلك من جديد هنا في الشاحنة. وشعرت بالغيرة من السلاحف التي كان في وسعها الانزواء داخل أصدافها كلما رغبت في ذلك.

وكنت على وعي بتنفس زاك، وصدر قميصه المفتوح، واليد التي كان يضعها على المقود، وصلابتها ولونها الداكن. وبغموض بشرته.

وكان من الحمق الاعتقاد أن بعض الأشياء مستحيلة، كأن ينجذب المرء إلى السود. ولأكون صريحة، أنا لم أكن أعتقد أن ذلك كان ممكنا، تماما كما كان من المستحيل أن يصعد الماء الجبل أو أن يكون مذاق الملح حلوا. وكنت أعتبر ذلك قانونا حتميا. وربما كان الأمر ببساطة أن الأشياء المستحيلة كانت تجذبني، أو ربما انتابتني الرغبة متى شاءت دون اعتبار للقوانين التي نعيش بها ونموت عليها. وقد قال لي زاك من قبل: **عليك تصور أشياء لم تحدث بعد.**

وأوقف زاك شاحنة العسل إلى جانب مجموعة من عشرين قفيرا منزويا بين أكثر الأشجار كثافة، حيث كان النحل يستمتع بظلالها خلال فصل الصيف ويحتمي بها من الريح خلال فصل الشتاء. إن النحل أكثر ضعفا مما قد تخيلته، إذ يهدده السوس والمبيدات الحشرية وسوء الأحوال الجوية.

وخرج زاك من الشاحنة وأخرج منها مجموعة من المعدات: خوذ

وعاسلات إضافية وبراويز جديدة والمدخنة التي ناولني إياها لأشعلها. وخطوت بين نبات الكافور ونبتة الأزالية البرية، وتخطيت تل النمل الناري، وكنت أحرك المدخنة بينما كان هو يزيل أغطية القفران ويلقي نظرة على الداخل بحثا عن البراويز المليئة.

وكان يتحرك كمحب خالص للنحل، ولم أستطع تصديق مدى اللطف وطيبة القلب اللذين كان يتحلى بهما. وكان العسل يتسرب من أحد البراويز بلون البرقوق.

وقلت:

- إنه بنفسجي!

- عندما يصبح الجو حارا وتيبس الزهور، يبدأ النحل في امتصاص ثمار البيلسان، فيصنع عسلا بنفسجي اللون. إن الناس مستعدون لدفع دولارين مقابل مرطبان من العسل البنفسجي.

وغمس زاك أصبعه في قرص الشمع، ثم رفع حجابي واقترب بأصبعه من شفتي. ففتحت فمي ولحست العسل منه. وأفرجت شفاهه عن أكبر ابتسامة ممكنة وانتشر الحر في جسدي. وانحنى إلىّ، وكنت أرغب في أن يرفع حجابي من جديد وأن يقبلني، وكنت أعرف أنه كان يرغب في ذلك أيضا من الطريقة التي كان يحدق بها في عيني. وبقينا كذلك فيما كان النحل يدور حول رأسينا ويصدر صوتا يشبه طشطشة اللحم المقدد، وهو صوت لم أعد أعتبره علامة خطر. الخطر. وأدركت أنني اعتدت على الخطر.

ولكنه عوض أن يقبلني، انتقل إلى الخلية التالية واستأنف عمله. وانطفأت المدخنة، ولحقت به دون أن ينبس أي منا بكلمة. ووضعنا العاسلات المليئة داخل الشاحنة وكأننا ابتلعنا لسانينا، ولم يقل أي منا شيئا إلى أن دخلنا إلى الشاحنة وتجاوزنا شارة حدود المدينة.

تيبورون، ٦٥٠٢ نسمة

مسقط رأس ويليفريد مارشنت

وسألت زاك، وأنا أستميت لتكسير الصمت وإعادة الأمور إلى طبيعتها.

- من هي ويليفريد مارشنت؟

وقال:

- وهل تقصدين أنك لا تعرفين ويليفريد مارشنت؟ إنها مشهورة على المستوى العالمي فقد حصل ثلاثة من كتبها على جائزة البوليتزر للكتب، وكانت تتحدث عن أشجار كارولاينا الجنوبية متساقطة الأوراق.

وضحكت.

- لا، لم تربح تلك الجائزة.

- من الأفضل ألا تتفوهي بذلك، لأن كتب ويليفريد مارشنت تحظى بنفس مكانة الإنجيل في تيبورون. ونحن نحتفل بيوم خاص بويليفريد مارشنت كل عام، وتنظم المدارس مناسبات خاصة بزرع الأشجار. وهي تأتي دائما مرتدية قبعة كبيرة من القش وتحمل سلة من

بتلات الورد وترميها للأطفال.

وقلت:

- لا، إنها لا تفعل ذلك.

- بلى، إن الآنسة ويلي غريبة جدا.

- أعتقد أن الأشجار متساقطة الأوراق موضوع مهم، ولكني شخصيا أفضل الكتابة عن الأشخاص.

وقال:

- آه، هذا صحيح، لقد نسيت. أنت تخططين لأن تصبحي كاتبة. أنت والآنسة ويلي.

- أنت تتصرف وكأنك لا تصدق أن بإمكاني فعل ذلك.

- أنا لم أقل ذلك.

- ولكنك لمحت به.

- ماذا تقولين؟ أنا لم أفعل ذلك؟

وأشحت بنظري إلى خارج النافذة. النزل الماسوني، متجر بيع السيارات المستعملة. متجر فايرستون لإطارات السيارات.

وكبح زاك الفرامل عند إشارة الوقوف المحادية لمقهى ديكسي، وكان بالأساس مقابلا للفناء الأمامي لشركة المواشي تري-كاونتي. وتساءلت كيف كان للناس أن يتناولوا فطورهم أو غداءهم أو عشاءهم بين روائح

البقر حتى وهي تزكم أنوفهم. وكنت أرغب أن أصيح من النافذة:

- تناولوا رقاق فطوركم اللعين في مكان أخر. لماذا لا تفعلون ذلك؟ إن الهواء هنا يعج بالفضلات!

لقد كانت الطريقة التي يعيش بها الناس ورضاهم بالرقاق وفضلات البقر تشعرني بالغثيان. وكان محجر عيني يؤلمني.

وعبر زاك تقاطع الطرق، وكنت أشعر بعينيه وهما يشقان رأسي، وقال:

- هل أنت غاضبة مني؟

وكنت أنوي القول، **نعم، أنا بالتأكيد غاضبة منك، لأنك تعتقد أنني لن أصبح شيئا يذكر في المستقبل.** ولكن ما قلته كان مختلفا، وغبيا بطريقة محرجة.

- لن أرمي بتلات الورد على أحد أبدا.

قلت، ثم انهرت، وبدأت في البكاء بطريقة كانت تشفط الهواء، وفي إصدار أصوات وكأنني كنت أغرق.

وتوقف زاك إلى جانب الطريق، وقال:

- يا إلهي، ماذا يحدث؟ واحتضنني بذراع واحد وجرني إليه.

وكنت أعتقد أنني كنت أبكي مستقبلي الضائع، ذلك المستقبل الذي شجعتني الآنسة هنري على الإيمان به حين كانت تمدني بالكثير من الكتب وقوائم الكتب التي كنت أقرأها خلال عطلة الصيف، والأحاديث المهمة عن منح الدراسة في جامعة كولومبيا، ولكنني عندما

جلست قرب زاك، أدركت أنني كنت أبكي بسبب غمازته التي كنت أحبها، ولأنني كلما نظرت إليه كان يعتريني شعور حار وغريب ينساب من خصري وحتى ركبتي، ولأنني كنت أعيش حياتي كفتاة عادية، ثم بعد ذلك أدركت بأنني مررت عبر غشاء أفضى بي إلى مكان يائس. وأدركت أنني كنت أبكي زاك.

ووضعت رأسي على كتفه وتساءلت كيف كان يستطيع تحملي. ففي صباح واحد، ضحكت بهستيرية، وبينت عن شهوة خفية وسلوك مزعج، ثم بكيت بهستيرية. ولم أكن لأبلي أفضل من ذلك لو أني كنت أريد أن أريه جانبي المظلم.

ولكزني زاك واقترب من شعري وقال:

- سيكون كل شيء على ما يرام. ستصبحين كاتبة جيدة ذات يوم.

ورأيته يسترق النظر إلى الخلف، ثم إلى الطريق، وأضاف:

- والآن، عودي إلى كرسيك وامسحي وجهك.

وسلمني خرقة كانت تنبعث منها رائحة البنزين.

****

عندما وصلنا إلى بيت العسل، لم يكن هناك أحد سوى روزالين، التي كانت تجمع ملابسها لتنتقل إلى غرفة أيار. لقد غبت لساعتين لا أكثر لأجد أن ترتيب حياتنا كلها قد تغير.

وسألتها:

- لماذا ستذهبين للنوم هناك؟

- لأن أيار تشعر بالخوف وحدها ليلا.

وكانت روزالين ستنام على السرير الإضافي هناك، وستضع أشياءها في الدرج السفلي لخزانة ملابس أيار، وستكون أقرب إلى الحمام.

وصحت:

- لا أستطيع أن أصدق أنك ستتركينني لوحدي هنا!

وأخذ زاك العربة اليدوية وجرها بأسرع ما يمكن حتى يستطيع تفريغ العاسلات من شاحنة العسل. وكان قد رأى ما يكفي من المشاعر الأنثوية ذلك الصباح.

- أنا لا أتركك. سأحصل على فراش.

قالت، ووضعت فرشاة أسنانها وعلبة سعوط ريد روز في جيبها.

وشبكت ذراعي فوق قميصي الذي كان لا يزال مبللا بالبكاء، وقلت:

- حسنا اذهبي. لا يهمني ذلك.

- ليلي. إن ذلك السرير يؤذي ظهري. وإذا لم تلاحظي، انظري إلى سيقانه، إنها مقوسة وقد يسقط في أي لحظة. ستكونين بخير من دوني.

وشعرت بضيق في صدري. سأكون بخير من دونها. هل أصابها الحمق؟

- لا أريد أن أستيقظ من العالم الخيالي.

قلت، وانهار صوتي عند وسط الجملة، وتعثرت الكلمات في حلقي.

وجلست على السرير، ذلك السرير الذي أصبحت أمقته بشغف لأنه جعلها تذهب إلى غرفة أيار. وشدتني إليها وقالت:

- أعرف أنك لا تريدين ذلك، ولكنني سأكون معك هنا. قد أذهب للنوم هناك في غرفة أيار ولكنني لن أذهب إلى أي مكان.

وربتت على ركبتي كما كانت تفعل في الأيام الخوالي، ولم تقل أي منا أي شيء. وكنت أشعر وكأننا في سيارة الشرطة وهي تقودنا إلى السجن، وشعرت وكأنني لن أستطيع العيش دون أن تربت عليّ يدها.

****

لحقت بروزالين وهي تحمل أشياءها القليلة إلى المنزل الوردي، وكنت أنوي تفقد غرفتها الجديدة. وصعدنا الأدراج المفضية إلى الشرفة الزجاجية. وكانت آب تجلس هناك على الأرجوحة التي كانت معلقة بسلسلتين إلى السقف. وكانت تتأرجح جيئة وذهابا وتحتسي عصيرها وتقرأ كتابها الجديد الذي حصلت عليه من المكتبة المتنقلة. وأدرت رأسي لقراءة العنون: **جين آير**.

وكانت أيار في الطرف المقابل من الشرفة تمرر الملابس بين البكرات المطاطية لعصارة آلة الغسيل. وكانت آلة ليدي كنمور وردية جديدة، كن يتركنها في الشرفة لأن المطبخ لم يكن يسعها. وكانت المرأة التي تشغل الآلة في دعاية ليدي كنمور ترتدي لباس سهرة ويبدو عليها

الاستمتاع بما كانت تفعله على عكس أيار التي كانت تبدو متعبة وتشعر بالحر. ولكنها ابتسمت عندما أحضرت روزالين أغراضها.

- هل توافقين على انتقال روزالين إلى هنا؟

قالت آب، وهي تضع الكتاب على بطنها. واحتست شرابها ثم مررت يدها على البرودة التي تكونت على الكأس وضغطت براحتها على الجهة الأمامية من عنقها.

- أعتقد ذلك.

وقالت:

- ستنعم أيار بنوم أفضل بوجود روزالين هناك.

- أليس كذلك يا أيار؟

ونظرتُ إلى أيار، ولكن لم يبدو أنها سمعت ما قالته آب من جراء ضوضاء آلة الغسيل.

وفجأة كان آخر ما أريده أن أتبع روزالين وأشاهدها وهي تضع ملابسها داخل خزانة أيار. ونظرت إلى كتاب آب.

- ما موضوع الكتاب؟

سألت وقد اعتقدت أنني كنت أبدأ حديثا عاديا، ولكن لكم كنت مخطئة. فقد أجابتني آب قائلة:

- إنه يتحدث عن فتاة توفيت أمها عندما كانت صغيرة.

وبعد ذلك، نظرت إليَّ بطريقة جعلتني أشعر بانقباض في بطني، بنفس الطريقة التي انقبضت بها عندما حدثتني عن الراهبة بياتريز.

وسألتها محاولة جعل صوتي يبدو متماسكا:

- وماذا حدث للفتاة؟

- لقد بدأت الكتابة للتو. ولكنها إلى حد الساعة تشعر بالضياع والحزن.

واستدرت ونظرت إلى الحديقة حيث كان كل من حزيران نيل يقطفان الطماطم. وحدقت فيهما فيما كان محرك آلة الغسيل يطلق هديرا حادا. وكنت أستطيع سماع الملابس وهي تسقط في الحوض خلف البكرات. **إنها تعرف.** فكرت. **إنها تعرف من أنا.**

ومددت ساعدي وكأنني كنت أدفع حيطان هوائية خيالية، وحين نظرت إلى الأسفل، لمحت ظلي على الأرض، تلك الفتاة النحيفة ذات الشعر الجامح الذي يتجعد كلما لمسته الرطوبة، ذات الذراعين المفتوحين والراحتين المنتصبتين وكأنها تحاول إيقاف السير في كلتا الجهتين. وكنت أرغب في الانحناء وتقبيلها، لأنها كانت تبدو صغيرة وشديدة الإصرار.

وعندما نظرت إلى آب من جديد، كانت لا تزال تحدق في، وكأنها كانت تنتظر أن أقول شيئا ما.

وقلت:

- حسنا، سأذهب لأرى سرير روزالين الجديد.

وتناولت آب كتابها، وانتهى كل شيء. ومرت اللحظة وتلاشى

معها الشعور بأنها كانت تعرف من أكون. وأقصد أن ذلك لم يكن منطقيا، فكيف لآب بوترايت أن تعرف أي شيء عني؟

وفي تلك اللحظة بدأ عراك محتدم بين حزيران ونيل في حديقة الطماطم. فقد صرخت حزيران في وجهه بشيء ما، وفعل هو مثلها.

«آخ،» قالت آب، ووضعت الكتاب جانبا ونهضت.

وصاحت حزيران:

- لماذا لا تدع الأمر وشأنه؟ لماذا تعود إلى نفس النقطة دائما؟ فلتفهم ذلك: لن أتزوج. لا البارحة ولا اليوم ولا في السنة المقبلة!

وقال نيل:

- وما الذي يرعبك؟

- فليكن في علمك، لا شيء يرعبني.

- حسنا، أنت أكثر سافلة أنانية قابلتها في حياتي.

قال واتجه نحو سيارته.

وتمتمت آب:

- يا إلهي.

وقالت حزيران:

- كيف تتجرأ على نعتي بذلك؟ عد إلى هنا، ولا تتركني وأنا أتحدث إليك!

وواصل نيل سيره ولم يلتفت إلى الخلف ولو مرة واحدة.

وانتبهت إلى أن زاك توقف عن شحن العاسلات في العربة اليدوية وبدأ في المتابعة، وكان يهز رأسه وكأنه لا يستطيع أن يصدق أنه كان يتابع مشهدا آخر يظهر فيه الجانب المظلم للناس.

وصاحت حزيران:

- إذا رحلت الآن، فلا تفكر في العودة مجددا.

وامتطى نيل سيارته، وبدأت حزيران فجأة في الركض وبيدها بعض حبات الطماطم. وتراجعت ولوحت بواحدة. ترااااااش! فحطت على الزجاج الأمامي تماما، فيما انتهى المطاف بالحبة الثانية عند مفتاح الباب.

- لا تعد إلى هنا.

صاحت فيما قاد نيل سيارته وغادر مخلفا وراءه آثار عصير الطماطم.

وانهارت أيار على الأرض باكية، وكانت تبدو مجروحة جدا من الداخل، وكنت أكاد أرى بقع حمراء ناعمة تبرز تحت أضلعها. وأخذناها أنا وروزالين إلى الحائط، فكتبت **حزيران ونيل** للمرة الألف على قطعة من الورق وغرزتها بين الأحجار.

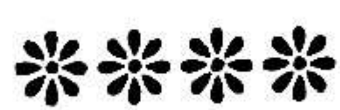
****

قضينا ما تبقى من اليوم في العمل على العاسلات التي كان زاك قد نقلها إلى الداخل. وبدت وهي مكدسة فوق بعضها نسخة مصغرة من الأفق في بيت العسل. وقالت آب إنها كانت تشبه مدينة للنحل.

وقمنا في المجمل بتحميل الفراز اثني عشرة مرة مرورا بجميع المراحل، بدءا من الكشط بالسكين ووصولا إلى الصهريج المنضج. ولم تكن آب تحب ترك عسلها هناك لوقت طويل لأن ذلك يفقده مذاقه. فكان أمامنا يومان للانتهاء من كل شيء. ولم يكن الأمر قابلا للمساومة. وعلى الأقل، لم نضطر لتخزين العسل في غرفة حارة لتفادي تجمده، لأن كل الغرف كانت مغرقة في الحر. وقد بدا أن حر كارولاينا مفيد في شيء ما على الأقل.

وما أن ظننت أننا قد انتهينا من عملنا لذلك اليوم وأنه كان باستطاعتنا تناول وجبة العشاء وتلاوة صلاتنا المسائية بالخرز، حتى بدا أن كل ما قمنا به لم يكن سوى البداية. وطلبت منا آب تحميل العاسلات الفارغة ونقلها إلى الغابة حتى يقوم النحل بتنظيفها تماما. فهي لم تكن تخزن العاسلات لاستعمالها في فصل الشتاء قبل أن يمتص النحل آخر ما تبقي من العسل من الأقراص، ذلك أن بقايا العسل تجذب الصراصير. ولكن في حقيقة الأمر، كنت متأكدة من أنها كانت تحب خلق احتفال لنحلها، ومراقبته وهو ينزل على العاسلات وكأنه اكتشف جنة العسل.

ونحن منهمكون في العمل، كنت أتعجب من ارتباك الناس عندما يتعلق الأمر بالحب. فمن جهتي، كان يبدو أنني أفكر في زاك أربعين دقيقة من كل ساعة رغم أن زاك كان شيئا مستحيلا. وهذا ما كنت أردده لنفسي آلاف المرات: مستحيل. ويمكنني أن أخبرك شيئا عن ذلك: لقد كانت تلك الكلمة قطعة خشب ضخمة تلقى في نار الحب.



انتابني شعور غريب من وجودي لوحدي في بيت العسل تلك الليلة. وكنت أفتقد شخير روزالين بنفس الحدة التي قد تشتاق بها لصوت أمواج المحيط بعد أن تكون قد تعودت النوم على صوتها. ولم أكن أدرك قدر الارتياح الذي كان يبعثه بداخلي. إن للهدوء دندنة غريبة إسفنجية تكاد تخترق طبل الأذن.

ولم أكن أعرف إن كان السبب الذي جعل النوم يجفيني رغم تعبي الشديد هو الفراغ أم الحر الخانق أم كون الساعة لم تكن قد تجاوزت التاسعة مساء. وخلعت الجزء العلوي من ملابسي وملابسي الداخلية واستلقيت على الشراشف الرطبة. وراقني شعور التجرد من ملابسي. فقد كان شعورا ناعما ورطبا، إحساس يشعر بالحرية.

وتخيلت أنني سمعت صوت سيارة تقف عند المدخل. وتخيلت أن ذلك كان زاك، وكانت فكرة تحركه في جوف الليل على مقربة من بيت العسل كفيلة بأن تجعل أنفاسي تتسارع.

ونهضت وتسللت من المساحة المظلمة إلى مرآة الحائط. وكان ضوء لؤلؤي ينساب من النافذة خلفي، فانعكس على جسدي وأضفى عليه هالة، ليس فقط حول رأسي وإنما على كتفي أيضا وأضلعي وفخذي. وكنت آخر شخص يستحق أن تحيط به هالة، ولكنني تفحصت أثرها وأنا أحمل نهدي بين يدي، وحدقت بالحلمات الوردية المائلة إلى البني، وتموجات خصري النحيفة، وكل استدارة ناعمة ومتلألئة. وكانت تلك أول مرة أشعر فيها أنني أكثر من مجرد فتاة رثة الثياب.

وأغلقت عيني، وانفجرت في صدري أخيرا كرة مليئة بالرغبة،

وحين فعلت ذلك، كنت أحلم بزاك في لحظة وفي اللحظة الموالية كنت أتوق لأمي وأتخيلها تنادي اسمي، ليلي، **فتاتي**، **أنت وردتي**.

وعندما استدرت باتجاه النافذة، لم أجد أحدا. ولكني لم أكن أتوقع أصلا أن يكون هناك أحد.

****

بعد يومين، وبعد أن أنهكنا أنفسنا بجمع ما تبقى من العسل، جاءني زاك بأجمل مذكرة، وكان غلافها أخضر وعليه براعم ورود. والتقاني وأنا أغادر بيت العسل، وقال:

- هذه لك، حتى تبدئي كتاباتك.

وفي تلك اللحظة، أدركت أنني لم أكن سأحظى في حياتي كلها بصديق أفضل من زاكاري تايلر. ولففت ذراعي حوله وملت على صدره. فأصدر صوت واااو، ولكنه بعد ثانية لفني بذراعيْه وبقينا كذلك في عناق حقيقي. وحرك يديه على ظهري إلى أن أحسست بأنه يكاد يغمى علي.

وفي الأخير فك ذراعي وقال:

- ليلي، أنت تعجبينني أكثر من أي فتاة عرفتها، ولكن عليك أن تفهمي شيئا، هناك أناس قد يقتلون فتى مثلي لمجرد أنه نظر إليك.

ولم أستطع منع نفسي من لمس وجهه والمكان الذي تبرز فيه غمازته، وقلت:

- أنا آسفة

- نعم، وأنا أيضا.

وفي الأيام الموالية، أصبحت أحمل المذكرة أينما ذهبت، وكنت لا أكف عن الكتابة. فكتبت قصة تفقد فيها روزالين ثمانية وخمسين رطلا وتصبح ممشوقة القوام فلا يتعرف عليها أحد في صف التعرف على المجرمين عند الشرطة. وكتبت قصة أخرى تقود فيها آب عربة عسل متنقلة تشبه المكتبة المتنقلة مع فارق أنها كانت تبيع العسل بدلا من الكتب. وكانت قصتي المفضلة تلك التي كتبتها عن زاك وقد أصبح محاميا مرموقا وله برنامجه التلفزي مثل بيري مايسن. وقرأتها له خلال وجبة الغداء وأصغى إليها أفضل مما يصغي طفل صغير إلى قصة ما قبل النوم. وكان كل ما قاله هو:

- واصلي يا ويليفريد مارشنت.

إن عسل النحل لا يعول فقط على الاتصال الجسدي بمستعمرة النحل، وإنما يحتاج إلى صحبتها ودعمها. فالنحلة التي تُعزَل عن أخواتها ما تلبث أن تموت.

The Queen Must Die: And Other Affairs of Bees and Men

الفصل الثامن

انتزعت آب صفحة شهر تموز من الروزنامة المعلقة على الحائط قرب مكتبها في بيت العسل. وكنت أرغب في تنبيهها أن خمسة أيام كانت تفصلنا عن نهاية الشهر، ولكني أدركت أنها كانت تعرف ذلك. وهي كانت بكل بساطة متشوقة لأن ينتهي تموز ويبدأ آب، شهرها الخاص، مثلما كان حزيران شهر حزيران وأيار شهر أيار.

وكانت آب قد أخبرتني أنه في مرحلة طفولتهن، كانت والدتهن تعفيهن من المهام المنزلية خلال شهرهن الخاص، وتسمح لهن بتناول جميع الأكلات التي يفضلنها حتى وإن كان ذلك سيؤذي أسنانهن، كما كانت تسمح لهن بالنوم بعد ساعة من موعد نومهن المعتاد حتى يتسنى لهن فعل ما يحلو لقلوبهن. وقالت آب إن قلبها كان يهفو لقراءة الكتب، فكانت تقوم طوال الشهر بالجلوس على الكنبة في هدوء غرفة المعيشة بعد أن تخلد أخواتها إلى أسرتهن. وكانت آب تتحدث عن ذلك وكأنه أهم ما حدث عند صغرها.

وبعد أن سمعت ذلك، استغرقت الكثير من الوقت في التفكير في الشهر الذي كنت لأرغب في أن يصبح خاصا بي. واخترت تشرين الأول، فهو شهر ذهبي يكون فيه الجو أفضل من المتوسط. وتخيلت أنني

آكل كعك الشكولاتة ثلاثي الطبقات عند الإفطار لشهر كامل، وأبقى مستيقظة لساعة كاملة بعد موعد النوم وأكتب قصصا وقصائد راقية المستوى.

ونظرت إلى آب التي كانت تقف عند المكتب وهي ممسكة بورقة شهر تموز. وكانت ترتدي فستانا أبيض وشالا أخضر مائلا إلى الصفرة مربوطا إلى حزامها، وهو الزي الذي كان ترتديه يوم وصلنا إلى هناك. ولم يكن للشال أي غرض، اللهم إضفاء شيء من الأناقة على الزي. وكانت تدندن أغنيتهن: **حطوا خلية نحل عند قبري ودعوه يتشرب العسل**. وفكرت في أن أمها كانت جيدة وطيبة ولابد.

- هيا يا ليلي. علينا وضع اللاصقات على كل هذه المرطبانات. وسنقوم بذلك نحن الاثنتان فقط.

وكان زاك سيقوم ذلك اليوم بتوصيل العسل إلى الأماكن التي تبيعه فيها في كل أنحاء البلدة وتسلم المال المجني من مبيعات الشهر الماضي. **مال العسل**، هذا ما كان زاك يطلق عليه. ورغم أن ذروة إنتاج العسل قد مضت إلا أن النحل كان لا يزال هناك يمتص الرحيق ويؤدي مهامه. (ولا أحد يستطيع منع نحلة من العمل مهما حاول ذلك). وأخبرني زاك أن آب كانت تجني خمسينا سنتا مقابل كل رطل من العسل. وفكرت في أنها كانت تغرق في مال العسل ولا بد. ولم أعرف لماذا لم تكن تعيش في قصر وردي رائع في مكان ما.

وفي انتظار أن تفتح آب صندوقا كان يحتوي على آخر شحنة من لاصقات مادونا السوداء، أخذت في تفحص قرص عسل. إن الناس

لا يدركون مدى ذكاء النحل، إنه أذكى من الدلافين نفسها. إن النحل يعرف ما يكفي من الهندسة ليجعله يبني صفا تلو الآخر من خلايا سداسية في غاية الإتقان، بزوايا دقيقة وكأنه يستعمل مسطرة في ذلك. ثم يأخذ رحيقا عاديا ويحوله إلى شيء يحب كل من في العالم سكبه على بسكويته. وأنا شخصيا شاهدت كيف تطلب الأمر خمسة عشر دقيقة لتكتشف حوالي خمسون ألف نحلة العاسلات الفارغة التي وضعتها لها آب في الخارج لتنظيفها، وقد نشرت المعلومة بينها مستعملة نوعا متقدما من لغة النحل. ولكن أهم ما في الأمر هو أن النحل يفني نفسه في العمل حتى أنك ترغب أحيانا في أن تقول له: **مهلا، رويدك، خذ قسطا من الراحة فأنت تستحق ذلك.**

وبينما كانت آب تمد يدها إلى الصندوق لأخذ اللاصقات، كنت أتفحص العنوان المكتوب عليه: متجر هدايا دير العذراء المقدسة، صندوق البريد ٤٥، سانت بول، مينيسوتا. وبعد ذلك، أخرجَت ظرفا مكتنزا من درج المكتب وصبت منه عشرات اللاصقات المختلفة الأصغر حجما كتب عليها: عسل مادونا السوداء، تيبورون، كارولاينا الجنوبية.

وكان يفترض بي أن أمرر إسفنجة مبللة على ظهر اللاصقات ثم أعطيها لآب لتلصقها على المرطبانات، ولكني توقفت لدقيقة لاستيعاب صورة مادونا السوداء التي سبق لي أن درستها آلاف المرات وهي ملصقة على قطعة الخشب التي كانت تمتلكها أمي. وأحببت الشال الذهبي الفاخر الذي كان يلتف حول رأسها وكيف كان مزخرفا بنجوم حمراء. وكانت عيناها غامضة وطيبة، وكان لون بشرتها بنيا داكنا

ومتلألأ، لقد كان أغمق من التوست فكان يبدو وكأنه مدهون بالزبدة. وكانت دائما ما تجعل شيئا يقفز في صدري وتجعلني أفكر في أن أمي كانت تتفحص هذه الصورة نفسها.

وكنت أكره التفكير فيما كنت سأؤول إليه لو أني لم ألمح صورة مادونا السوداء ذلك اليوم في متجر ومطعم يخنة فروغمور؛ ربما كنت سأنام على ضفاف جداول كارولاينا الجنوبية كلها، وأشرب من مياه البرك مع البقر، وأتبول خلف شجيرات الزنزلخت متمنية أن أحظى بفرحة لمس ورق الحمام.

وقلت:

- أتمنى ألا تخطئي فهمي، ولكني لم أتخيل مريم العذراء قط ببشرة سوداء قبل أن أرى هذه الصورة.

فأجابت آب:

- إن صورة مريم العذراء بوجه داكن اللون ليست بالغرابة التي قد تعتقدينها. فهناك المئات منها في أوروبا، في أماكن مثل فرنسا وإسبانيا. والصورة التي نضعها على مرطبانات العسل قديمة جدا، إنها مادونا السوداء سيدة بريزنيتشار، بوهيميا.

- وكيف عرفت بكل ذلك؟

أراحت يديها وابتسمت، وكأن سؤالي قد حرك ذكرى جميلة فقدتها منذ زمن طويل:

- أعتقد أن ذلك بدأ ببطاقات أمي الخاصة بالصلاة، فقد كانت

تجمعها كما كان يفعل جميع الكاثوليكيين الحقيقيين؛ تعرفين تلك البطاقات التي عليها صور القديسين، وكانت تتبادلها مثلما كان الأولاد الصغار يتبادلون بطاقات كرة القاعدة.

وأطلقت آب ضحكة صاخبة، ثم تابعت:

- أنا متأكدة من أنها كانت تمتلك العشرات من صور مادونا السوداء، وأنا كنت أحب اللعب ببطاقاتها وخاصة بطاقة مادونا السوداء. وحين كنت أذهب إلى المدرسة، كنت أقرأ كل ما استطعت قراءته عنها، وهكذا تعرفت على مادونا السوداء سيدة بريزنيتشار، بوهيميا.

وحاولتُ نطق بريزنيتشار ولكن الكلمة استعصت علي، وقلت:

- حسنا، أنا لا أستطيع نطق اسمها ولكني أحب صورتها حقا.

ومررت الإسفنجة على ظهر اللاصقة وتابعت آب وهي تلصقها على المرطبان، ثم تضيف اللاصقة الثانية تحتها وكأنها فعلت ذلك عشرات آلاف المرات.

- وماذا تحبين أيضا يا ليلي؟

وهو سؤال لم يسبق لأحد أن طرحه عليّ. ماذا كنت أحب؟ كنت أود القول على الفور إنني أحب صورة أمي وهي متكئة على السيارة وشعرُها يشبه شعري، وقفازاتها وصورة مريم السوداء التي لم أكن أستطيع نطق اسمها، ولكن كان علي الاحتفاظ بذلك لنفسي، فقلت:

- حسنا، أنا أحب روزالين، وأحب كتابة القصص والقصائد؛ فقط أعطني شيئا لأكتبه وسأفعل ذلك بكل حب.

وتوقفت قليلا بعد ذلك، لأنه كان عليّ التفكير، ثم تابعت:

- حسنا، قد يبدو هذا سخيفا، ولكن بعد الخروج من المدرسة، أحب إضافة الفول السوداني المملح إلى قنينة الكوكا كولا. وحين أنتهي من شربها، أحب قلبها لاكتشاف المكان الذي أتت منه.

وكنت قد وجدت قنينة آتية من ماساشوسيتس ذات يوم، واحتفظت بها تقديرا للمسافة التي يمكن أن يقطعها شيء ما في هذه الحياة.

- وأحب كذلك اللون الأزرق، الفاتح جدا منه، مثل القبعة التي كانت تلبسها أيار خلال اجتماع بنات مريم. ومنذ وصولي إلى هنا، أصبحت أحب النحل والعسل.

ولكم أحببت أن أضيف **وأحبك أنت**، ولكني أحسست بالحرج من ذلك.

وقالت آب:

- هل تعرفين أن هناك اثنين وثلاثين مفردا يعبر عن الحب في إحدى لغات الأسكيمو؟ وليس في الإنجليزية إلا مفرد يتيم، فتجدين نفسك تستخدمين الكلمة نفسها للتعبير عن حبك لروزالين والكولا الممزوجة بالفول السوداني. أليس ذلك مخجلا؟

وحركت رأسي، متسائلة عن حدود معرفة آب. ربما عرفت ذلك من أحد الكتب التي كانت تقرأها قبل أن تخلد إلى النوم خلال شهرها الخاص.

وتابعت:

- أعتقد أن علينا خلق مفردات أكثر للتعبير عن الحب.

وبعد ذلك ابتسمَت وأضافت:

- هل تعلمين أنني أحب إضافة الفول السوداني إلى الكولا أيضا؟ وأن الأزرق هو لوني المفضل؟

هل تعرف المثل القائل إن الطيور على أشكالها تقع؟ هذا ما شعرت به.

وكنا نضع اللاصقات على مرطبانات عسل شجرة الطُّوبال التي كنا أنا وزاك قد جمعناها من أرض كلايتون فوريست وبعض مرطبانات العسل البنفسجي الذي أنتجه النحل الذي تغذى على ثمار البيلسان. وقد نشأ تناسق جميل بين لون بشرة مادونا الآتية من بوهيميا ولون العسل الذهبي. ولكن اللون البنفسجي لم يكن للأسف يضيف إليها شيئا يذكر.

- ولماذا تضعين صورة مادونا على مرطبانات العسل؟

سألت آب، وقد كان ذلك يثير فضولي منذ البداية، فعادة ما يضع الناس صورة الدب التقليدية عليها.

وتوقفت آب عن العمل، وكانت تحمل مرطبانا في يدها وتنظر إلى نقطة بعيدة وكأنها ذهبت في بحث عن الجواب وأن إيجاده كان مكافأة اليوم.

- ليتك رأيت بنات مريم وهن ترين هذه اللاصقة لأول مرة. هل تعرفين لماذا؟ لأنهن حين نظرن إليها، أدركن وللمرة الأولى أنهن يرين شيئا ساميا في لون داكن. إن الجميع بحاجة إلى رب يشبههم يا ليلي.

وتمنيت لو أني كنت حاضرة خلال ذلك الاكتشاف العظيم. وتخيلت بنات مريم وهن يحتفلن بصخب بقبعاتهن الفخمة والريش يتطاير منها.

في بعض الأحيان، كنت أكتشف أنني أهز ساقي بهستيرية، وكانت روزالين تسمي ذلك «الساق القلقة». وحين نظرت إلى الأسفل في تلك اللحظة، انتبهت إلى أن ساقي كانت تنز بأقصى سرعة. وكان ذلك عادة ما يحصل في المساءات التي كنا نتلو فيها صلواتنا أمام سيدتنا ذات الأصفاد، وكأن رجلي كانتا تودان النهوض والطواف حول الغرفة في صف كونغا.

وسألتُ آب:

- وكيف وصل تمثال مريم السوداء إلى غرفة الاستقبال؟

- لا أعرف ذلك بالتحديد، ولكن ما أعرفه هو أنها وصلت إلى عائلتنا في وقت ما. هل تتذكرين عندما أخذ عبوديا التمثال إلى بيت الصلاة واعتقد العبيد أن مريم قد جاءت لمساندتهم؟

وأومأْتُ بالإيجاب. وتذكرت جميع التفاصيل التي حكتها من قبل: عبوديا وهو يجثو على ركبتيه في الوحل وينحني على التمثال المنجرف. ثم التمثال وهو يقف بشموخ في بيت الصلاة. وقبضة سيدتنا المتعالية في الهواء. والناس وهم يتوافدون عليها الواحد تلو الآخر ليلمسوا قلبها آملين في استمداد شيء من الشجاعة منها ليعينهم على الاستمرار.

وقالت آب وهي تواصل وضع لصائقها على المرطبانات:

- حسنا، تعرفين، إنها في واقع الأمر لم تكن سوى تمثال يعلق في مقدمة سفينة، ولكن الناس كانوا في حاجة إلى المواساة والإنقاذ، وعندما نظروا إليها، رأوا فيها مريم، وهكذا سكنتها روح مريم. وفي الحقيقة، روح مريم في كل مكان يا ليلي، في كل مكان؛ داخل الحجر والشجر وحتى الناس، ولكنها أحيانا تتركز في بعض الأماكن وتطل علينا بطريقة خاصة.

ولم يسبق لي أن فكرت في الأمر بتلك الطريقة، ولذلك فقد صدمت، وكأنني ربما لم أكن على وعي بنوع العالم الذي كنت أعيش فيه، أو ربما لم يكن أساتذتي في المدرسة يعرفون ذلك أيضا، فقد كانوا يقولون إن أصل كل شيء هو الكربون والأكسجين والمعادن، وكل الأشياء المضجرة التي يمكنك تخيلها. وبدأت أفكر في أن العالم مليء بمريم مقنعة في كل مكان وقلوب حمراء مختفية يمكن للناس دعكها ولمسها، وكل ما في الأمر هو أننا لم نكن نتعرف عليها.

ورتبت آب المرطبانات التي كانت قد وضعت اللاصقات عليها في صندوق من الورق المقوى ووضعته على الأرض، ثم قربت منها المزيد من المرطبانات، وأضافت:

- ما أحاول شرحه لك هو لماذا اعتنى الناس بسيدتنا ذات الأصفاد، ومرروها من جيل لآخر. وأفضل تخمين هو أنها جاءت لأهل جدتي بعد الحرب الأهلية.

وعندما كنت أصغر منك سنا، كنا أنا وحزيران وأيار وكذلك نيسان، لأنها كانت لا تزال حية عندئذ، نقضي الصيف كله عند جدتنا،

وكنا نجلس جميعا في غرفة المعيشة، وكانت جدتنا تحكي لنا القصة. وفي كل مرة، عندما كانت تنتهي، كانت أيار تقول: «جدتي، احكيها لنا من جديد.» وكان تبدأ من جديد في إعادة القصة كلها. وأقسم لك أنه لو أخذت صماما وأنصت إلى قلبي لكنت سمعت تلك القصة تحكى مرارا وتكرارا بصوت جدتي.

وكنت مشدوهة جدا لما كانت تحكيه آب لدرجة توقفت معها عن تبليل اللاصقات. وكنت أتمنى لو كانت لدي قصة مثل تلك تعيش بداخلي بصخب حتى تستطيع سماعها عن طريق صمام، وليس القصة التي كانت بداخلي عن كيف أنهيت حياة أمي وأنهيت معها حياتي إلى حد.

- يمكنك تبليل اللصائق وأنت تسمعين.

قالت آب وابتسمت.

- وعندما توفيت جدتي، أصبحت سيدتنا ذات الأصفاد ملكا لأمي. وكانت أمي تحتفظ بها في غرفة النوم. وكان أبي يكره وجودها هناك. فكان يريد التخلص من التمثال ولكن أمي كانت تقول إنها ستغادر إن غادر، وأعتقد أن أمي أصبحت كاثوليكية بسبب التمثال، حتى تستطيع الجثو على ركبتها أمامه دون أن تشعر بأنها تفعل شيئا غريبا. وكنا نجدها هناك وهي تتكلم مع سيدتنا وكأنهما جارتان تحتسيان الشاي الحلو المثلج معا. وكانت أمي تستفز سيدتنا قائلة: «هل تعرفين، كان من الأجدر بك أن تلدي فتاة.»

ووضعت آب المرطبان الذي كان بيدها وبدا على وجهها مزيج من

الأسى والمتعة والحنين، وفكرت في أنها كانت تشتاق لأمها.

وتوقفت عن تبليل اللاصقات لأنني لم أكن أرغب في أن أسبقها. وحين حمَلَت المرطبان من جديد، سألتها:

- هل كبرت في هذا المنزل؟

وكنت أود أن أعرف كل شيء عنها.

هزت رأسها وقالت:

- لا، ولكن أمي كبرت فيه، وأنا كنت أقضي فيه فصل الصيف. تعرفين، لقد كان هذا المنزل ملكا لجديَّ مع كل الممتلكات المحيطة به. وكانت جدتي تربي النحل في نفس المكان الذي هو فيه الآن. ولم يكن أحد هنا قد رأى سيدة تربي النحل من قبل إلى أن فعلت هي ذلك. لقد كانت تحب أن تقول للكل إن النساء هم أفضل مربي النحل لأن لهن قدرات خاصة لحب مخلوقات تلسع. وكانت تقول إن ذلك يأتي من سنوات من حب الأطفال والرجال. وضحكت آب وضحكت أنا أيضا.

- وهل تعلمت تربية النحل من جدتك؟

نزعت آب نظارتها ونظفتها بالشال الذي كان على خصرها، وقالت:

- لقد علمتني الكثير عن النحل، أكثر بكثير من مجرد تربيته. لقد كانت تحكي لي حكايات طويلة عن النحل. الواحدة تلو الأخرى.

وابتهجت وقلت:

- احكي لي واحدة.

وضربت آب بأصبعها على جبهتها وكأنها كانت تحاول إخراج إحدى تلك الحكايات المختزنة في رف ما بداخل رأسها، ثم لمعت عيناها وقالت:

- حسنا، قالت لي جدتي إنها ذهبت إلى قفير النحل ليلة عيد الميلاد وسمعت النحل وهو يغني كلمات حكاية الميلاد المذكورة في إنجيل لوقا.

وبدأت آب تغني بطريقة أقرب إلى الدندنة:

- أنجبت مريم ابنها البكر ودثرته بقماط ووضعته في المهد.

وضحكت وسألتها:

- وهل تعتقدين أن ذلك حدث فعلا؟

فأجابت:

- حسنا، نعم ولا. هناك أشياء تحدث بالمعنى الفعلي يا ليلي، وهناك أشياء أخرى تحدث بصورة دلالية، ولكنها تحدث. هل تفهمين ما أقصده؟

ولم أكن أفهم شيئا، فقلت:

- لا، أنا لم أفهم حقا.

- ما أقصده هو أن النحل لم يكن حقا يغني كلمات إنجيل لوقا، ولكن، إن كانت لك الآذان المناسبة، يمكنك الإنصات إلى قفير نحل وسماع قصة الميلاد في مكان ما بداخلك. ويمكنك سماع أشياء صامتة

في الضفة المقابلة لحياتنا اليومية، أشياء لا يستطيع أحد آخر سماعها. وجدتي كانت تمتلك ذلك النوع من الآذان. وأمي لم تكن كذلك. لم تكن لها تلك الملكة، وأعتقد أنها قد تخطت جيلا.

وكنت متشوقة لمعرفة المزيد عن أمها، فقلت:

- أراهن على أن والدتك كانت تربي النحل.

وبدت متفاجئة من ذلك.

- يا إلهي، لا، لم تكن مهتمة بذلك على الإطلاق. لقد غادرتِ هذا المنزل بمجرد أن سنحت لها الفرصة بذلك وانتقلت للعيش مع قريبة لها في ريتشموند. وهناك وجدت عملا في التنظيف في أحد الفنادق؛ لقد قلت لك يوم وصولك إلى هنا إنني ترعرعت في ريتشموند، هل تتذكرين ذلك؟ حسنا، والدي كان ينحدر من هناك. وكان أول طبيب أسنان أسود في ريتشموند. وقد التقى بوالدتي عندما ذهبت إليه لمعالجة أسنانها.

وجلست هناك لدقيقة وفكرت في غرابة سبل الحياة، فلو لم تشعر والدة آب بألم الأسنان ذاك، لما كانت آب ولا أيار أو حزيران أو عسل مادونا السوداء، ولما كنت جالسة هناك أتحدث إلى آب.

وقالت آب:

- كنت أحب ريتشموند ولكن قلبي كان معلقا بهذا المكان طوال الوقت. وكنت أنتظر قضاء فصل الصيف هنا بفارغ الصبر. وعندما توفيت جدتي، تركت كل هذه الممتلكات لي أنا وحزيران وأيار. وقد أمضيت ثمانية عشر عاما هنا في تربية النحل.

ولمعت أشعة الشمس على نافذة بيت العسل، وكانت تومض بين الحين والآخر بمرور السحب. وجلسنا في الصمت المصْفَر لوهلة واشتغلنا دون أن نتكلم. وكنت أخشى أن تتعبها أسئلتي، إلا أنني ما لبثت أن سألتها في الأخير:

- وماذا كنت تفعلين في فرجينيا قبل أن تأتي إلى هنا؟

ورمقتني بنظرة مازحة بدا وكأنها تقول، **يا إلهي، يبدو أنك ترغبين في معرفة الكثير من الأشياء**، ولكنها بدأت في الإجابة وهي تشتغل على وضع اللصائق على المرطبانات دون إبطاء.

- لقد درست في جامعة المدرسين السود في ميريلاند، وكذلك فعلت حزيران، إلا أن الحصول على عمل لم يكن بالأمر الهين لمحدودية الأماكن التي كان بإمكان السود التدريس فيها. وفي الأخير اشتغلت مدبرة منزل لتسع سنوات، ثم عملت في تدريس التاريخ لست سنوات إلى أن انتقلت إلى هنا.

- وماذا عن حزيران؟

ضحكَت وأجابت:

- حزيران... ما كانت لتعمل عند البيض. ولذلك فقد اشتغلت في منزل لتنظيم جنائز السود، فكانت تُلبِس الموتى وتصفف شعورهم.

وبدا ذلك العمل مناسبا لها تماما، فمن السهل عليها الانسجام مع الموتى.

- قالت أيار إن حزيران كانت على وشك الزواج ذات مرة.

- هذا صحيح. قبل عشر سنوات تقريبا.

- كنت أتساءل...

وتوقفت بحثا عن طريقة مناسبة لطرح السؤال.

- كنت تتساءلين إن كنت قد أوشكت على الزواج في وقت ما.

- نعم، أعتقد ذلك.

- لقد قررت ألا أتزوج بالمرة فقد كان في حياتي ما يكفي من القيود دون أن يكون هناك شخص آخر ينتظر مني خدمته ليل نهار. أنا لست ضد الزواج بالمطلق يا ليلي، ولكنني ضد الطريقة التي يقوم عليها.

وفكرت في أن تلك الطريقة لم تكن حكرا على الزواج، فماذا عن خدمتي لتي-ري ليل نهار، ولم نكن سوى أب وابنته؟ صبي لي بعض الشاي يا ليلي. لمعي حذائي يا ليلي. أحضري لي مفاتيح الشاحنة يا ليلي. وتمنيت بصدق ألا يكون الزواج بنفس الصورة.

وسألتها:

- وهل أحببت أحدا من قبل؟

- أن تحبي أحدا ما وأن تتزوجي أمران مختلفان. أنا طبعا أحببت، فمن ذا الذي يعيش دون أن يحب؟

- ولكنك لم تحبيه بما يكفي لتتزوجيه؟

ابتسمت لي، ثم قالت:

- لقد أحببته بما يكفي، ولكن حبي لحريتي كان أكبر.

ووضعنا اللاصقات إلى أن نفذت كل المرطبانات. وعندها، قمت، ولمجرد التسلية، بتبليل ظهر لصيقة ووضعتها على قميصي في الحيز الذي يفصل بين نهدي.

ونظرت آب إلى الساعة وقالت إننا قمنا بعمل جيد وإن لدينا ساعة قبل موعد الغداء. وهتفت:

- هيا، لنذهب في دورية للنحل.

****

رغم أنني رافقت زاك من قبل في دورية للنحل، إلا أنني لم أكن قد عدت مع آب إلى قفران النحل منذ المرة الأولى. ولبست سروال قطنيا طويلا كان في السابق قميصا أبيض لحزيران وآب وكانت أكمامه طويلة جدا. ثم وضعت خوذة الغابة على رأسي وتركت الحجاب يسقط على وجهي.

ومشينا إلى الغابة القريبة من المنزل الوردي وصدى حكايات آب يطوف حول أكتافنا. وكنت أشعر به وهو يلمسني وكأنه وشاح حقيقي.

وقلت:

- هناك شيء لا أفهمه.

- وما هو؟

- إذا كان لونك المفضل هو الأزرق، فلماذا طليت المنزل بهذا اللون الوردي؟

وضحكت، وقالت:

- لقد كانت تلك فعلة أيار، وكانت قد رافقتني إلى المتجر لاختيار لون الطلاء. وكنت أنوي اختيار لون بني فاتح ولكنها تعلقت بنموذج لون سُميّ الوردي الكاريبي. وقالت إنه يجعلها ترغب في رقص رقصة الفلامينكو الإسبانية، وفكرت: حسنا، إنه أكثر الألوان التي رأيتها في حياتي ابتذالا، وأعرف أن نصف البلدة سيتحدث عنا، ولكن إذا كان هذا اللون يسعد قلب أيار إلى هذه الدرجة فلتعش بداخله إذن.

- لقد اعتقدت طوال هذه المدة أنك تحبين اللون الوردي.

وضحكت من جديد.

- تعرفين، إن بعض الأشياء ليست ذات أهمية كبرى، يا ليلي، كلون طلاء المنزل. فما حجم ذلك أمام الحياة ككل؟ ولكن إدخال السرور على قلب شخص ما، ذلك ما يهم. إن مشكلة الناس هي...

- أنهم لا يفرقون بين ما هو مهم وما هو غير مهم.

أتممت جملة آب وأنا أشعر بالفخر إزاء ذلك.

- كنت سأقول إن المشكلة أنهم يعرفون الأشياء المهمة ولكنهم لا يختارونها. هل تعرفين كم كان ذلك صعبا يا ليلي؟ أنا أحب أيار، ولكن كان من الصعب عليَّ اختيار اللون الوردي الكاريبي. إن أصعب شيء في البسيطة هو اختار الأشياء المهمة حقا.

ولم تكن في الأفق أي نحلة شاردة. وكانت القفران تبدو كمنطقة مهجورة، وكان القيظ يعكر صفو الهواء، فتخال أن النحل في قيلولة

طويلة بالداخل، لربما أحس بالتعب أخيرا بعد كل ما أنجزه من عمل.

وسألت آب:

- أين هو؟

ووضعت آب أصبعها على شفتيها مشيرة إليَّ بالصمت. ورفعت خوذتها ووضعت جانب وجهها على الجزء العلوي من صندوق النحل، ووشوشت لي:

- تعالي وأنصتي.

ونزعت قبعتي ووضعتها تحت ذراعي ثم اقتربت بوجهي من وجهها حتى التصق أنفانا.

- هل تسمعين ذلك؟

وانطلق صوت ما. دندنة مثالية، حادة وضخمة، وكأن شخصا ما قد وضع إبريقا على النار وبدأ الإبريق في الغليان.

- إنه يقوم بتبريد القفير. هذا صوت مئة ألف جناح يحرك الهواء.

قالت، وانتشر نفَسُها على وجهي برائحة النعناع.

وأغمضت عينيها بالطريقة التي قد تتخيل أن يفعلها أحد ما في حفل أوركسترا فاخر وهو يستلذ بالموسيقى الرفيعة. وآمل ألا أبدو متخلفة جدا إن قلت إنني شعرت بأني لم أسمع قط أي شيء من قبل على قارئ الشرائط بذلك المستوى. ويجب أن تسمعه بنفسك لتصدق حدته المثالية وتناسقه وكيف كان الصوت يرتفع وينخفض. لقد كانت

أذنانا ملتصقتين بصندوق موسيقى ضخم.

وبدأ ذلك الجزء من وجهي كله في الاهتزاز وكأن الموسيقى تسربت إلى مسامي. وكنت أستطيع رؤية جلد آب وهو يتذبذب بهدوء. وحين وقفنا من جديد، كنت أشعر برغبة في حك وجنتي.

وقالت آب:

- إن ما سمعته هو مكيف هواء النحل. إن معظم الناس لا يعرفون شيئا عن الحياة المعقدة داخل قفير النحل. إن للنحل حياة سرية لا نعلم عنها شيئا.

وأحببت فكرة أن تكون للنحل حياة سرية، مثل تلك التي كنت أعيشها.

- وما هي أسرار النحل الأخرى؟

سألت وبي رغبة في معرفة الجواب.

- حسنا، لكل نحلة دور تؤديه.

وشرحت لي آب كل شيء. بناة القفير هو النحل الذي يبني قرص النحل. وقلت لها إن الطريقة التي يبني بها بناة القفير أشكال سداسية دقيقة توحي بأنهم المتفوقون في الرياضيات، فابتسمت لي وقالت إنهم كذلك.

وهناك أيضا نحل الحقول وهو النحل الذي يتمتع بمهارات جيدة في الملاحة وقلوب لا تكل، ومهمته هي جمع الرحيق واللقاح. وهناك مجموعة تسمى النحل الجنائزي وله مهمة تثير الشفقة وهي أن يخرج النحل الميت من الخلية ويحافظ على نظافتها. وقالت آب إن النحل المربي هو الذي له

موهبة التربية ويقوم بإطعام صغار النحل. وهي على الأرجح مجموعة توثر على نفسها، مثل أولئك النساء اللواتي تقلن في المناسبات الاجتماعية للكنيسة: لا، خذي أنت صدر الدجاج. سأكتفي بالعنق والقانصة حقا. والذكور الوحيدون هناك هم اليعاسيب ويبقون هناك للتزاوج مع الملكة.

وأضافت آب:

- وهناك بالطبع الملكة وخادماتها.

- لديها خادمات؟

- بالتأكيد، لها خادمات يخدمنها ويطعمنها ويحممنها ويدفئنها أو يرطبن الهواء، حسب ما يحلو لها. وترينهم دائما حولها، يكثرن من الاهتمام بها. وقد رأيتهن يربتن عليها أيضا!

وارتدت آب خوذتها من جديد، وقالت:

- أعتقد أن كل ما كنت لأريده أيضا هو الاسترخاء إن لم أكن أفعل شيئا سوى إنتاج البيض على مدار الساعة وفي كل الأوقات.

- هذا كل ما تفعله؟ إنتاج البيض؟

ولم أكن متأكدة مما كنت أتوقعه... ولم أكن أتوقع أن تلبس تاجا وتجلس على العرش وتعطي أوامر ملكية.

- التبييض هو مهمتها الأساسية، وهم جميعا يعولون عليه للاستمرار. ومهما كانت مهمتهن، فهن يعرفن أن الملكة هي أمهم. إنها أم الآلاف.

أم للآلاف.

ووضعت خوذتي عندما رفعت آب الغطاء. وجعلتني الطريقة التي تدفق بها النحل إلى الخارج فجأة في دوامة من الفوضى والضجيج أقفز من مكاني.

وقالت لي آب:

- لا تتحركي بتاتا. وتذكري ما قلته لك من قبل. لا تخافي.

وطارت نحلة إلى جبهتي مباشرة، واصطدمت بالشبكة ثم ارتطمت بجلدي.

وقالت آب:

- إنها تعطيك إنذارا صغيرا. حين يرتطم النحل بجبهتك فهو يقول لك **احذري... أنا أراقبك**. اغمريه بالحب وسيكون كل شيء بخير.

أنا أحبك. أنا أحبك. رددت بداخلي. **أنا أحبك**، وحاولت أن أقولها بشتى الطرق الممكنة.

وأخرجت آب البراويز دون أن تلبس قفازاتها حتى. وبينما هي منهمكة في العمل، كان النحل يحوم حولها ويستجمع قوّته إلى أن أصبح يصدر ريحا ناعمة تهب على وجوهنا. وذكرني ذلك بالطريقة التي كان النحل يخرج بها من جدران غرفة نومي ويجعلني مركز الدوامة التي يصنعها.

وتابعت الظلال المختلفة على الأرض. قِمع النحل. وكنت لا أزال متسمرة في مكاني. وانحنت آب على القفير وأخذت في تفقد الإطارات

والبحث عن تراكمات الشمع في الأقراص وشكل نصف القمر الذي تتخذه خوذتها يتحرك معها.

وبدأ النحل يحط على كتفي كما تجلس الطيور على أسلاك الهاتف. وجلس على طول ذراعي وتناثر على الحجاب فكنت أكاد لا أرى شيئا من خلاله. **أنا أحبك. أنا أحبك**. وغطى النحل جسدي وحزام سروالي.

وتسارعت أنفاسي والتف شيء ما بصدري وبدأ في الضغط عليه أكثر فأكثر، إلى أن شعرت بالارتخاء فجأة، وكأن أحدا قد انتشلني من هلعي. فأصبحت هادئة على غير العادة، وكأن جزءا مني قد انفصل عن جسدي وانطلق عاليا ليجلس على غصن شجرة ويتابع الحفل على مسافة من الأمان. فيما كان الجزء الآخر مني يرقص مع النحل. ورغم أنني لم أتحرك قيد أنملة فإن دماغي كان يدور في الهواء مع النحل. وكنت قد التحقت بصف الكونغا الخاص به.

ونسيت أين كنت بشكل ما. وأغلقت عيني ورفعت ذراعي ببطء وحركتها عبر النحل إلى أن وقفت أخيرا وذراعي مفتوحتان في مكان خيالي لم أصله قط. وملت برأسي إلى الخلف وفمي مفتوح. لقد كنت أطفو في مكان ما، في مكان لم تحتك به الحياة كثيرا. وكأنني مضغت لحاء شجرة الفاغرة وجعلني أشعر بالغثيان.

وفي أوج ضياعي في النحل، شعرت بأنني أُنزِلت وسط حقل من البرسيم المسحور جعلني محصنة من كل شيء، وكأن آب غمرتني بمدخنة النحل وهدأتني إلى درجة لم أكن أستطيع معها إلا رفع ذراعي والترنح جيئة وذهابا.

وفجأة ودون سابق إنذار، تلاشت الحصانة كلها وشعرت بالألم ينبعث في المسافة الجوفاء بين سرتي وعظام صدري. ذلك المكان يتيم الأم. وكنت أستطيع رؤية أمي في الخزانة، والنافذة المستعصية على الفتح، والحقيبة الموضوعة على الأرض. وسمعت الصراخ ثم الانفجار. وكدت أنحني. وأنزلت ذراعي دون أن أفتح عيني. كيف يمكنني مواصلة حياتي كلها وأنا أعرف تلك الأشياء؟ وما الذي أستطيع فعله لأستطيع النسيان؟ ولماذا لم يكن بإمكاننا الرجوع إلى الوراء وإصلاح ما أفسدناه؟

وبعد ذلك، تذكرت الأوبئة التي أرسلها الرب في بداية المشوار، تلك التي صممت لجعل الفرعون يغير رأيه ويترك موسى يأخذ شعبه خارج مصر. **اترك شعبي**، قال موسى. وسبق وأن رأيت وباء الجراد في الأفلام، والسماء المليئة بأسراب من الحشرات التي تبدو كطائرات الكاميكاز. وفي غرفتي في مزرعة الدراق، حين أتى النحل لأول مرة خلال الليل، تخيلت أنه أرسل كعقوبة خاصة لتي-ري، ليقول له الرب، **اترك ليلي تذهب وشأنها**، وربما كان كذلك، عقوبة تخلصني مما كنت فيه.

ولكن وأنا محاطة بالنحل اللاسع من كل الجوانب في تلك اللحظة وذلك المكان يتيم الأم يتلاشى، أدركت أن ذلك النحل لم يكن عقوبة بالمرة، وشعرت كما لو أن خادمات الملكة خرجن إلى هناك في حالة جنونية من الحب وأخذن في التربيت عليّ في آلاف الأماكن. **انظر من هنا، إنها ليلي. إنها جد متعبة وضائعة. تعالي، أيتها النحلات الأخوات.** وكنت مدقا وسط وردة ملتفة. والمركز الذي تنصب عليه مواساتهن.

- ليلي... ليلي.

وانطلق اسمي من المسافات الزرقاء بعيدا.

- ليلي!

وفتحت عيني. وكانت آب تحملق فيَّ من خلال نظارتها. وكان النحل قد حرك غبار اللقاح بأرجله وبدأ بالعودة إلى القفير. وكنت أستطيع رؤية حبوب صغيرة منه تتطاير في الهواء.

وسألت آب:

- هل أنت بخير؟

وأومأت برأسي. هل كنت بخير؟ لم تكن لدي أي فكرة.

- تعرفين أن علينا التحدث مطولا نحن الاثنتان، أليس كذلك؟ وسيكون الحديث هذه المرة عنك، لا عني.

وتمنيت لو أنني كنت أستطيع فعل ما يفعله النحل، والارتطام بجبهتها لإنذارها، أو أن أقرع جبهتها بأصبعي. أنا أراقبك، حذار، لا تتقدمي أكثر. ولكني أجبتها:

- أعتقد ذلك.

- وماذا عن فعل ذلك الآن؟

- ليس الآن.

- ولكن يا ليلي...

- أنا أتضور جوعا. وأعتقد أنني سأعود إلى المنزل لأرى إذا كان

الغداء جاهزا.

ولم أنتظر إجابتها. وأنا أمشي باتجاه المنزل الوردي، كنت أرى خط النهاية تقريبا. ووضعت يدي على المكان الذي ألصقت عليه مريم السوداء على قميصي. وكانت قد اقتلعت قليلا من مكانها.

****

كان المكان يعبق برائحة البامية المقلية. وكانت روزالين منهمكة في إعداد الطاولة في المطبخ في حين كانت أيار ملطخة بالشحم ومنشغلة في تحضير حبوب القمح الذهبية. ولم أعرف ما كانت مناسبة إعداد البامية عوض سندويتشات النقانق الإيطالية التي كنا نأكلها طوال الوقت.

ولم تكن أيار قد دخلت في نوبة بكاء منذ نوبة رمي الطماطم التي مرت بها حزيران، وكنا جميعا نحبس أنفاسنا تحسبا لحدوث شيء ما. وبعد كل ذلك الوقت، كنت أخشى أن يدفع بها حادث صغير كاحتراق البامية إلى الانهيار.

وقلت إنني كنت جائعة، فقالت روزالين إن عليَّ الانتظار. وكانت شفتها السفلى ناتئة بسعوط ريد روز ورائحته تتجول معها في المطبخ، وكانت تشبه مزيجا من جميع التوابل والأرض الطرية والأوراق المتعفنة. وتعسر عليَّ التنفس من جراء رائحة البامية والسعوط. وقطعت روزالين الفناء الخلفي واتكأت على الباب وانطلقت من فمها موجة صغيرة تناثرت على النبات المزهر.

ولم يكن أحد ليبصق كما تفعل روزالين. وكنت أتخيلها تربح

مئات الدولارات في مسابقة للبصق فنذهب معا إلى فندق في أطلنطا ونطلب خدمة الغرف بالمال الذي فازت به. وقد كان المكوث في فندق من إحدى الأماني الغالية على قلبي، ومع ذلك، لو أني خيرت في تلك اللحظة بين فندق فخم بحمام سباحة ساخن وتلفاز في الغرفة والمنزلِ الوردي لكنت رفضت الفندق دون تفكير.

ومع ذلك، كانت يحدث أحيانا، بعد أن أستيقظ من النوم، أن أفكر في منزلي القديم وأشتاق له للحظة أو اثنتين، ولكني ما ألبث أن أتذكر ركبتي وهما تجثوان على الدقاق فوق أرضية المطبخ أو محاولاتي الفاشلة في تحاشي مزاج تي-ري العكر. وكنت أتذكره وهو ينتقدني ويصرخ بإحدى شتائمه. وكانت أسوء صفعة أتلقاها على وجهي حين قاطعته وسألته عن معنى تلك الشتيمة في كل الأحوال. وكانت جولة واحدة في ممر ذكرياتي كافية بإنهاء اشتياقي إلى منزلي القديم. وكنت لأختار المنزل الوردي في أي وقت.

دخل زاك خلف آب إلى المطبخ.

- يا إلهي، البامية وقطع لحم الخنزير في الغداء، ما المناسبة؟

قالت آب موجهة السؤال لأيار.

وانسلت أيار إلى جانبها وقالت بصوت خافت:

- لقد مرت خمسة أيام دون أن أذهب إلى الحائط.

وكان من الواضح كم كانت فخورة بذلك وكيف كانت تود أن تصدق أنها خلفت بكاءها الهستيري وراءها، وكيف أن وجبة البامية كانت احتفالا بذلك.

ابتسمت لها آب، وقالت:

- خمسة أيام، هل أنت جادة؟ حسنا، إن ذلك يستحق إقامة وليمة.

وابتسمت أيار وقد بدا عليها الابتهاج.

وانغمس زاك في كرسي، فسألته آب:

- هل انتهيت من توصيل العسل؟

- لقد أوصلته إلى كل مكان ما عدا مكتب السيد كلايتون للمحاماة.

قال، وهو يسترق النظر إلى كل ما حوله، بدءا بفرش الأطباق، ووصولا إلى خيط ناتئ من قميصه، وكأنه كان يتحرق لقول شيء ما.

ونظرت إليه آب، وسألته:

- وماذا يدور في بالك؟

- لن تصدقي ما يقوله الناس في البلدة. إنهم يقولون إن جاك بالانس سيأتي إلى تيبورون عند نهاية الأسبوع ومعه امرأة سوداء.

وتوقفنا جميعا عما كنا نفعله ونظرنا إلى بعضنا البعض.

- ومن هو جاك بالانس؟

سألت روزالين. ورغم أننا لم نكن قد بدأنا تناول غدائنا بعد، كانت هي قد قضمت قطعة من اللحم وأخذت في المضغ والتكلم بفم مفتوح. وحاولت لفت انتباهها مشيرة إلى فمي المغلق آملة في أن تفهم الرسالة.

- إنه نجم سينما.

أجابها زاك. ونخرت حزيران أنفها، وقالت:

- حسنا، يا للغباء. وما الذي سيفعله نجم سينمائي في تيبورون؟

وهز زاك كتفه.

- إنهم يقولون إن أخته تعيش هنا وأنه سيأتي لزيارتها وينوي اصطحاب امرأة سوداء معه إلى السينما يوم الجمعة؛ ليس إلى الشرفة وإنما إلى الجهة السفلية الخاصة بالبيض.

واستدارت آب نحو أيار، وقالت لها:

- لماذا لا تذهبين إلى الحديقة وتأتين ببعض الطماطم الطازجة لنضعها مع غدائنا؟

ثم انتظرت إلى أن خرجت أيار. وكان يبدو أنها كانت تخشى من أن تفسد محاولة جاك بالانس تطبيق المساواة في قاعة السينما وليمة البامية التي أعدتها أيار. ثم سألت زاك وقد بدت عليها الجدية:

- وهل أثار ذلك الضجة بين الناس؟

- نعم سيدتي. لقد كان بعض الرجال البيض في محل غاريت هاردوير يتحدثون عن الوقوف خارج قاعة السينما لحمايتها.

- يا إلهي، ها قد بدأنا.

قالت روزالين.

وتأففت حزيران فيما هزت روزالين رأسها، وخطر لي لأول مرة في

حياتي أن الناس يولون أهمية كبرى للون البشرة، وأنه أصبح في الفترة الأخيرة هو الشمس وأصبحت كل ما في الوجود يدور حوله. ومنذ بداية العطلة الصيفية، أصبحت كل تفاصيل حياتنا اليومية مرتبطة بلون البشرة. وهو ما كان يشعرني بالغثيان.

وفي سيلفان، كانت قد تفشت شائعة عند بداية الصيف حول قدوم حافلة من الناس من نيويورك لتطبيق المساواة في مسبح المدينة. ويا للذعر. لقد حدثت حالة طوارئ في البلدة حيث لم يكن ليُفجع الفكر الجنوبي شيء أكثر من أن يأتي الشماليون لتقويم طريقة عيشنا. وبعد ذلك، حادثة محطة إيسو. وبدا لي أنه كان من الأفضل لو ألغي لون البشرة من الوجود.

وحين عادت أيار إلى المطبخ، قالت آب:

- فلنستمتع بوجبتنا.

وهو ما كان يعني أن نتوقف عن الحديث عن جاك بالانس خلال وجبة الغداء.

وغسلت أيار ثلاث حبات كبيرة من الطماطم، وفيما كانت هي وروزالين تقاطعانها، ذهبت آب إلى غرفة الجلوس ووضعت شريطا لنات كينغ كول في مشغل الأقراص، وهي آلة قديمة جدا لدرجة أن التسجيلات لم تكن تتغير بطريقة تلقائية حتى. وكانت آب تعشق نات كينغ كول، وعندما عادت، كان الصوت عاليا وكان على وجهها نفس التعبير الذي يبدو على وجوه الناس حين يتذوقون شيئا لذيذا جدا فيبدو الأمر وكأنهم يتألمون من ذلك. ورفعت حزيران أنفها، ولم تكن تهتم إلا

بيتهوفن ومن يشبهونه. فذهبت وخفضت الصوت قائلة:

- لا أستطيع التفكير.

فأجابت آب:

- هل تعرفين السبب؟ إنك تفكرين أكثر مما ينبغي. وسيكون من الأفضل لك حقا أن تتوقفي عن التفكير وأن تنصتي لمشاعرك ذات مرة.

وقالت حزيران إنها ستتناول الغداء في غرفتها. **شكرا.**

وأعتقد أن ذلك كان جيدا، لأنني كنت أتابع أيار وروزالين وهما تقطعان الطماطم إلى شرائح وأردد بداخلي العبارة التي كنت سأقولها لها: **هل تريدين بعضا من الطماطم يا حزيران؟ ألا تحبين الطماطم؟** ولكن انسحابها من الطاولة أعفاني من تلك المهمة على الأقل.

وأكلنا إلى أن تعبنا من الأكل، وكانت تلك هي الطريقة التي يأكل بها الناس في كارولاينا الجنوبية خلال الاجتماعات العائلية. ونهض زاك عن الطاولة وقال إنه سيتوجه إلى مكتب كلايتون فوريست ليترك بعض مرطبانات العسل هناك، فسألت:

- هل أستطيع مرافقته؟

وأسقطت آب كأس شايها الحلو، ولم يكن من عادتها فعل ذلك. ولم تكن لترتبط إسقاط الأشياء بآب. قد ترتبط الأمر بأيار ولكن ليس بآب. واندلق الشاي على الطاولة ثم على الأرض. واعتقدت أن ذلك سيفسد مزاج أيار، مأساة اندلاق المشروب، ولكنها لم تفعل سوى النهوض ودندنة «آه يا سوزانا» دون أهمية تذكر، ثم أحضرت فوطة.

وقالت آب:

- لا أعرف يا ليلي.

- من فضلك.

وكان كل ما كنت أرغب فيه هو قضاء بعض الوقت مع زاك وأن أوسع حدود عالمي بزيارة مكتب محام حقيقي. وقالت:

- حسنا، يمكنك ذلك.

****

كان المكتب يقع على مبعدة مربع سكني واحد من الشارع الرئيسي حيث جبت البلدة أنا وروزالين يوم الأحد قبل أكثر من ثلاثة أسابيع. ولم يكن المكتب يوافق تصوري عن مكتب محام، فقد كان في مجمله بيتا فسيحا جدا، وكان أبيض بنوافذ سوداء وشرفة منحنية الأطراف بها كراسي هزازة كانت موضوعة ولابد ليهوي عليها الناس بعد أن يشعروا بالارتياح بفوزهم بقضاياهم. وكانت في حديقة المكتب لافتة كتب عليها: مكتب كلايتون فوريست للمحاماة.

وكانت مساعدته سيدة بيضاء تبدو في الثمانين من عمرها، وكانت تجلس على مكتب في قاعة الاستقبال وتضع على شفتيها أحمر شفاه قان. وكان شعرها مجعدا وبه ظلال زرقاء فاتحة.

وقال زاك:

- مرحبا آنسة لايسي. لقد أحضرت المزيد من العسل.

وأدخلت أحمر الشفاه في علبته، وبدا عليها شيء من الانزعاج. وقالت وهي تهز رأسها:

- المزيد من العسل.

وتنهدت بطريقة مبالغة، ثم مدت يدها إلى الدرج، وقالت:

- تفضل أموال الشهر الماضي.

ووضعت ظرفا على المكتب. ثم نظرت إلي وقالت:

- لم يسبق لي أن رأيتك.

- أنا ليلي.

وقال زاك مفسرا:

- إنها تسكن مع آب.

- هل تعيشين في منزلها؟

وكنت أريد أن أقول لها إن أحمر الشفاه قد سال على التجاعيد المحيطة بفمها.

- نعم سيدتي، أنا أعيش هناك.

- حسنا، سأغادر.

قالت. وأخذت محفظتها ونهضت، ثم أضافت:

- لدي موعد مع طبيب الأسنان. ضعا المرطبانات على الطاولة هناك.

وتخيلتها وهي تهمس الخبر لجميع الجالسين في غرفة الانتظار الذين كانوا على وشك حشو تجويف أسنانهم. تلك الفتاة البيضاء، ليلي، تعيش في منزل الأخوات بوترايت السوداوات. ألا يبدو لكم ذلك غريبا؟

وحين غادرت، وصل السيد فوريست إلى المكتب. وكان أول ما انتبهت إليه هو حمالاته الحمراء. ولم أر في حياتي قط شخصا نحيلا يرتدي حمالات، وكانت تبدو جميلة، وزاد من جمالها مطابقتها لربطة عنقه الفراشية الحمراء، وكان شعره رمليا وحاجباه كثيفا الشعر ويلتويان باتجاه عينيه الزرقاوين، وكانت على وجهه تجعدات ابتسامة دلت على أنه شخص جيد، جيد لدرجة أنه من الواضح أنه لم يستطع التخلص من الآنسة لايسي.

ونظر إلي وقال:

- ومن تكون هذه الآنسة الجميلة؟

- ليلي.

قلت ولم أستطع تذكر الاسم العائلي الذي كنت أستعمله في تلك الفترة. وأعتقد أن ذلك كان بسبب نعته لي بالجميلة، فقد صدمني.

- فقط ليلي.

قلت ووقفت هناك، وتبدو عليّ عدم اللباقة وإحدى رجلي موضوعة خلف الأخرى.

- أنا أسكن مع آب إلى أن أتمكن من الذهاب للعيش مع عمتي في فرجينيا.

وكنت أخشى أن يطلب مني، كونه محاميا، إجراء فحص لكشف الكذب.

قال لي:

- جميل. إن آب صديقة مقربة مني، أتمنى أن تكوني مستمتعة بمكوثك معها.

- نعم، سيدي، جدا.

- ما القضية التي تشتغل عليها؟

سأل زاك وهو يدس ظرف مال العسل في جيبه ويضع صندوق المرطبانات على الطاولة الجانبية قرب النافذة. وكان على الصندوق لافتة كتب عليها: عسل للبيع.

- قضايا عادية. عقود ووصايا. لدي شيء لك مع ذلك. تعال معي إلى المكتب وسأريك.

- سأنتظر هنا وأرتب مرطبانات العسل.

قلت غير راغبة في التطفل وكذلك لأنني كنت أشعر بغرابة أمامه.

- هل أنت متأكدة؟ يمكنك المجيء أيضا.

- أنا متأكدة، يعجبني هذا المكان.

واختفيا في الممر، وسمعت صوت باب يغلق، وبوق سيارة في الشارع، ودوي مكيف الهواء الذي كان بجانب النافذة وكان يتقاطر منه الماء على زبدية على الأرض. ورتبت المرطبانات على شكل هرم.

سبعة في القاع وأربعة في الوسط ثم واحدة في القمة ولكنها لم تكن تبدو متسقة الشكل. وفرقتها واكتفيت بوضعها في صفوف عادية.

واقتربت من أحد الجدران وأخذت في تفقد الصور التي كانت تغطيه. وكانت الصورة الأولى لشهادة من جامعة كارولاينا الجنوبية وأخرى من جامعة ديوك. ثم صورة للسيد فورست في قارب وهو يلبس نظارات شمسية ويمسك بسمكة بحجمي تقريبا. كما كانت هناك صورة للسيد فورست وهو يسلم على بوبي كينيدي. وكانت الصورة الأخيرة له رفقة فتاة صغيرة شقراء وهما واقفان عند المحيط. وكانت تقفز على موجة وقد كون الرذاذ مروحة زرقاء خلفها، ذيل طاووس من الماء وكان هو يساعدها ويشجعها ويبتسم لها. وأراهن أنه كان يعرف لونها المفضل والوجبات الخفيفة التي كانت تتناولها بعد الظهيرة، وكل ما كانت تحبه.

وجلست على إحدى الكنبتين الحمراوين الموجودتين في الغرفة. ويليامز، وأخيرا استرجعت اسمي العائلي المزيف. وقمت بإحصاء عدد النباتات في الغرفة، أربعة، ولوحات الأرضية انطلاقا من المكتب ووصولا إلى الباب الأمامي. وأغلقت عيني وتخيلت المحيط وهو يمتد بلون الفضة حديثة التنظيف، وعليه الزبد الأبيض والضوء يتناثر في كل مكان. ورأيت نفسي أقفز من موجة وتي-ري يمسك بيدي ويجرني إلى فوق ثم إلى تحت. وكان عليَّ التركيز بشدة ليحدث ذلك.

اثنان وثلاثون مفردا للحب.

هل كان من المستحيل أن يقول لي تي-ري إحداها، حتى أدنى مفرد

منها قيمة كذلك المخصص لأشياء كالفول السوداني والكولا؟ وهل كان من المستحيل تماما أن يعرف أنني كنت أحب اللون الأزرق؟ وماذا لو كان في المنزل يشتاق لي ويقول، لماذا، لمَ لمْ أحبها بطريقة أفضل؟

وكان هاتف الآنسة لايسي على المكتب. ورفعت السماعة وضغطت زر الصفر للوصول إلى المشغل.

- **هذه مكالمة يدفعها المتلقي.**

قلت لها وأمليت عليها الرقم. وسمعت هاتف منزلي يرن، ربما أسرع مما كنت أتوقع. وركزت نظري على البهو والباب المغلق وعددت الرنات ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة.

- مرحبا.

وجعل صوته بطني يرتفع إلى حلقي. ولم أكن مستعدة للطريقة التي ربط بها ركبتي. وكان عليّ أن أجلس على كرسي الآنسة لايسي مكتوفة الأرجل.

وقال المشغل:

- لدي مكالمة مدفوعة من المتلقي من ليلي أوينز. هل تقبل الأداء عنها؟

- اللعنة... سأقبلها.

وقبل أن أنطق كلمة واحدة، انطلق:

- ليلي، أين أنت بحق السماء؟

وكان عليّ إبعاد الهاتف عن طبلة أذني لئلا يمزقها.

- تي-ري، أنا آسفة، كان عليّ أن أغادر، ولكن...

- أخبريني أين أنت الآن، هل تسمعينني؟ هل تعرفين حجم الورطة التي أنت فيها؟ هرّبت روزالين من المستشفى، اللعنة، ماذا كنت تعتقدين؟

- كنت فقط...

- سأقول لك ماذا كنت. فتاة حمقاء لعينة تبحث عن المشاكل وقد وجدتها. بسببك أنا لا أستطيع الآن المشي في شوارع سيلفان دون أن يحدق في الناس. لقد كان عليّ أن أترك كل شيء وأبحث عنك في كل المعمور، وفي تلك الأثناء ذهب الدراق كله إلى الجحيم.

- حسنا، توقف عن الصراخ، هلا فعلت؟ قلت لك إنني آسفة.

- لن يرجع أسفك أطنان الدراق اللعينة. ليلي، أقسم...

- لقد اتصلت لأسأل عن شيء ما.

- أين أنت؟ أجيبيني.

وضغطت يد الكرسي إلى أن آلمتني مفاصلي.

- كنت أتساءل إذا كنت تعرف لوني المفضل.

- بحق السماء، ما الذي تتحدثين عنه؟ أخبريني أين أنت.

- قلت، هل تعرف لوني المفضل؟

- أعرف شيئا واحدا، وهو أني سأجدك يا ليلي، وحين أفعل، سأقطعك إربا إربا...

وأعدت السماعة إلى مكانها وجلست على الأريكة من جديد. جلست في ضوء بعد الظهيرة وأخذت أتابع حاشية الضوء تحت الستارة الفينيسية المتحركة، وقلت لنفسي: **لا تبكي، لا تتجرئي على ذلك. ماذا لو أنه لا يعرف لونك المفضل؟ وماذا بعد؟**

****

عاد زاك وبيده كتاب بني ضخما بدا عتيقا جدا، وقال لي:

- أنظري ماذا أعطاني السيد كلايتون.

وكان في الحقيقة يبدو وكأنه خرج من عملية ولادة كان فيها المولود يزن ستة أرطال من شدة فخره بالكتاب.

وأداره حتى أستطيع قراءة شريط الحاشية: **التقارير القانونية لكارولاينا الجنوبية لعام ١٨٨٩**. وفرك زاك واجهة الكتاب بيده فتناثر منها بعض الغبار وسقط على الأرض. ثم قال:

- سأبدأ في تأسيس مكتبتي القانونية.

وقلت:

- هذا جميل.

واقترب السيد فورست وكان يحدق في بشدة لدرجة أنني اعتقدت أنه كان عليّ مسح أنفي.

- لقد أخبرني زاك أنك من مقاطعة سبارتنبورغ وأنك كلا والديك قد توفيا.

- نعم، سيدي.

إن أكثر ما كنت أخشاه هو أن أقف في منصة تقديم الشهادة في مكتبه وأن يوجه لي أسئلة المحامين النارية. فلربما اضطررت وروزالين إلى جمع ملابسنا بعد ساعة من تلك اللحظة استعدادا للذهاب إلى السجن.

- وما الذي أتى بك...

- عليّ العودة حقا.

قلت ووضعت يدي أسفل بطني.

- لدي حالة تخص النساء.

وحاولت أن أظهر في غاية الأنثوية والغموض، وكأني أواجه مصاعب داخلية لم يكونا ليتخيلاها أو يرغبا في ذلك. وكنت أعرف عن تجربة أن كلمتي «حالة تخص النساء» من شأنها أن توصلني للأماكن التي كنت أرغب في الوصول إليها أو تخرجني من الأماكن التي لم أكن أرغب في البقاء فيها.

وقال زاك:

- آه، حسنا، لنذهب.

- سررت بلقائك سيد فوريست.

قلت وأنا أمسك ببطني، ثم انحنيت انحناءة صغيرة، وتوجعت نحو الباب. فناداني وقال:

- صدقيني يا ليلي، وأنا أيضا سررت كثيرا بمعرفتك.

****

هل سبق لك أن كتبت رسالة كنت تعرف جيدا أنك لن تستطيع إرسالها ولكنك كتبتها على الرغم من ذلك؟ بعد أن عدت إلى غرفتي في بيت العسل، كتبت رسالة لتي-ري، كسرت خلالها رؤوس ثلاثة أقلام رصاص، والكلمات... حسنا، كانت الكلمات تبدو وكأنها وضعت على الورق بالميسم.

عزيزي تي-ري،

أنا أشعر بأشد الامتعاض من صراخك في وجهي. لست صماء. أنا فقط غبية لأنني اتصلت بك.

إذا كان المريخيون سيعذبونك وكان الشيء الوحيد الكفيل بإنقاذك هو أن تخبرهم عن لوني المفضل، فستموت في الحين. ماذا كنت أعتقد؟ كل ما كان عليّ تذكره هو بطاقة عيد الآباء التي صنعتها من أجلك عندما كنت في التاسعة من عمري، وكنت لا أزال آمل في حبك. هل تتذكرها؟ طبعا، أنت لا تتذكر. ولكنني أتذكرها لأنني تعبت كثيرا في صنعها، ولم أقل لك قط إني قضيت نصف الليل أبحث في القاموس عن الكلمات التي سأكتبها وأربطها بمعنى كلمة أبي. وكنت قد استوحيت تلك الفكرة من السيدة بوول التي جعلتنا نفعل نفس الشيء خلال

مدرسة يوم الأحد بمجموعة من الكلمات. واعتقدت أني إذا تهجأت لك معنى الأب، قد يساعدك ذلك. وكنت أحاول أن أقول لك أن تجرب تلك الأشياء وإنني كنت سأقدرها، واستخدمت الكلمات هكذا: أبي. أ- ألطف من في الوجود. ب- بشوش. ي- يحب إلى أبعد الحدود.

وتوقعت أن تضع البطاقة على منضدتك، ولكني وجدتها في اليوم الموالي على طاولة الهاتف وكنت قد قشرت عليها حبة دراق، فالتصقت بها القشور والنواة، ولطالما رغبت في القول لك أن ذلك كان مقززا.

أبي: أ-أكرهك. ب-بخس. ي- يغيظني.

مع ودي،

ليلي

ملحوظة: أنا لا أصدق ولو للحظة أن أمي تركتني. وأنا فرحة لأنني أواجهك بهذه الأشياء.

وقرأت الرسالة من جديد ثم مزقتها إلى قطع صغيرة. وشعرت بالارتياح لإخراج كل ذلك من داخلي، ولكني كذبت حين قلت إنها أشعرتني بالفرح. وكنت أرغب نوعا ما في كتابة رسالة أخرى أعتذر فيها ولا أرسلها.

****

في تلك الليلة، حين خلد المنزل الوردي إلى النوم، ذهبت إليه بهدوء لحاجتي إلى الحمام. ولم يكن من الصعب المشي داخل البيت أبدا لأن آب كانت قد وضعت خطا من أضواء الليل يمتد من المطبخ إلى الحمام.

وكنت قد ذهبت حافية القدمين وهو ما جعل أخمص قدمي يتبلل. وأنا أجلس على كرسي الحمام محاولة التبول بسرعة، لمحت أوراق نبات الآس بين أصابع قدمي. وفوق رأسي، كان صدى شخير روزالين يتسرب من السقف. إن إفراغ المثانة يبعث دائما شعورا مريحا، وكانت روزالين تقول إنه كان أفضل من ممارسة الجنس. وعلى الرغم من حلاوة الإحساس، كنت أتمنى من كل قلبي ألا يكون الأمر كذلك.

وتوجهت إلى المطبخ ولكن شيئا ما جعلني أستدير. وقد تحزر ما هو. ومشيت في الاتجاه المعاكس. وما أن وضعت قدمي هناك حتى سمعت تنهيدة عميقة ومريحة حتى أنني وللحظة لم أع بأنها كانت نابعة من رئتي أنا.

وكانت الشمعة الموضوعة داخل كأس أحمر قرب تمثال مريم لا تزال تحترق، وتبدو كقلب أحمر صغيرا في كهف مظلم، ينبعث منه الضوء للعالم. وكانت آب تتركها مشتعلة ليل نهار. وكانت تذكرني بالشعلة الأبدية التي وضعت على قبر جون فيتزجيرالد كينيدي والتي لن تنطفئ مهما حصل.

وكانت سيدتنا ذات الأصفاد تبدو مختلفة جدا خلال الليل. إذ كان وجهها يبدو أكبر سنا وأكثر سوادا، وكانت قبضتها تبدو أكبر مما كنت أتذكره. وتساءلت عن كل الأماكن التي سافرت إليها وعن المياه التي

قطعتها عبر العالم، وعن كل الأشياء المؤسية التي هُمست لها، وكل ما قاسته.

أحيانا، بعد أن كنا ننتهي من تلاوة صلواتنا بالخرزات، لم أكن أستطيع تذكر كيفية رسم الثالوث بالطريقة الصحيحة، وكنت ألخبط فيه كما كنت لتتوقع من أي شخص رُبِّي على طريقة الكنيسة المعمدانية أن يفعل. وكلما حدث ذلك، كنت أكتفي بوضع يدي على قلبي كما كنا نفعل في المدرسة عند تأدية وعود الولاء. وكنت أحس أن الأمرين متشابهان، وذاك ما حدث في تلك اللحظة، حيث اتجهت يدي تلقائيا إلى قلبي وبقيت هناك.

وقلت لها... **أصلحي حالي من فضلك، أصلحي حالي. وساعدني في معرفة ما عليّ فعله. وسامحيني. هل أمي بخير هناك في السماء؟ لا تدعيهم يجدوننا. وإذا وجدونا، لا تسمحي لهم بأخذنا معهم. وإذا عثروا علينا، لا تتركيهم يقتلون روزالين. واجعلي حزيران تحبني، واجعلي تي-ري يحبني. وساعديني على التوقف عن الكذب. واجعلي العالم أفضل. وطهري قلوب الناس من اللؤم.**

واقتربت منها أكثر حتى أستطيع رؤية القلب على صدرها. وفي داخل رأسي، كنت أسمع النحل وهو يلوح بأجنحته داخل صندوق الموسيقى الأسود. ورأيتني وآب ونحن نضع أذنينا على الخلية. وتذكرت صوتها وهي تحكي قصة سيدتنا ذات الأصفاد لأول مرة. **أن تبعث لهم الخلاص، أن تبعث لهم العزاء، أن تبعث لهم الحرية.**

ورفعت ذراعي ولمست قلب مريم السوداء بأصبعي. ووقفت

والبتلات على أصابع قدمي وضغطت براحة يدي على قلبها.

وقلت لها، إنني أعيش في خلية من الظلام، وأنت أمي. أنت أم الآلاف.

****

يعتمد النسيج الاجتماعي لنحل العسل ككل على التواصل، وهي قدرة فطرية على إرسال الرسائل وتلقيها، وتشفير المعلومات وفك شفرتها.

The Honey Bee

الفصل التاسع

٢٨ تموز، يوم حري بأن يسجل في كتب الأرقام القياسية. وحين أعود بذاكرتي إليه، فإن أول ما أتذكره هم الأشخاص الذين يلقون بأنفسهم من شلالات نياغرا في براميل. ومنذ أن سمعت عن ذلك وأنا أحاول تخيلهم وهم يربضون داخل البرميل، ثم يبدؤون في الاهتزاز فوق الماء برفق كبطة بلاستيكية داخل حمام طفل، وفجأة، يصبح الماء متقلبا ويأخذ البرميل في الارتجاج فيما يرتفع الهدير على مبعدة منهم. وكنت أعرف أنهم يبدؤون عندها في الشتم والتساؤل عما دهاهم.

عند الساعة الثامنة صباحا من ذلك اليوم، بلغت درجة الحرارة ٩٤ وكانت تطمح في الوصول إلى ١٠٣ درجات قبيل الظهيرة. واستيقظت وآب تهز كتفي وتقول إن اليوم سيكون حارا جدا وإنه عليّ النهوض ومرافقتها لسقي النحل.

وصعدت شاحنة العسل بشعري الأشعث وأيار تمد لي شطيرة خبز مدهونة بالزبدة وعصير البرتقال من النافذة وروزالين تدلي قنينات الماء، وكانت الاثنتان بالأساس تجريان إلى جانب الشاحنة التي كانت آب تقودها في اتجاه المدخل. وشعرت وكأننا الصليب الأحمر وهو في طريقه لإنقاذ مملكة النحل.

وكانت آب قد وضعت في الجزء الخلفي من السيارة عدة غالونات من الماء المحلى بالسكر المجهز سابقا. وقالت:

- حين تفوق درجة الحرارة المائة، فإن الزهور تيبس ولا يبقى هناك طعام للنحل. وهو يبقى داخل القفران ويبرد نفسه. ويحدث أن يشوى أحيانا.

وكنت أشعر وكأننا أنفسنا قد نشوى. إذ لم تكن لتستطيع إمساك مقبض الباب خوفا من أن تصاب بحرق من الدرجة الثالثة. وكان العرق ينساب بين نهدي ويبلل ملابسي الداخلية. وشغلت آب المذياع لمعرفة الحالة الجوية ولكن ما سمعناه هو أن رينجر ٧ قد انطلق نحو القمر من مكان اسمه سي أوف كلاودز، وكيف أن الشرطة كانت تبحث عن جثث الناشطين الثلاث في مجال الحقوق المدنية في مسيسيبي، والأحداث الشنيعة في فيت نام. وانتهت النشرة بخبر عما كان يحدث على مقربة منا، وكيف كان بعض الأشخاص من تيبورون وفلورنس وأورنجبيرغ سيمشون في مسيرة في نفس اليوم حتى كولومبيا ليطالبوا الحاكم بإدخال قانون الحقوق المدنية حيز التنفيذ.

وأطفأت آب المذياع. فقد سمعنا ما يكفي. لا يمكن تقويم العالم بأكمله. وقالت:

- لقد سقيت القفران القريبة من المنزل، وسيتولى زاك أمر تلك الموجودة شرق المقاطعة، وسنتكفل أنا وأنت بالجهة الغربية.

واستغرق إنقاذ النحل الصباح بأكمله. وحين كنا نقود السيارة إلى زوايا بعيدة من الغابة حيث كنت بالكاد لتجد طريقا معبدة، كنا نجد حوالي خمسة وعشرين قفيرا قائما على ألواح وكأنها مدينة صغيرة مفقودة

مختفية هناك، فنرفع عنها الأغطية ونملأ أوعية الطعام بالماء المحلى بالسكر. وكنا قد وضعنا السكر اليابس في جيوبنا من قبل، فكنا نقوم في تلك اللحظة برشه على أوعية الطعام.

ولسعتني نحلة على معصمي عندما هممت بوضع الغطاء على صندوق أحد القفران فقامت آب بفرك اللسعة.

- لقد كنت أغمره بالحب.

قلت وأنا أشعر بالخيانة.

وقالت آب:

- إن الجو الحار يجعل النحل متقلب المَزاج حتى وإن أرسلت لهم الكثير من الحب.

وأخرجَت قنينة صغيرة من زيت الزيتون ولقاح النحل من جيبها وفركت جلدي، وكان ذلك دواءها الخاص. لقد كان اللسع شيئا لم أكن أرغب في اختباره على الإطلاق.

- يمكنكِ اعتبار أنك قد حصلت على درس تمهيدي. لا يمكنك أن تصبحي نحالة حقيقة ما لم تتعرضي للسع.

نحالة حقيقية. لقد بعثت تلك الكلمات في شعور بالاكتمال، وفي تلك اللحظة نفسها انطلق سرب من طيور الشحرور من الأرض على مقربة منا وغطى السماء كلها. وتساءلت، **ألن تتوقف العجائب عن الحدوث؟** وكنت سأضيف ذلك إلى قائمة وظائفي. كاتبة وأستاذة للغة الإنجليزية ومربية **نحل**.

وسألت:

- هل تعتقدين أنه بإمكاني أن أصبح نحالة يوما ما؟

وقالت آب:

- ألم تقولي لي الأسبوع الماضي إن النحل والعسل من بين الأشياء التي تحبينها؟ إذا كان ذلك صحيحا، فستكونين نحالة جيدة. وفي الواقع يا ليلي، قد لا يجيد المرء شيئا ما، ولكن يكفي أن يحبه.

وكانت اللسعة تبعث في الألم حتى مرفقي وجعلتني أتعجب من حجم العقوبة التي قد ينزلها بك مخلوق صغير. وكنت أشعر بالفخر لأنني لم أكن أتذمر من ذلك، فالتذمر لم يكن ليغير شيئا. ولذلك فقد اكتفيت بالعودة إلى محاولة إنقاذ النحل.

وعندما سقينا جميع القفران الموجودة في تيبورون ورششنا قدرا من السكر كاف لجعل وزن شخص ما يزداد بخمسين رطلا، قدنا الشاحنة إلى المنزل ونحن نشعر بالحر والجوع ونكاد نغرق في عرقنا.

****

عندما أوقفنا الشاحنة عند المدخل، كانت روزالين وأيار تحتسيان الشاي المحلى في الشرفة الخلفية. وقالت أيار إنها وضعت غداءنا في المبرد، وكان يتكون من سندوتشات شرائح لحم الخنزير وسلطة الكرنب المخرط. ونحن نتناول غداءنا، كنا نسمع حزيران وهي تعزف التشيللو في غرفتها بالطابق العلوي وكأن شخصا ما قد توفي.

وتناولنا غداءنا عن آخره دون أن ننبس بكلمة ثم تراجعنا للوراء.

وكنا منهكتين لدرجة جعلتنا نتساءل كيف كنا لنستجمع قوانا وننهض عندما سمعنا موجة من الصراخ والضحك، ذلك النوع الذي قد تسمعه خلال استراحة المدرسة. ومشينا بخطى متثاقلة إلى الشرفة لرؤية ما كان يحدث، فرأينا أيار وروزالين تجريان إلى جانب رشاش الماء، بقدمين حافيتين وبكامل ملابسهما. وكان قد جن جنونهما.

وكان ثوب روزالين الفضفاض مبللا وملتصقا بجسدها، وكانت أيار تجمع الماء في تنورتها التي كانت تمسكها من طرفيها فتبدو كزبدية ثم تنثره على وجهها. وكانت أشعة الشمس تنعكس على ضفائرها وتجعلها تلمع.

وقالت آب:

- حسنا، أليست هذه أفضل نهاية؟

وعندما وصلنا إليهما، تناولت روزالين الرشاش ووجهته صوبنا. وقالت:

- تفضلا إلى هنا، ستتبللان. ثم... سبلاااااش... ضُربنا إلى الصدر مباشرة بماء بارد كالثلج.

وأدارت روزالين الرشاش موجهة رأسه نحو الأسفل وملأت فستان أيار التي قالت مرددة كلمات روزالين:

- تفضلا إلى هنا، ستتبللان.

ثم اتجهت نحونا وصبت الماء الذي جمعته في تنورتها على ظهرينا.

ويمكنني أن أقول إنّ أيا منا لم تحتجَّ حقا. وفي الأخير، وقفنا هناك

نحن أيضا وقد بللت ملابسنا امرأتان سوداوان حمقاوان.

لقد تحولنا نحن الأربعة إلى حوريات مائية وأخذنا نرقص حول الرشاش، تماما كما قد يكون الهنود قد رقصوا حول النار المشتعلة. واقتربت السناجب وطيور النمنمة الكارولاينية بأقصى ما تجرأت عليه وارتوت من البرك، وكنت تكاد ترى أوراق العشب البنية تتحول إلى خضراء.

وبعد ذلك، خُبط باب الشرفة، واندفعت منه حزيران بغضب. ولا بد وأن الماء والهواء والرقص قد أسكرنني، فتناولت الرشاش وقلت:

- تعالي إلى هنا، ستتبللين.

ثم رششتها بخرطوم الماء.

وبدأت في الصراخ.

- اللعنة! الجحيم!

لقد كنت أعرف أن الأمر يسير في منحى سيء ولكني لم أستطع التوقف. وكنت أرى نفسي كالمطافئ وحزيران كالنار الهائجة.

وانتزعتِ الرشاش من يدي وصوبته نحوي، فاندفع بعض الماء إلى أنفي وآلمني. وانقضضتُ على الرشاش وتشبثت كل منا بطرف منه فيما كان هو يعصف باتجاه بطنينا وذقنينا. وسقطنا على ركبتينا في عراك من أجل الرشاش، وفورة الماء بيننا، وكانت عيناها تحدقان فيّ عن قرب وتلمعان بقطرات الماء التي حطت على رموشها. وسمعتُ أيار تبدأ في دندنة «آه يا سوزانا»، فضحكتُ لكي تعرف أن كل شيء على ما يرام.

ولكنني لم أستطع ترك الرشاش. فلم أكن لأترك حزيران بوترايت تغلبني.

وقالت روزالين:

- إذا صوبت الخرطوم على كلبين مربوطين فإنهما يتحرران من وثاقهما، ولكن يبدو أن ذلك لا ينطبق على جميع الحالات.

وضحكت آب، ولاحظت بعض الهدوء ينتشر حول محيط عيني حزيران، وأنها كانت تحاول أن تكتم ضحكتها ولكنها لم تفلح في المجمل، ففي اللحظة التي هدأ فيها محيط عينيها، انهار كل شيء. وكنت أستطيع رؤيتها تضرب بيدها على جبهتها وتقول لنفسها: **أنا أتعارك مع فتاة عمرها أربعة عشر سنة من أجل رشاش الحديقة. يا للسخافة.**

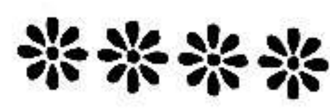
وتركَتِ الرشاش وتراجعت إلى الخلف زاحفة على العشب وقد انتابتها نوبة من الضحك. وسقطتُ إلى جانبها وضحكت أيضا. ولم نستطع التوقف، ولم أكن متأكدة تماما من سبب ضحكنا، ولكنني كنت مسرورة لأننا كنا نضحك معا.

وعندما نهضنا، قالت حزيران:

- يا إلهي، أشعر بدوار شديد. وكأن أحد سحب المقبس من قدمي واستنزف ما بداخلي.

وعادت روزالين وأيار وآب إلى كونهن حوريات مائية. وتطلعت إلى المكان الذي استلقى فيه جسدانا جنبا إلى جنب، وكان العشب قد مال نحو الأسفل ورسم لوحة جميلة على الأرض. ومشيتُ عليها بحذر

شديد وحين رأت حزيران مدى حذري، مشت عليها هي أيضا ثم صدمتني بأن عانقتني. لقد عانقتني حزيران بوترايت فيما كانت ملابسنا تصدر أصوات حلوة وباردة على طول جسدينا.



إذا ارتفعت درجة الحرارة إلى ١٠٤ درجات في كارولاينا الجنوبية، فإن عليك الخلود إلى فراشك. وهذا في الواقع قانون. وقد يرى البعض في ذلك خمولا، ولكن الحقيقة هي أننا حين نستلقي احتماء من الحرارة نعطي الفرصة لأدمغتنا للتنقيب عن أفكار جديدة والتساؤل عن مغزى الحياة الحقيقي، وعلى العموم، السماح للأشياء التي ينبغي أن تطفو على السطح بأن تفعل ذلك. وأتذكر أنه عندما كنت في الصف السادس، كان هناك فتى في قسمي في جمجمته لوحة فولاذية وكان يشتكي دائما من أن أجوبة الامتحانات لم تكن تصله. وكان الأستاذ دائما يقول له «دعك مني.»

وأجد أن الفتى كان محقا بطريقة ما. فلدى كل إنسان على وجه البسيطة لوحة فولاذية بداخل رأسه. وعندما نستلقي بين الفينة والأخرى ونهدأ قدر الإمكان، تنفتح هذه اللوحة كباب المصعد وتسمح بدخول جميع الأفكار السرية التي كانت تتربص عند الباب بفارغ الصبر وتضغط على زر الصعود. وتحدث المشاكل الكبرى في الحياة عندما تبقى تلك الأبواب غير المرئية مغلقة لمدة طويلة. ولكن هذا فقط رأيي.

كان من المفروض أن تكون كل من آب وأيار وروزالين في غرفهن في المنزل الوردي مستلقيات أمام المراوح والأضواء مطفأة. وأما أنا فقد

تمددت على سريري في بيت العسل وقررت أن بوسعي التفكير في أي شيء أريده، ما عدا أمي، وبطبيعة الحال، كانت هي الشيء الوحيد الذي رغب في دخول المصعد.

وكنت أستطيع الشعور بكل شيء ينكشف أمامي. كل الحواف المهترئة لعالمي الخيالي. فما أن تجر خيطا خاطئا حتى ينهار كل شيء عن آخره. ومنذ اتصلت بتي-ري وأنا أتحرق لإخبار روزالين بذلك، وأن أقول لها **لا تضيعي وقتك في التساؤل عما إذا كان رحيلي قد غير من مشاعر تي-ري وعاداته، إن كانت تتساءل عن ذلك أصلا**. ولكني لم أكن أود الاعتراف لها بأن ذلك كان يهمني لدرجة أني اتصلت به.

ما الذي حل بي حتى أعتقد أنني أعيش هنا دون أن يكون لدي شيء أخفيه؟ كنت مستلقية على فراشي أحدق بمربع النافذة الساطع وأشعر بالإنهاك. إن ترك الأشياء في مرفئها مضن للغاية. دعيني أدخل، كانت أمي تقول. **دعيني أدخل المصعد اللعين.**

حسنا، تفضلي. وأخرجت حقيبتي وتفحصت صورة أمي. وتساءلت كيف كان أن أكون بداخلها، قطعة من اللحم تسبح في ظلامها، وعن الأشياء الصامتة التي تشاركناها.

وكنت لا أزال أتوق إليها، ولكن ذلك الإحساس لم يعد بالحدة التي كان عليها من قبل. ولبست قفازيها وشعرت بأنهما أصبحا ضيقين على يدي فجأة. واعتقدت أنهما كانا سيصبحان أشبه بقفازي رضيع أمام يدي عندما أصبح في السادسة عشر من عمري. وسأصير مثل أليس في بلاد العجائب بعد أن أكلت من الكعكة وتضاعف حجمها. وستمزق

راحتاي خياطة قفازيها، ولن أستطيع أن ألبسهما مرة أخرى.

ونزعت القفازين عن يدي المتعرقتين وأحسست بنوبة من القلق، وبنفس الإحساس الجارح بالذنب، وطوق الكذب الذي لم أستطع إزاحته عني، والخوف من أن أطرد من المنزل الوردي.

«**لا**». تنفست. واستغرقت الكلمة الكثير من الوقت لعبور حلقي. همسة مشبعة بالخوف. لا، لن أفكر في ذلك. لن أشعر به. لن أسمح له بإفساد سير الأمور. **لا**.

وقررت أن الاستلقاء للاحتماء من القيظ فكرة خرقاء. واستسلمت وذهبا إلى المنزل الوردي بحثا عن شيء بارد لأشربه. إذا حدث أن دخلت الجنة يوما ما بعد كل ما فعلته، أتمنى أن أتحدث إلى الرب لبضع دقائق. وأرغب في إن أقول له: **أنظر، أعرف أن قصدك كان حسنا عندما خلقت العالم وكل شيء، ولكن لماذا تركته يخرج عن طوعك هكذا؟ لماذا لم تتشبث بفكرة الجنة الأساسية؟ إن حياة الناس في فوضى عارمة.**

وعندما دخلت إلى المطبخ، كانت أيار تجلس على الأرض ورجلاها ممددتان وعلى حجرها علبة من بسكويت غراهام المالح. ويبدو أنني وأيار الوحيدتين اللتين لم تكونا لتستلقيا على السرير في سلام لخمسة دقائق.

- لقد رأيت صرصورا.

قالت وهي تمد يدها لكيس حلوى المارشملو، ولم أكن قد انتبهت له. وتناولت واحدة وقسمتها لقطع صغيرة. أيار الحمقاء.

وفتحتُ باب المبرد وأطلت النظر في محتواه وكأنني كنت أنتظر أن

تقفز قنينة عصير العنب إلي وتقول ها أنا ذي، اشربيني. ولم أنتبه حقا لما كانت تفعله أيار، فأحيانا تستوعب الأشياء الكبيرة ببطء قاتل. لنقل إنك كسرت كاحلك ولم تشعر بالألم إلا بعض أن تجاوزت مجموعة سكنية.

وكنت قد انتهيت من شرب كأس من العصير تقريبا قبل أن أنظر من جديد إلى الطريق الذي خطته أيار على الأرضية وكان يبدأ عند المغسلة ويستدير باتجاه الباب، وكان خطا كثيفا من الفتات الذهبي وبعض البقع البيضاء اللاصقة.

وقالت أيار:

- ستتجه الصراصير نحو الباب. هذا ما يحدث دائما.

ولا أعرف كم من الوقت استغرقت في التحديق في الصف المخطوط على الأرض وفي وجه أيار وهي تنظر إليّ متحمسة لأن أقول شيئا ما، ولكني لم أستطع قول أي شيء. وامتلأت الغرفة بالصرير المتتابع الصادر عن محرك المبرد. وانتابني شعور غريب وثقيل. ذكرى ما. ووقفت هناك منتظرة إياها، منتظرة قدومها..... **كانت أمك مهووسة حين يتعلق الأمر بالحشرات. لقد كانت تضع خطوطا من فتات بسكويت غراهام المملح والمارشملو لجذب الصراصير إلى خارج المنزل.** هذا ما قاله تي-ري.

ونظرت إلى أيار من جديد وفكرت: **لم تكن أمي لتتعلم هذه الطريقة من أيار، هل يعقل ذلك؟**

ومنذ أن وضعت قدمي في المنزل الوردي، كان جزء مني يؤمن أن

أمي كانت هناك. لا، لم يكن يؤمن بذلك، وإنما كانت أحلام يقظته تفعل وتمررها بمتاهة من الأماني. ولكن، ورغم أن ذلك الاحتمال توضح أمامي في تلك اللحظة، فإنه بدا بعيدا وأحمق. **إن ذلك غير معقول**، فكرت من جديد.

واتجهت نحو الطاولة وجلست. وكانت ظلال بعد الظهيرة تتقدم إلى داخل الغرفة. وكانت بلون الدراق، تظهر وتغيب، وكان الصمت يطبق على المطبخ. وحتى دندنة المبرد همدت. وعادت أيار إلى عملها وكأنها نسيت وجودي.

لربما تعلمت أمي ذلك من كتاب أو من والدتها. وكيف كنت لأعرف أن تلك الطريقة في التخلص من الصراصير لم تكن شائعة بين كل الأسر؟ ونهضت واتجهت نحو أيار. وشعرت بركبتي ترتجان. ووضعت يدي على كتفها. حسنا، فكرت، لنرى. وقلت:

- أيار، هل كنت تعرفين امرأة تدعى ديبورا؟ ديبورا فونتانيل؟ امرأة بيضاء من فرجينيا؟ منذ زمن طويل.

ولم تكن أيار تعرف المكر على الإطلاق، ولذلك لم تكن لتنتظر منها أن تفكر مليا في أجوبتها. ولم تنظر إلى الأعلى ولم تتوقف عن عملها، وما كان منها إلا أن أجابت:

- نعم، ديبورا فونتانيل. لقد كانت تسكن في بيت العسل. لقد كانت حلوة جدا.

وهكذا اتضح الأمر. اتضح الأمر كله.

وأحسست بالدوار للحظة. واضطررت للإمساك بالطاولة لأتماسك. وبدا خط فتات البسكويت وحلوى المارشملو على الأرض نصف حي.

وكانت تدور برأسي ملايين الأسئلة، ولكن أيار بدأت تدندن. «آه **يا سوزانا**». ووضعت علبة البسكويت ونهضت عل مهل وكانت قد بدأت في النشيج. لقد جعلها شيء ما عن ديبورا تدخل في نوبة.

- سأذهب إلى الحائط قليلا.

قالت وتركتني في المطبخ، وكنت أشعر بالحر وبضيق النفس، والعالم يدور من حولي.

وأنا في طريقي إلى بيت العسل، ركزت على قدمي وهما تلمسان تراب المدخل الصلب وجذور الأشجار العارية والعشب المروي حديثا، وملمس الأرض الصلب والحي والقديم تحت قدمي.

هناك وهناك وهناك وهناك دائما. تلك الأشياء التي يجب أن تمثلها الأم.

نعم، ديبورا فونتانل. لقد كانت تسكن في بيت العسل. لقد كانت حلوة جدا.

وفي بيت العسل، جلست على السرير واحتضنت ركبتي واتخذتها مرفئا لوجهي. ونظرت إلى الأرضية بعيون جديدة. لقد كانت أمي تمشي في أرجاء هذه الغرفة. هي كشخص من دم ولحم وليس شخصا من نسج خيالي. شخصا حيا يتنفس.

وكان آخر ما توقعته أن يداهمني النوم، ولكن انفجارا ما حدث

بداخلي، وكان كل ما يريده جسدي هو أن يخلد للنوم وأن يحلم.

واستيقظت بعد حوالي ساعة في المساحة المخملية التي لا تتذكر فيها بعد ما حلمت به، ثم استرجعت كل شيء فجأة.

أنا أرسم خطا متعرجا من العسل في غرفة يبدو وكأنها في بيت العسل للحظة، ثم ما تلبث أن تشبه غرفتي في سيلفان. وأبدأ رسم الخط عند باب لم أرها من قبل وأنهيه عند قدم سريري. ثم أجلس على السرير وأنتظر. تفتح الباب وإذا بأمي تتعقب خط العسل فتنعرج وتدور داخل الغرفة إلى أن تصل إلى سريري. إنها تبتسم، وتبدو جميلة جدا ولكني بعد ذلك أرى أنها ليست شخصا عاديا. إن لها أرجل صرصور تتدلى من ملابسها وتلتصق بقفصها الصدري وجذعها. إن لها ستة أرجل، ثلاثة من كل جهة.

ولم أستطع تخيل من كان يعبث بدماغي ويختلق تلك الأشياء. كان الجو عندئذ قد أصبح ورديا قاتما وباردا بما فيه الكفاية للالتحاف بغطاء. فلففت الغطاء حول ساقي. وكانت بطني مضطربة وكأنني سأتقيأ.

وإذا قلت لك الآن إنني لم أتساءل قط عن ذلك الحلم وإنني لم أغلق قط عيني وأتخيل أمي بسيقان صرصور، وإنني لم أتساءل قط لماذا أتاني ذلك الحلم معريا أسوأ شيء فيها، سأكون قد عدت إلى عادتي القديمة في الكذب. إن الصرصور كائن لا يمكن أن يحبه أحد، ولكنك لا تستطيع قتله. وسيستمر ذلك ويستمر ويستمر. فقط حاول التخلص من الأمر.

****

كانت أعصابي مضطربة طوال الأيام الموالية، فكنت أفزع كلما سقط شيء على الأرض. وعندما كنا على طاولة العشاء، كنت أنكز أكلي وأحملق في الفضاء وكأني أرى حلم يقظة. وكانت صورة أمي بسيقان الصراصير تتسلل إلى ذهني أحيانا، وكنت أبتلع ملعقة عسل لتخفيف اضطراب معدتي. لقد كنت مشوشة لدرجة أنني لم أكن أستطيع برنامج متابعة برنامج آميريكان باندستاند على التلفاز، وكنت في العادة أُشدَهُ لأي كلمة ينبس بها ديك كلارك.

وكنت أطوف حول المنزل مرارا وتكرارا، وأقف هنا وهناك لأتخيل أمي في مختلف الغرف، وهي تجلس هناك وتنورتها تفترش مقعد البيانو، وهي تجثو على ركبتيها أمام سيدتنا، ثم وهي تدرس مجموعة وصفات الطبخ التي اقتلعتها أيار من المجلات وعلقتها على المبرد. وكنت أتمعن في تلك الرؤى، وعندما أنتبه لما حولي كنت أرى آب أو حزيران أو روزالين تراقبنني. وكن تقرقرن بألسنتهم وتتحسسن وجهي لتفقد حرارتي.

وكن يسألن:

- ماذا هناك؟ ماذا يحدث لك؟

وكنت أحرك رأسي، وأقول:

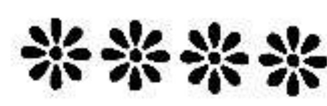
- لا شيء.

وكنت أكذب، **لا شيء**.

وكنت، في الحقيقة، أشعر وكأن حياتي معلقة بقشة كانت ستغوص

في مياه مجهولة. مياه خطيرة. وكنت أرغب فقط في تأجيل الغوص لبعض الوقت، لأشعر بالقرب من أمي في ذلك المنزل، ولأتظاهر بأنني لم أكن خائفة من السبب الذي جعلها تأتي إليه أو من أن تفاجئني بنفس الطريقة التي فاجأتني بها في الحلم حين ظهرت بستة أرجل وبصورة بشعة.

وكنت أرغب في الذهاب إلى آب وأن أسألها ما الذي أتى بأمي إلى هناك، ولكن الخوف كان يمنعني من ذلك. كنت أريد أن أعرف. ولم أكن أريد أن أعرف. لقد كنت عالقة في منطقة وسطى.



وفي وقت متأخر من بعد ظهيرة يوم الجمعة، بعد أن انتهينا من تنظيف ما تبقى من وجبة العشاء وتخزينه، ذهب زاك لإلقاء نظرة أسفل غطاء شاحنة العسل، فقد كان غريب الأطوار وكانت حرارته ترتفع رغم أن نيل أصلحه.

وعدت أنا إلى غرفتي وجلست على سريري. وكانت الحرارة تتسرب من النافذة. ففكرت في النهوض وتشغيل المروحة، ولكني اكتفيت بالجلوس هناك والتحديق في السماء البيضاوية الزرقة من خلال اللوحات الزجاجية، وبداخلي مشاعر حزينة ومرهقة. وكنت أستطيع سماع الموسيقى المنبعثة من مذياع الشاحنة، وصوت سام كوك «اناذر ساترداي نايت»، ثم أيار وهي تنادي روزالين في الحديقة وتقول لها شيئا يتعلق بإحضار الأغطية من حبل الغسيل. وكنت أنا مشدوهة من كون الحياة تواصل سيرها العادي بينما كنت أنا معلقة، أنتظر، ومشدودة بين أن أعيش حياتي وألا أعيشها. ولم أكن أستطيع المضي وأنا أتوسل

الوقت وكأن لا نهاية له، وكأن الصيف لن ينتهي. وانهمرت الدموع على وجنتي. لقد كان عليّ أن أتخلص من كل ذلك، فليحدث ما يحدث. حسنا فليحدث والسلام.

وتوجهت إلى المغسلة وغسلت وجهي.

وأخذت نفسا عميقا ووضعت صورة مريم السوداء التي كانت تحتفظ بها أمي وصورتها هي في جيبي وتوجهت إلى المنزل الوردي لأتكلم مع آب.

وكنت أعتقد أننا سنجلس على حافة سريرها، أو في الخارج في كراسي الحديقة إن لم يكن هناك بعوض كثير. وتخيلت أن آب ستقول: «**فيما تفكرين يا ليلي؟ هل سنتحدث أخيرا؟**» وكنت سأخرج الصورة الخشبية وأخبرها عن كل شيء، وعندئذ كانت ستخبرني عن أمي.

كم أتمنى لو أن ذلك ما حدث عوض ما حدث فعلا.

****

كنت أمشي بخطوات واسعة نحو المنزل حين صاح زاك من الشاحنة قائلا:

- هل ترغبين في مرافقتي إلى البلدة؟ سأذهب لإحضار خرطوم مسخن قبل أن يغلق المتجر.

وقلت له:

- عليّ التحدث مع آب.

وخبط الغطاء ومسح ظهر يديه وراحتيه في سرواله، وقال:

- إن آب مع الفتاة الحلوة في غرفة الاستقبال. لقد أتت باكية، وقالت شيئا عن إنفاق أوتيس المال الذي اذخراه في شراء قارب صيد مستعمل.

- ولكن عليّ إخبارها بشيء مهم جدا.

- سيكون عليك أن تنتظريها. هيا، سنعود قبل أن تذهب الفتاة الحلوة حتى.

وترددت ثم استسلمت في الأخير، وقلت:

- حسنا.

وكان متجر قطع السيارات على مبعدة مبنيين من قاعة السينما. وحين ركن زاك الشاحنة في المساحة المقابلة للمتجر، لمحتهم؛ لقد كان هناك خمسة رجال أو ستة واقفين أمام شباك بيع التذاكر. وكانوا يجوبون المكان متفقدين الطوار بنظرات خاطفة، وكأنهم ينتظرون شخصا ما، وكانوا جميعا مهندمين، ويلبسون ربطات عنق بمشابك، فكانوا يبدون كبائعي المتاجر وموظفي البنوك.

وكان أحدهم يحمل شيئا يبدو كمقبض مجراف؟

وأوقف زاك محرك شاحنة العسل وأخذ يحدق فيهم من خلال الزجاج الأمامي. وخرج من متجر قطع السيارات كلب صيد هرم جعل مرور الزمن وجهه يبيض وبدأ يشتم شيئا ما على الطوار. وأخذ زاك في نقر أصابعه على المقود ثم تنهد. وأدركت فجأة أن ذلك اليوم كان يوم الجمعة وأنهم كانوا ينتظرون ظهور جاك بالانس رفقة المرأة السوداء.

والتزمنا الصمت لوهلة وتضخمت الأصوات داخل الشاحنة: صرير نابض المقعد وقرع أصابع زاك وتنفسي الحاد.

وبعد ذلك صرخ أحد الرجال، وهو ما جعلني أقفز من مكاني وأرطم ركبتي بصندوق القفاز. وتطلع الرجل إلى الجهة المقابلة من الشارع، ثم صرخ:

- ما الذي تنظرون إليه هنا؟

واستدرنا أنا وزاك، ونظرنا من خلال النافذة الخلفية فرأينا ثلاثة مراهقين سود يقفون على الطوار ويشربون الكولا من قنينة ويحدقون في الرجال.

وقلت لزاك:

- لنعد مرة أخرى.

فأجابني:

- سيكون كل شيء على ما يرام، فقط انتظري هنا.

لا، لن يكون كل شيء على ما يرام. وذلك ما خطر ببالي.

وعندما خرج زاك من الشاحنة، ناداه الفتيان الثلاثة. وقطعوا الشارع وقدموا إليه. وحين رأوني من خلال النافذة، لكزوا زاك ممازحة. ولوح أحدهم بيده أمام وجهه وكأنه تناول فلفلا مكسيكيا حارا. وسأل زاك:

- من هذه؟

ونظرت إليهم وحاولت الابتسام، ولكن تركيزي كان منصبا على الرجال، وكنت أرى أنهم كانوا يراقبوننا.

ورأى الأولاد ذلك أيضا، وصاح أحدهم بصوت عال جدا (واكتشفت فيما بعد أن اسمه هو جاكسون):

- يجب أن تكون في غاية الغباء لتصدق أن جاك بالانس سيأتي إلى تيبورون.

وضحكوا جميعا، بمن فيهم زاك.

ومشى الرجل الذي كان يحمل مقبض المجراف إلى أن وصل إلى مصد الشاحنة وحدق في الفتيان بنصف الابتسامة ونصف التكشيرة نفسها التي كانت تعتلي وجه تي-ري آلاف المرات، تلك النظرة التي تستمد من القوة دون أن يكون فيها أي شيء من الحب، وصرخ:

- ماذا قلت أيها الفتي؟

وصمت الشارع ودلى كلب الصيد أذنيه وحشر نفسه تحت سيارة مركونة. ورأيت جاكسون يعض على أسنانه إلى أن بزغ تموج صغير على فكه. ثم لمحته وهو يرفع قنينة الكولا إلى الأعلى ويرميها.

وأغلقت عيني حين طارت القنينة من يديه. وحين فتحتهما من جديد، كان الزجاج قد تناثر على الطوار. وأفلت الرجل مقبض المجراف من يديه، وأمسك أنفه بيديه وجرى الدم بين أصابعه. ثم استدار إلى باقي الرجال، وقال:

- لقد شرخ ذلك الزنجي أنفي.

وكان يبدو مندهشا أكثر من أي شيء آخر. ونظر من حوله، مضطربا للحظة، ثم اتجه نحو متجر قريب وهو يقطر دما.

وكان زاك والفتيان يقفون أمام باب الشاحنة مشكلين دائرة صغيرة، وقد علقوا في الطوار، فيما قدم إليهم باقي الرجال وأحاطوا بهم وحاصروهم أمام الشاحنة.

وقال أحد الرجال:

- من الذي رمى بالقنينة؟

ولم يفتح أي من الفتيان فمه.

- جبناء.

قال رجل آخر، وقام بالتقاط مقبض المجراف من الطوار وكان يهدد به الفتيان كلما هموا بالحركة، وأضاف:

- فقط أخبرونا من منكم قام بذلك، ويمكن للثلاثة الآخرين أن يذهبوا.

ولم يحدث شيء.

وكان الناس قد بدأوا في التوافد من المتاجر والتجمهر في مجموعات صغيرة. وحدقت في رأس زاك وشعرت وكأن في قلبي نتوءا، وكنت أقف هناك وأنحني قدر المستطاع مترقبة ما سيفعله زاك. لقد كنت أعرف أن الوشاية بالآخرين من أرذل الأعمال ولكني وددت لو أنه أشار بأصبعه وقال: **ها هو من فعل ذلك.** فيستطيع بذلك العودة إلى الشاحنة ونمضي في حال سبيلنا.

هيا يا زاك.

واستدار زاك برأسه ونظر إليّ بزاوية عينه. ثم هز كتفه قليلا، وعرفت عندها أن الأمر قد انتهى. لقد قضي الأمر. لن ينبس بكلمة. لقد كان يحاول أن يقول لي: أنا آسف، **ولكن هؤلاء أصدقائي.**

لقد اختار أن يقف بينهم ويكون واحدا منهم.

****

تابعت الشرطي وهو يزج بزاك والفتيان الثلاثة الآخرين داخل السيارة. وعندما بدأ في قيادتها، شغل الصفارة والأضواء الحمراء، دون أن يكون هناك داع لذلك، ولكنني أعتقد أنه لم يكن يرغب في تخييب ظن الجمهور المحتشد على الطوار.

وبقيت جالسة داخل الشاحنة وكأنني تجمدت، وكأن العالم تجمد من حولي. وتفرق الملأ وغادرت السيارات التي كانت في مركز البلدة الواحدة تلو الأخرى. وأغلق الناس متاجرهم. وكنت أتابع كل شيء من خلال الزجاج الأمامي وكأنني أشاهد الرسم التجريبي الذي كان يظهر على التلفاز بعد منتصف الليل.

وبعد أن خفت الصدمة قليلا، حاولت التفكير فيما كنت سأفعله وكيف كنت سأعود إلى المنزل. ولولا أن زاك كان قد أخذ المفاتيح لكنت حاولت قيادة الشاحنة رغم أنني لم أكن أستطيع التمييز بين الغيار والمكابح. وكانت جميع المتاجر مقفلة عندئذ فلم يكن بإمكاني أن أطلب استعمال الهاتف، وحين انتبهت إلى هاتف عمومي في الشارع، اكتشفت

أنني لم أكن أحمل قطع نقدية معي. وغادرت الشاحنة وأخذت في المشي.

وعندما وصلت إلى المنزل الوردي بعد نصف ساعة، كان كل من آب وحزيران وروزالين ونيل وكلايتون فورست مجتمعين تحت شجرة وارفة الظلال. وكانت همسات أصواتهم تطفو وتختلط بالأضواء المحتضرة. وسمعت اسم زاك. وسمعت السيد فورست ينطق بكلمة **سجن**. وعرفت أن زاك قد استخدم المكالمة الوحيدة المسموح له بها في الاتصال به، فقدم هو إليهم ليبلغهم بالخبر.

وكان نيل يقف إلى جانب حزيران وهو ما بين لي أنهما لم يكونا يقصدان العبارات التي تلفظا بها حقا: **لا تعد إلى هنا مجددا وأنت سافلة أنانية**. واقتربت منهم دون أن ينتبه إليّ أحد. لقد كان أحد ما يحرق العشب عند الطريق، فكانت السماء كلها تعبق برائحة خضراء مرة، وعصبت شذرات شاردة من الرماد رأسي.

وعندما وقفت خلفهم، قلت:

- آب.

وضمتني وقالت:

- شكرا لك يا رب. ها أنت... كنت سأذهب للبحث عنك.

وأخبرتهم بما حدث بينما كنا نتحرك صوب المنزل. وكانت آب تلف ذراعها حول خصري وكأنها كانت تخشى أن يغمى عليَّ من جديد، ولكني في الواقع لم أكن قط حاضرة أكثر من تلك اللحظة. لون الظلال الزرقاء والشكل الذي اتخذه انعكاسها على المنزل وكيف

بدت مشابهة لبعض الحيوانات الضارية، كتمساح أو دب أمريكي ضخم، ورائحة دواء ألكا سليتزر التي كانت تحوم فوق رأس كلايتون فورست، وبياض بعض من شعره، وقدر الاهتمام الذي أثقل أجسادنا. وكنا بالكاد نستطيع المشي.

وجلسنا على الكراسي ذات الظهر الجلدي حول طاولة المطبخ، ماعدا روزالين التي كانت تصب الشاي في الكؤوس وتضع سندويتشات جبنة الفلفل الحار على الطاولة وكأننا كنا نستطيع الأكل. وكان شعر روزالين مجدولا بضفائر في غاية الاتقان، وفكرت في أن أيار هي من قام بضفرها بعد العشاء.

وسألت آب:

- وهل نستطيع إخراجه بكفالة؟

وتنحنح كلايتون وقال:

- إن القاضي مونرو في عطلة، ويبدو أن لا أحد سيستطيع الخروج قبل يوم الأربعاء.

ونهض نيل واتجه صوب النافذة. وكان شعره مقصوصا على شكل مربع متقن في الخلف. وحاولت التركيز على قصته لئلا أنهار. لقد كان يوم الأربعاء على بعد خمسة أيام.

خمسة أيام.

وسألت حزيران:

- حسنا، هل هو بخير؟ لم يصب بأذى، أليس كذلك؟

- لم أستطع رؤيته لأكثر من خمس دقائق ولكنه بدا بخير.

وفي الخارج، كانت سماء الليل تتحرك من فوقنا. وكنت واعية بذلك؛ واعية بالطريقة التي قال بها كلايتون بدا بخير، وكأننا فهمنا جميعا أنه لم يكن بخير ولكنه كان ليتظاهر بذلك.

وأغلقت آب عينيها ومررت أصابعها على جبينها. ورأيت بريقا في عينيها، بوادر دموع. وأنا أنظر إلى عينيها، كنت أرى النار داخلهما. وكانت شعلة يمكن أن تعول عليها، ويمكنك الاقتراب واستمداد الدفء منها إذا كنت تشعر بالبرد أو طبخ شيء له أن يغذي الفراغ بداخلك. وشعرت وكأننا جميعا نسير على غير هدى في هذا العالم وأن كل ما كان بين أيدينا هو تلك النار المبللة داخل عيني آب. ولكنها كانت تكفينا.

ونظرَتْ إليَّ روزالين، واستطعت قراءة أفكارها: **لا تأت بأي فكرة فذة عن زاك فقط لأنك استطعت إخراجي من السجن.** وفهمت كيف يصبح الناس مجرمين متسلسلين. إن الجريمة الأولى هي الأصعب، وبعدها تفكر: **وماذا سيحدث إن ارتكبت جريمة أخرى؟** هل سأقضي بضع سنوات أخرى في السجن؟ ليس الأمر بتلك الأهمية.

- وماذا ستفعل الآن؟

قالت روزالين وهي تقف إلى جانب كلايتون وتنظر إليه، وكان نهداها يتدليان على بطنها، وقبضة يدها مغروسة في خصرها. وبدا

وكأنها كانت ترغب في أن نملأ جميعنا شفاهنا بالسعوط ونتجه مباشرة نحو سجن تيبورون لنبصق على أحذية الناس.

وكان من الواضح أن هناك نارا بداخل روزالين أيضا. ولكنها لم تكن مثل شعلة آب، وإنما كانت نارا من شأنها أن تحرق المنزل عن آخره لتنظيف الفوضى بداخله، إن تطلب الأمر ذلك. لقد ذكرتني روزالين بتمثال سيدتنا الموجود في قاعة الاستقبال، وفكرت أنه **إذا كانت آب هي القلب المرسوم على صدر مريم، فإن روزالين هي قبضتها.**

وقال كلايتون:

- سأبذل قصارى جهدي لإخراجه، ولكنني أخشى أنه سيبقى هناك لبعض الوقت.

ووضعت يدي في جيبي وتحسست صورة مريم وتذكرت الأشياء التي كنت أنوي أن أقولها لآب عن أمي. ولكن، كيف كان يمكنني فعل ذلك في تلك اللحظة وسط ذلك الشيء الفظيع الذي حدث لزاك؟ كان يجب أن أنتظر وأنزوي إلى النقطة العالقة التي كنت فيها من قبل.

وقالت حزيران:

- لا أرى أن من الضروري أن تعرف أيار بالأمر. سيؤذيها ذلك. تعرفون كم تحب ذلك الفتى.

وحولنا جميعا أنظارنا لآب التي قالت:

- أنت على حق. إن هذا أكبر من أن تتحمله.

- أين هي؟

سأَلتُ وأجابتني روزالين:

- إنها نائمة في غرفتها، لقد كانت متعبة.

وتذكرت أنني رأيتها عند الحائط بعد الظهيرة، وكانت تجر مجموعة من الأحجار في العربة، وتضيفها إلى حائطها، وكأنها كانت تشعر بضرورة ذلك.

****

لم يكن لسجن تيبورون ستائر مثل سجن سيلفان. وكان بناية رمادية اسفلتية ذات نوافذ معدنية، وكان الضوء فيه خافتا. وفكرت في أن من الغباء أن تدخل إليه فتاة هاربة من العدالة، إلى سجن يحتمل أن يكون رجال الشرطة فيه مدربين للتعرف عليها. ولكن آب سألتني إن كنت أرغب في مرافقتها لزيارة زاك. وهل كان بيدي إلا أن أوافق؟

وكان للشرطي الذي كان في الداخل شعر قصير، وكانت قامته طويلا جدا، أطول من نيل نفسه الذي كان بحجم ويلت شامبرلاين. ولم يبد مسرورا برؤيتنا.

- هل أنت والدته؟

سأل آب.

وتفقدْتُ شارة اسمه. إيدي هازلوورست.

- أنا عرابته.

وأجابت آب وهي تقف مستقيمة وكأن أحدا ما كان يقيس طولها، وأضافت:

- وهذه صديقة العائلة.

وتفحصتني نظراته، وكان الشيء الوحيد الذي كان يثير ريبته هو كون فتاة ببياضي صديقة للعائلة. وتناول لوح كتابة بنيا من المكتب وأخذ في فتح المشبك وإغلاقه بينما كان يفكر فيما كان سيفعله بنا، ثم قال:

- حسنا. يمكنكما رؤيته لخمس دقائق.

وفتَح بابا يفضي لممر يؤدي بدوره إلى صف واحد مكون من أربع زنزانات، وكان في كل منها فتى أسود. وكانت رائحة الأجساد المتعرقة والبول تزكم الأنوف فكدت أغلق أنفي بأصبعي لولا أني أدركت أن تلك ستكون أسوء شتيمة، فلم يكن الأمر بيد الفتيان.

وكانوا يجلسون على أسرة معلقة على الحائط أشبه بالمقاعد، وأخذوا في التحديق فينا ونحن مارتين. وكان أحد الفتيان يرمي زرا على الحائط ويلعب لعبة ما، ولكنه توقف عن ذلك لما مررنا بجانب زنزانته.

وأخذنا السيد هازلوورست إلى آخر زنزانة وقال:

- زاك تايلور، لديك زوار.

وتفقد ساعته.

وحين كان زاك يخطو باتجاهنا، تساءلت إن كانت يداه قد صفدتا وأخذت بصمات يديه والتقطت له صور وتعرض للدفع. وكنت أرغب

في مد يدي من خلال القضبان ولمسه والضغط بأصابعي على بشرته، فقد بدا وكأن حاسة اللمس هي وحدها ما يمكن أن يؤكد أن كل ذلك كان يحدث حقا.

وحين بدا أن السيد هازلوورست لن يتزعزع من مكانه، بدأت آب في الحديث. وتحدثت عن إحدى القفران التي كانت في مزرعة هاني، وكيف حدث فيها تطريد، وسألتْ زاك:

- هل تعرف عن أي واحدة أتحدث؟ تلك التي كانت تعاني من العثّ.

وبدأت في سرد تفاصيل دقيقة عن كونها بذلت وسعها منذ البداية، وكيف شقت طريقها بداخل الغابة وتخطت حقول البطيخ لتجد النحل أخيرا في شجيرة المغنوليا، وكان النحل كله معلقا هناك كبالون أسود بين الأغصان، وقالت:

- لقد استخدمت المدخنة لأدخلهم في الصندوق، ثم وضعتهم في قفير من جديد.

وأعتقد أنها كانت تحاول أن تقول لزاك إنها لن تهنأ قبل أن يعود إلينا. وأنصت إليها زاك بعينين بنيتين مبللتين. وبدا وكأنه قد ارتاح من إبقاء الحديث في مستوى النحل.

وكنت قد فكرت مليا فيما كنت أريد أن أقول له أيضا، ولكني نسيت كل شيء في تلك اللحظة، فبقيت ساكنة بينما كانت آب تسأله عن حاله وعما إذا كان بحاجة إلى شيء ما.

وتابعته بكثير من الرقة والألم وكنت أتساءل عما كان يجمع بيننا.

هل هي الأماكن المجروحة في داخل الأشخاص التي تبحث عن بعضها البعض ما كان يخلق نوعا من الحب بينهم؟

وحين قال السيد هازلوورست «هيا، لقد نفذ الوقت». حول زاك نظره باتجاهي. ونتأ عرق تحت صدغه. ورأيته يرتعد، والدم يجري من ذلك العرق. وكنت أرغب في قول شيء ما، شيء قد يساعده، أن أقول له إننا نشبه بعضنا أكثر مما كان يعتقد، ولكن ذلك بدا تافها. وكنت أريد أن أمد يدي من خلال القضبان وألمس العِرق الذي يضخ الدم بداخله. ولكنني لم أفعل ذلك أيضا.

- ألا زلت تكتبين في مذكرتك؟

سألني وبدا وجهه وصوته فجأة يائسين بطريقة غريبة.

ونظرت إليه وأومأت برأسي. وفي الزنزانة المحادية، أصدر الفتى جاكسون ضوضاء، نوع من المعاكسة، وهو ما جعل اللحظة تبدو حمقاء ورخيصة. ورمقه زاك بنظرة حانقة.

وقال الشرطي:

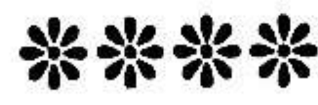
- هيا، انتهت خمس.

ووضعت آب يدها على ظهري ونكزتني مشيرة إلى أن علينا المغادرة. وبدا وكأن زاك كان يريد أن يسأل عن شيء ما. ففتح فمه ثم أغلقه.

وقلت:

- سأكتب عن كل هذا من أجلك. سأجعل منه قصة.

ولا أعرف إن كان ذلك ما كان يود أن يسألني عنه، ولكنه شيء يرغب فيه الجميع، أن يرى أحد ما الأذى الذي تعرضوا له ثم يكتب عنه ويجعل منه شيئا ذي أهمية.



واصلنا الحياة دون أن نكلف أنفسنا عناء الابتسام حتى أمام أيار. وعندما كانت معنا في الغرفة، كنا نمتنع عن الحديث عن زاك، ولكننا لم نكن نتصرف وكأن كل شيء بخير. وكانت حزيران تخلد إلى التشيللو كما تفعل دائما عندما يجتاحها الحزن. وذات صباح، حين كانت آب متوجهة نحو بيت العسل، توقفت وحدقت في آثار عجلات سيارة زاك عند المدخل. وكان يبدو من الطريقة التي وقفت بها هناك أنها قد تشرع في البكاء.

وكان كل ما كنت أفعله يبدو ثقيلا وشاقا، تنشيف الأواني والركوع لتلاوة صلاة المساء، وحتى سحب الغطاء لدخول السرير.

وفي اليوم الثاني من شهر آب، وبعد أن تناولنا العشاء وغسلنا الأطباق وتلونا صلاتنا، قالت آب إننا اكتأبنا بما يكفي وإننا سنشاهد برنامج السيد سوليفان. وهذا ما كنا نفعله عندما رن الهاتف. وإلى غاية هذا اليوم، تتساءل آب وحزيران عما كانت ستكون عليه حياتنا لو أن إحداهما ردت على الهاتف عوض أيار.

وأتذكر أن آب كانت تهم بالرد ولكن أيار كانت الأقرب إلى الهاتف، فقالت:

- سأجيب أنا.

ولم يفكر أحد بالأمر. فقد كنا نحدق في التلفاز وفي السيد سوليفان الذي كان يقدم مشهدا من السيرك يظهر فيه قرد يركب دراجة نارية صغيرة فوق سلك عال.

وعندما عادت أيار إلى الغرفة من جديد بعد عدة دقائق، كانت عيناها تنتقلان من وجه إلى آخر، وقالت:

- لقد كانت والدة زاك على الخط. لماذا لم تخبروني أن زاك في السجن؟

وكانت تبدو عادية جدا وهي تقف أمامنا، ولم تتحرك أي منا لوهلة. وتابعناها وكأننا ننتظر أن ينهار سقف ما. ولكن أيار كانت واقفة بمنتهى الهدوء.

وخطر ببالي بأن معجزة قد حدثت ربما فشفيت هي.

- هل أنت بخير؟

سألت آب وهي تهم بالنهوض. ولم تجب أيار.

- أيار؟

قالت حزيران.

لقد ذهبت إلى حد الابتسام لروزالين وهز رأسي، وكأني أقول لها: **هل تصدقين كيف تقبلت الأمر؟**

ولكن آب أطفأت التلفاز وأخذت تتطلع في أيار وحاجباها مقطبان.

وكان رأس أيار مائلا إلى الجانب، وعيناها مثبتتان على صورة مطرزة لعش طيور كانت معلقة على الحائط. وبدا لي فجأة أن عينيها لم تكونا تنظران إلى الصورة حقا، لقد خمدتا تماما.

واقتربت آب من أيار وقالت:

- أجيبيني، هل أنت بخير؟

وفي خضم الصمت، سمعت صوت تنفس أيار يتضخم ثم يتقطع شيئا ما. وتراجعتْ عدة خطوات إلى الوراء إلى أن وصلتْ إلى الحائط، ثم انزلقت على الأرض دون أن تحدث أي صوت.

ولا أعرف متى استوعبنا أن أيار قد غادرت إلى مكان بداخلها لم نكن نستطيع الوصول إليه، وحتى آب وحزيران لم يستطيعا إدراك ذلك عندها. فأخذتا في مناداتها وكأنها فقدت سمعها.

وانحنت روزالين إلى أيار وتحدثت إليها بصوت صاخب محاولة الوصول إليها:

- سيكون زاك بخير. لا داعي للقلق بتاتا. سيخرجه السيد فورست من السجن يوم الأربعاء.

وكانت أيار تحملق أمامها وكأن روزالين لم تكن هناك.

- ماذا حدث لها؟ لم أرها في هذه الحالة من قبل.

قالت حزيران واستشفت نبرة من القلق في صوتها.

وكانت أيار في الغرفة دون أن تكون فيها حقا. وكانت يدها مرتخية

على حجرها، وراحتاها مرفوعتان إلى الأعلى. ولم تكن تبكي عند تنورة فستانها. ولم تكن تحرك جسدها جيئة وذهابا. ولم تكن تشد ضفائر شعرها. لقد كانت صامتة للغاية، ومختلفة للغاية.

أدرت وجهي نحو السقف. ولم أعد أستطيع متابعة المشهد.

وذهبت آب إلى المطبخ وعادت بمنشفة أواني مليئة بالثلج. وجرت رأس أيار ووضعته على كتفيها لدقيقة ثم رفعت وجه أختها وضغطت بالمنشفة على جبهتها وصدغها وعلى عنقها. واستمرت في فعل ذلك لعدة دقائق، ثم وضعت المنشفة جانبا وخبطت وجنتي أيار بيديها.

وحركت أيار رموشها مرة أو مرتين ونظرت إلى آب. ثم نظرت إلينا جميعا ونحن متجمعات حولها وكأنها عادت من رحلة طويلة.

وقالت آب:

- هل تشعرين بأنك أفضل؟

وهزت أيار رأسها بالإيجاب. وقالت:

- سأكون بخير.

وخرجت كلماتها غريبة ورتيبة.

وقالت حزيران:

- حسنا، أنا مسرورة لأن باستطاعتك الكلام، هيا، لتأخذي حماما.

وأوقفت آب وحزيران أيار على قدميها، فقالت أيار:

- سأذهب إلى الحائط.

وحركت حزيران رأسها.

- لقد حل الظلام.

فقالت أيار:

- سأذهب قليلا.

وذهبت إلى المطبخ ولحقنا بها جميعا، وفتحت درجا وأخذت منه مصباحا يدويا ومذكرة وعقب قلم رصاص ثم عبرت الشرفة. وتخيلتها وهي تكتب زاك في السجن وتدخلها في حفرة ما على الحائط.

وشعرت أنه كان ينبغي أن يشكر شخص ما كل حجرة هناك شخصيا على المآسي الإنسانية التي تمتصها، وأنه يجب أن نقبل الحجرة تلو الأخرى ونقول: نحن آسفون، ولكن شيئا قويا ومستداما كان يجب أن يقوم بهذه المهمة من أجل أيار، وأنت من وقع عليك الاختيار. فليباركك الرب أيتها الأحجار ذات القلب.

وقالت آب:

- سأرافقك.

وقالت أيار دون أن تستدير:

- لا، من فضلك، سأذهب لوحدي.

وبدأت آب في الاحتجاج. ولكن...

وقالت أيار وقد استدارت لمواجهتنا:

- لوحدي... قلت لوحدي.

وشاهدناها وهي تنزل من أدراج الشرفة وتختفي بين الأشجار. إن هناك أشياء في الحياة لا تستطيع تجاوزها مهما حاولت جاهدا، ومن بينها ذلك المشهد، مشهد أيار وهي تتوغل داخل الأشجار ودائرة من الضوء تسبقها قبل أن يبتلعها الظلام.

إن حياة النحل قصيرة. فخلال فصلي الربيع والصيف، وهي أكثر فترات البحث عن الطعام مشقة، لا تعيش الخادمات أكثر من أربعة أسابيع أو خمسا، وتلك قاعدة... ويموت معظمها حتى قبل أن يبلغ ذلك العمر إذ يواجه شتى أنواع المخاطر خلال رحلته في البحث عن الطعام.

The Dancing Bees

الفصل العاشر

جلست في المطبخ رفقة آب وحزيران وروزالين بينما كان الظلام ينشر أجنحته حول المنزل. وبعد مضي خمس دقائق على مغادرة أيار، بدأت آب تذرع المكان جيئة وذهوبا. وقصدت الشرفة ثم عادت، ثم أخذت تحدق في اتجاه الحائط.

وبعد عشرين دقيقة قالت:

- هذا يكفي. لنذهب لإحضارها.

وأحضَرَت المصباح اليدوي من الشاحنة وانطلقت باتجاه الحائط فيما كنا أنا وحزيران وروزالين نحثو الخطى لمواكبتها. وتعالى شدو طير من غصن شجرة، وكان يغني ملء قلبه، بطريقة متسارعة وشديدة الانفعال، وكأنه وُضِع هناك ليغني للقمر العالي في السماء.

- أيااااااار،

نادت آب، وكذلك فعلت حزيران ثم روزالين وأنا. وكنا نمشي ونحن ننادي اسمها دون أن نسمع أي جواب. ولم يكن هناك سوى طائر الليل وهو يغني للقمر.

وبعد أن مشينا على طول حائط المبكى، أعدنا تفقده من جديد،

وكأننا كنا سنفعل ذلك بصورة أفضل في المرة الثانية. ومشينا بخطوات أبطأ، وعاينا المكان عن كثب، وناديناها بصوت أعلى. وكنا نعتقد أن أيار ستكون في تلك المرة جاثية على ركبتيها وقد انتهت بطارية مصباحها اليدوي، وكنا سنقول: **يا إلهي، كيف لم نرها في المرة الأولى التي تفقدنا فيها الحائط؟**

ولكن ذلك لم يحدث. فتجاوزنا الحائط ومشينا بداخل الغابة، وكنا ننادي اسمها بصوت أعلى فأعلى إلى أن أصبحت أصواتنا جشة، ولكن أحدا منا لم يكن ليقول: **هناك خطب ما؟**

ورغم أن الوقت كان ليلا، كان الجو بنفس الحرارة التي كان عليها من قبل وكنت أستطيع أن أشم رائحة الرطوبة الحارة في أجسادنا ونحن نشق طريقنا داخل الغابة تسبقنا بقعة صغيرة من الضوء. وفي الأخير قالت آب:

- حزيران، عودي إلى المنزل واتصلي بالشرطة. وأخبريهم أننا بحاجة للمساعدة في البحث عن أختنا. وعندما تنتهين من المكالمة، اركعي أمام سيدتنا واطلبي إليها أن تحمي أيار، ثم عودي إلينا. ونحن سنتوجه إلى النهر.

وانطلقت حزيران راكضة. وكنا نسمع حفيف خطواتها بعد أن استدرنا في اتجاه الجهة الخلفية من الأرض التي كان يمر منها النهر. وتحركت ساقا آب أسرع فأسرع وحاولت روزالين جاهدة مواكبتها والتنفس في نفس الوقت.

وعندما وصلنا إلى النهر، وقفنا للحظة. لقد أمضيت في تيبورون

فترة كانت تكفي ليكتمل القمر ثم يضمحل ثم يكتمل من جديد. وكان معلقا على النهر ويظهر من بين السحب ثم يغيب. وحدقت في شجرة في الضفة المقابلة كانت جذورها عارية وملتوية وشعرت بطعم معدني جاف ينتشر في حلقي وينطلق نحو لساني.

وحاولت الإمساك بيد آب، ولكنها كانت قد استدارت نحو اليمين وأصبحت تذرع الضفة منادية أيار.

- أيااااار.

وكنا أنا وروزالين نتحرك في بقعتنا غير الواضحة وكنا قريبتين من بعضنا لدرجة أن مخلوقات الليل كانت لتعتقد أننا مخلوق واحد بستة أرجل. وتفاجأت حين انطلقت في ذهني الصلاة التي كنا نتلوها كل ليلة بتلقائية؛ تلك الصلاة التي كنا نواكبها بتمرير الخرزات بين أصابعنا. وكنت أسمع كل كلمة بوضوح.

السلام عليك يا مريم، يا ممتلئة بالنعم، الرب معك. مباركة أنتِ في النساء، ومباركة ثمرة بطنك، المسيح. يا قديسة، صلي لأجلنا نحن الخطأة، الآن وفي ساعة الموت. آمين.

ولم أع أني كنت أردد الصلاة بصوت عال إلى أن قالت آب:

- جيد يا ليلي، لنصل جميعا.

ولا أعرف إن كنت أرددها كصلاة أم أني كنت أتمتمها كوسيلة لطرد الخوف. ورددت آب الكلمات معي وكذلك فعلت روزالين. ومشينا إلى جانب النهر والكلمات تنساب خلفنا كشرائط في وسط الليل.

وحين عادت حزيران، كانت تحمل مصباحا يدويا نقبت عنه في مكان ما من المنزل. وكانت بقعة الضوء تتمايل وهي تتحرك نحونا.

- نحن هنا.

قالت آب موجهة الضوء صوب الأشجار، وانتظرنا أن تصل حزيران إلى ضفة النهر. وقالت:

إن الشرطة في طريقها إلى هنا.

الشرطة قادمة. نظرت إلى روزالين، وإلى شفتها المقلوبة. لم يكن الشرطي قد تعرف عليَّ عندما زرنا زاك في السجن، وكنت آمل ألا يحالفه الحظ في التعرف على روزالين.

ونادت حزيران أيار وتقدمت بمشقة على الضفة وسط الظلام وكانت روزالين تمشي خلفها، ولكن آب كانت تمشي ببطء، وبحذر. وبقيت على مقربة منها وأنا أردد الصلاة بداخلي بوتيرة أسرع فأسرع.

وتوقفت آب فجأة. وتوقفت أنا أيضا، ولم أعد أسمع شدو عصفور الليل.

وتابعتُ آب دون أن تبرحها عيناي. ووقفت هي بتوتر وحذر محدقة في الضفة. وكانت تنظر إلى شيء لم أكن أستطيع رؤيته.

- حزيران.

نادت بصوت غريب أقرب إلى الوشوشة، ولكن حزيران وروزالين كانتا في نقطة بعيدة من الضفة ولم تسمعا ذلك. وحدي من سمعها.

وكان الهواء ثقيلا ومشحونا، أثقل من أن أستطيع تنفسه. واقتربت

من آب وتركت مرفقي يلمس ذراعها فقد كنت في حاجة إلى أن أشعر أنها كانت بقربي، وعندها رأيت مصباح أيار اليدوي على الأرض، مطفأ ومبللا.

واستغربت الطريقة التي تسمرنا بها في مكاننا لدقيقة، وكنت أنتظر أن تقول آب شيئا ولكنها لاذت بالصمت، وكان كل ما فعلته أن وقفت هناك محاولة استيعاب اللحظة الأخيرة. وهبت ريح حركت أغصان الأشجار وضربت وجوهنا وكانت كهبة منبعثة من فرن، كهبات جهنم المفاجئة. ونظرت إليَّ آب ثم وجهت ضوء المصباح نحو الماء.

وانتشر الضوء بسرعة على الواجهة فتناثرت عليها بقع ذهبية ما لبثت أن اختفت فجأة. وكانت أيار مستلقية في النهر، تحت صفحة الماء مباشرة، وعيناها مفتوحتان ولا تطرفان، وتنورتها تتمايل مع التيار.

وجاءني صوت من شفتي آب، أنة خافتة.

وأمسكتُ بذراعها وقد انتابني الهلع، ولكنها أفلتت قبضتي وألقت بالمصباح اليدوي ودخلت النهر.

وتبعتها، فتسرب الماء بين ساقي، وهو ما جعلني أنزلق على القاع اللزج. وحاولت الإمساك بتنورة آب ولكني لم أفلح. ونهضت باهتياج.

وحين وصلت إليها، كانت تحدق في أختها الصغيرة وتصرخ:

- حزيران... حزيراااان.

وكانت أيار مستلقية على بعد قدمين تحت الماء وعلى صدرها صخرة ضخمة. وكانت تثقل جسدها وتجعله يرسو في القاع. وأنا أنظر إليها

فكرت: ستنهض الآن، ستزيح آب الصخرة عن صدرها وستنهض بحثا عن شيء من الهواء وسنعود إلى المنزل وننشفها. وكنت أرغب في مد يدي ولمسها وهز كتفها قليلا. لا يعقل أن تموت في النهر. إن ذلك مستحيل.

وكانت يداها هي الجزء الوحيد الذي لم يغرق. فكانتا تطفوان وبدت راحتاها ككوبين صغيرين يهتزان على السطح، والماء يتسلل بين أصابعها ثم يخرج من جديد. إن صورتها لا تزال تقض مضجعي إلى الآن، ولا أقصد صورة عيني أيار وهما مفتوحتان وتحدقان، ولا صورة الصخرة التي كانت فوق جسدها وكأنها شاهدة قبر، وإنما صورة يديها.

وجاءت حزيران وهي تتخبط في الماء. وحين اقتربت من أيار، وقفت إلى جانب آب، والعرق يتصبب من جبينها ويداها تتدليان إلى جانب جسدها. **آه يا أيار.** همست، ثم أشاحت بنظرها وأغلقت عينيها بشدة.

ووجهت نظري صوب ضفة النهر، ورأيت روزالين واقفة هناك والماء يصل إلى كاحلها وجسدها يرتعد بأكمله.

وانحنت آب إلى الماء وأزاحت الصخرة عن صدر أيار. ثم شدتها من كتفيها وجرتها. فأحدث جسدها صوت شفط رهيب عندما بلغ الواجهة. وتدلى رأسها إلى الخلف ولاحظت أن فمها كان مفتوحا قليلا وأن حواف أسنانها كانت ملطخة بالوحل ونباتات النهر عالقة بضفائر شعرها. وأشحت بنظري عنها. لقد أدركت في تلك اللحظة أن **أيار قد ماتت.**

وأدركت آب ذلك أيضا. ولكن ذلك لم يمنعها من وضع أذنها على

صدر أيار والإنصات له. وبعد دقيقة، تراجعت وضمت رأس أيار إلى صدرها، وكأنها ترغب في أن تنصت أيار في تلك اللحظة لقلبها هي، ثم قالت:

- لقد فقدناها.

وأخذت في الارتعاش، وكانت أسناني تصطك ببعضها. ووضعت آب وحزيران ذراعيهما تحت جسد أيار وحاولتا جاهدتين نقلها إلى الضفة. وكان جسدها مشبعا بالماء ومنتفخا. وأمسكت بكاحليها وحاولت تثبيتهما. وبدا أن النهر قد جرف حذاءها.

وعندما مددناها على الضفة، تدفق الماء من فمها وأنفها. وفكرت: **هذه هي الطريقة التي أتت بها سيدتنا إلى النهر القريب من شارلستون. وفكرت أيضا: انظر إلى أصابعها ويديها، وكم كانت غالية.**

وتخيلتها وهي تدحرج الصخرة من الضفة إلى الوادي ثم تستلقي وتضع الصخرة فوقها وتتمسك بها وكأنها رضيع، ثم وهي تنتظر أن يغمر الماء رئتيها. وتساءلت ما إن كانت قد تخبطت وانتفضت نحو السطح خلال لحظاتها الأخيرة، هل رحلت دون أن تصارع، وعانقت الصخرة حتى تمتص كل الألم الذي كانت تشعر به؟ وتساءلت عن كل المخلوقات التي مرت بها وهي تحتضر.

وانحنت حزيران وآب، وقد تبللتا كليا، إلى جانبيها فيما كان البعوض يغني في آذاننا والنهر يجري وكأن شيئا لم يحدث، فمضى يصب في الظلام. وكنت متأكدة من أنهما كانتا تتخيلان لحظات أيار الأخيرة. ولكني لم أكن أرى الرعب على وجهيهما، بل كان يعتليهما فقط رضى بقلب مكسور.

لقد انتظرتا تلك اللحظة نصف عمرهما دون أن تشعرا بذلك حتى.

وحاولت آب إغلاق عيني أيار بأصابعها ولكنهما كانت تصران على البقاء نصف مغلقتين. فقالت حزيران:

- ذلك هو طبع أيار.

وقالت آب:

- وجّهي ضوء المصباح إليها من فضلك.

وكانت كلماتها هادئة وثابتة. ولم أكد أسمعها من شدة ضربات قلبي.

وتحت ذلك الضوء الخافت، نزعت آب الأوراق الخضراء الصغيرة العالقة بضفائر أيار ووضعتها في جيبها.

وأزاحت آب وحزيران كل شوائب النهر عن جسد أيار وملابسها. وأما روزالين- روزالين المسكينة- التي أدركت أنها قد فقدت صديقتها المقربة الجديدة، فقد كانت تقف دون حراك، ولكن ذقنها كان يرتعد لدرجة جعلتني أرغب في مد ذراعي إليه وإيقافه.

وبعد ذلك صدر صوت تدفق من فم أيار لن أنساه ما حييت، تنهيدة وبقبقة طويلة جعلتنا جميعا نتبادل النظرات وقد شعرنا بالارتباك وراودنا أمل حقيقي للحظة في أن تحدث معجزة في آخر المطاف، ولكن ذلك لم يكن سوى جيب من الهواء انبثق فجأة. وانتشر على وجهي وكانت رائحته كرائحة النهر، كقطعة خشبية قديمة متعفنة.

ونظرت إلى وجه أيار وشعرت بموجة من الدوران. وتعثرت في

الشجر ثم انحنيت وتقيأت. وبعد ذلك، وبينما كنت أمسح فمي بكم قميصي، سمعت صوتا كسر الصمت والظلام، صرخة ثاقبة جعلت قلبي يهتز. وحين استدرت، رأيت آب تحت ضوء مصباح حزيران، وكان الصوت قد انطلق من أعماقها. وحين تلاشت الصرخة، أنزلت آب رأسها مباشرة على صدر أيار المثقل بالماء.

ومددت يدي إلى جذع شجرة أرز صغيرة وتمسكت به، وكأن كل شيء من حولي كان يتسرب من بين يدي.

****

- أنت يتيمة إذن؟

قال الشرطي. وكان الشرطي الطويل ذي القصة القصيرة نفسه، إيدي هازلوورست، الذي رافقنا أنا وآب إلى زنزانة زاك.

وكنا أنا وروزالين جالستين على الكراسي الهزازة في غرفة الاستقبال فيما كان هو يجلس أمامنا وبيده دفتر ملاحظات صغير، وكان مستعدا لالتقاط كل كلمة. وكان الشرطي الآخر في الخارج يفتش حائط المبكى ليجد شيئا لم أكن لأتصور ما هو.

وكان كرسيي يهتز بسرعة كانت لتجعلني أسقط في أي لحظة. ولكن روزالين كانت ساكنة ووجهها خال من التعابير.

وكانت آب قد استقبلت الشرطيين عندما عدنا من المنزل بعد عثورنا على أيار، وأرسلتني وروزالين إلى الطابق العلوي، فقالت:

- اذهبا ونشفا نفسيكما من البلل.

ونزعت حذائي ونشفت نفسي بمنشفة بينما كنا نقف إلى جانب النافذة في الطابق العلوي. وشاهدنا رجال سيارة الإسعاف وهو يحضرون أيار من الغابة على نقالة ثم سمعنا الشرطيين يطرحان على آب وحزيران جميع أنواع الأسئلة. وكانت أصواتهم تُسمع من السلم. **نعم، لقد كانت تعاني من الاكتئاب مؤخرا. حسنا، في الحقيقة كانت تصاب بالاكتئاب بين الفينة والأخرى. وكان لديها وضع خاص. لم تكن تستطيع تمييز معاناتها من معاناة الآخرين... لا، لم نجد أي رسالة. تشريح؟ حسنا، نحن نتفهم ذلك.**

وكان السيد هازلوورست يرغب في التحدث إلى الجميع، فتحدث إلينا أيضا. وأخبرته عما حدث بالضبط منذ أن ردت أيار على الهاتف إلى اللحظة التي وجدناها في النهر. ثم بدأ في طرح أسئلة شخصية. ألم أكن تلك الفتاة التي زارت ذلك الفتى الأسود في السجن؟ وماذا كنت أفعل في ذلك المنزل؟ ومن تكون روزالين؟

وشرحت له كل شيء عن وفاة أمي وأنا صغيرة، ثم ذهاب أبي إلى خالقة في أوائل هذا الصيف بعد أن دهمه جرار، وهي القصة التي كنت قد اخترعتها. وقلت إن روزالين هي مربيتي.

- أعتقد أن بإمكانك القول إنني يتيمة. ولكن لي عائلة في فرجينيا. وكانت وصية أبي وهو على فراش الموت أن أذهب للعيش مع العمة بيرني. وهي تنتظر وصولنا أنا وروزالين، وسترسل لنا ثمن تذكرة الحافلة أو ستقود سيارتها بنفسها إلى هنا لتأخذنا معها. إنها تقول دائما إنها متشوقة لمجيئنا، فأجيبها بأنني سآتي قبل أن يبدأ العام الدراسي.

سأكون في السنة الثانية من الثانوية هذه السنة، إنني أكاد لا أصدق ذلك.

وضيق جفنيه وكأنه يحاول المواكبة. لقد كنت أضرب بجميع قواعد الكذب الناجح عرض الحائط. ورغم أنني كنت أذكر نفسي بألا أسهب في الحديث، إلا أنني لم أكن أستطيع التوقف.

- أنا جد مسرورة لأنني سأذهب للعيش معها هناك. إنها لطيفة جدا. ولا يمكنك تخيل كل الأشياء التي اعتادت إرسالها لي على مر السنين، وخاصة مجوهرات الزينة والدبابيب. الواحد تلو الآخر.

وكنت فقط مسرورة لأن آب وحزيران لم تكونا في الغرفة لتسمعا ما كنت أقوله، فقد لحقتا بسيارة الإسعاف إلى بيت العسل لتتأكدا من تسليم جسد أيار بسلامة حيثما كان سيرسل. وكان وجود روزالين في الغرفة يكفي. وكنت أخشى أن تقول شيئا يديننا، شيئا مثل، في الحقيقة، لقد جئنا إلى هنا بعد أن ساعدتني ليلي في الهروب من السجن. ولكنها كانت تجلس وهي مغرقة في التفكير وصامتة تماما.

- وما اسمك العائلي مرة أخرى؟

سألني.

- ويليامز.

وكنت قد أخبرته به مرتين من قبل، ولذلك بدأت في التساؤل عن المستوى الدراسي المطلوب ليصبح المرء شرطيا في تيبورون. وكان يبدو أنه نفس المستوى المطلوب في سيلفان.

واستقام في جلسته أكثر، وقال:

- حسنا، ما لا أفهمه هو ما الذي تفعلينه هنا إذا كنت ستعيشين مع عمتك في فيرجينا؟

وترجمة ذلك هي: **لا أفهم تماما ما تفعله فتاة بيضاء مثلك في بيت سود.**

وأخذت نفسا وقلت:

- حسنا، لقد خضعت عمتي بيرني لعملية. ويتعلق الأمر بشيء يخص النساء. ولذلك قالت روزالين «**لماذا لا نذهب أولا إلى صديقتي آب بوترايت في تيبورون ونقضي عندها بعض الوقت إلى أن تتماثل العمة بيرني للشفاء؟**» فلم يكن من المنطقي الذهاب إلى عمتي وهي في المستشفى.

وقد كتب ذلك بالفعل. وكنت أريد أن أصرخ في وجهه: **لماذا؟ إن الأمر لا يتعلق بي وروزالين والعمة بيرني. إننا نتحدث عن أيار. لقد ماتت، ألم تنتبه لذلك؟**

وكان يفترض أن أكون في غرفتي في تلك اللحظة وأن أبكي بحرقة، ولكنه كان يطرح أكثر الأسئلة غباء في العالم.

- ألم يكن لديك أي أشخاص بيض في سبارتنبرغ لتبقي معهم؟

وترجمة ذلك: **إن أي مكان آخر سيكون أفضل لك من المكوث في بيت أشخاص سود.**

- لا، سيدي، لم يكن لي أحد. لم يكن لي الكثير من الأصدقاء، فأنا لم أكن أنسجم مع الآخرين لسبب أو لآخر، ربما لأنني كنت أنال علامات

جيدة. وفي الحقيقة، عرضت عليَّ إحدى النساء في الكنيسة أن أبقى معها إلى أن تتعافى العمة بيرني، ولكنها أصيبت بالهربس النطاقي ولم يعد ذلك ممكنا.

يا إلهي، فليوقفني أحد ما!

ونظر إلى روزالين وسألها:

- وكيف تعرفين آب؟

وكتمت أنفاسي وأنا على وعي بأن كرسيي الهزاز توقف عن الحركة تماما.

- إنها قريبة زوجي، وقد بقينا على تواصل بعد أن تركني زوجي. فقد كانت قريبته الوحيدة التي كانت تعرف كم كان لعينا.

ورمقتني بنظرة وكأنها كانت تريد أن تقول **أنظري، لست وحدك من يستطيع اختراع كذبة في لمح البصر.**

وأغلق الشرطي دفتر ملاحظاته ووجه أصبعه نحوي وأشار إليَّ باللحاق به إلى الباب. وبعد أن صار بالخارج، قال:

- خذي بنصيحتي واتصلي بعمتك واطلبي منها أن تأتي لتأخذك حتى وإن لم تكن قد تعافت كليا. إنك في بيت سود. هل تفهمين ما أقوله لك؟

وقطبت حاجبي وقلت:

- لا يا سيدي، آسفة، ولكني لا أفهم قصدك.

- ما أقصده هو أنه ليس من الطبيعي أن ... لا ينبغي لك أن.... حسنا أن تحطي من قدرك.

- آه.

- سأعود قريبا. ومن الأفضل ألا أجدك هنا، هل تفهمين ذلك؟

وابتسم ووضع يده العملاقة على رأسي وكأننا شخصان أبيضان يجمع بينهما تفاهم سري.

- حسنا.

وأغلقت الباب خلفه. وفي تلك اللحظة، انكسر ذلك الشيء الذي كان يجعلني متماسكة خلال حديثنا إليه. وعدت إلى غرفة الاستقبال وقد بدأت في النشيج. ولفت روزالين ذراعها حولي ورأيت الدموع تنهمر من عينيها أيضا.

وصعدنا الأدراج إلى الغرفة التي كانت تتشاركها مع أيار. وجرت روزالين الأغطية التي كانت على سريرها وقالت:

- هيا ادخلي إلى السرير.

- وأين ستنامين أنتِ؟

- سأنام هنا.

قالت وهي تزيح الغطاء عن سرير أيار، تلك البطانية ذات اللونين الوردي والبني التي نسجتها أيار، ودخلت روزالين السرير وغرزت وجهها بين ثنايا المخدة. وكنت أعرف أنها كانت تشتم رائحة أيار.

قد تعتقد أنني حلمت بأيار، ولكن زاك هو من أتاني عندما استسلمت للنوم. ولا أستطيع استرجاع ما حدث في الحلم ولكني استيقظت بأنفاس متقطعة قليلا، وعرفت أن الحلم كان عنه. وكان يبدو قريبا وحقيقيا، وكأني كنت أستطيع الجلوس وتلمس وجنتيه بأطراف أصابعي. ثم تذكرت أين كان حينها وغمرني شعور رهيب بالثقل. وتخيلت سريره وتحته حذاؤه، وفكرت في أنه ربما كان لا يزال مستيقظا في تلك اللحظة، يحدق في السقف وينصت إلى أنفاس الفتيان الآخرين.

وأجفلني صوت خشخشة في الغرفة ومررت بلحظة من تلك اللحظات التي لا تعرف فيها أين أنت حقا؛ لحظة تكون فيها نصف صاح؛ واعتقدت أنني كنت في بيت العسل ولكني أدركت أخيرا أن الصوت صدر عن روزالين وهي تستدير فوق السرير. ثم تذكرت حينها، تذكرت أيار. تذكرتها وهي في النهر.

وكان عليَّ أن أنهض وأتسلل إلى الحمام لأرش وجهي بالماء. وكنت أقف هناك وضوء المصباح الليلي الخافت ينير المكان عندما نظرت حولي ورأيت حوض الاستحمام الذي ألبسته أيار الجوارب الحمراء وابتسمت، ولم أستطع منع نفسي من ذلك. وكان ذلك الجانب الذي لم أكن أرغب في نسيانه من أيار.

وأغلقت عيني واسترجعت أفضل صورها. رأيت لمعان انعكاس ضفائرها المجعدة على رشاش الحديقة، وأصابعها وهي ترتب فتات بسكويت غراهام المالح بتفان لتنقذ حياة صرصور واحد. ورأيت القبعة التي كانت تعتمرها وهي ترقص الكونغا مع بنات مريم. وفوق

ذلك كله، رأيت توهج الحب والألم الذي كان يعتري وجهها في أغلب الأحيان والذي ما لبث أن أحرقها.

****

بعد التشريح، وبعد أن جعلت الشرطة انتحار أيار رسميا، وبعد أن ألبستها دار تجهيز الجنائز أبهى حللها، عادت إلى المنزل الوردي. وفي وقت مبكر من صباح يوم الأربعاء، الخامس من آب، وقفت عربة نقل موتى سوداء عند المدخل، ونقل خمسة رجال يرتدون سترات سوداء تابوت أيار إلى غرفة الاستقبال. وحين سألت آب عن سبب إدخال نعش أيار من الباب الأمامي، قالت:

- سنجلس معها إلى أن تدفن.

ولم أكن أتوقع ذلك، فقد كان جميع من أعرفهم في سيلفان ينقلون أحباءهم من دار تجهيز الجنائز إلى المقبرة مباشرة.

وقالت آب:

- سنجلس معها حتى نستطيع توديعها، وذلك يسمى المجالسة. إذ يحدث أحيانا أن يستعصي على الناس استيعاب موت شخص ما ويصعب عليهم توديعه. وهذه اللحظة تمكنهم من ذلك.

أذا رأيت شخصا ميتا أمامك في غرفة معيشتك، فإنك ستستوعب ذلك بصورة أفضل بالتأكيد. لقد كان من الغريب التفكير في وجود شخص ميت داخل البيت، ولكن إن كان ذلك يساعد على التوديع بصورة أفضل، فلا بأس. لقد كنت أرى المغزى من ذلك.

وأضافت آب:

- إن ذلك يساعد أيار أيضا.

- يساعد أيار؟

- تعرفين، إن لنا روحا يا ليلي، وعندما نموت، فإنها تعود إلى خالقها، ولكن لا أحد يعرف كم يستغرق ذلك من الوقت. قد يستغرق بضع أجزاء من الثانية، أو ربما أسبوعا أو اثنين. وعلى كل حال، عندما نجلس مع أيار، نحن نقول لها «**لا بأس يا أيار، نحن نعرف أن هذا منزلك ولكن يمكنك الذهاب الآن. لا بأس في ذلك.**»

وطلبت آب أن يُنزل النعش، الذي كان موضوعا على طاولة خاصة به ولها عجلات، أمام سيدتنا ذات الأصفاد ثم فتحه. وبعد أن غادر رجال دار تجهيز الجنائز، اقتربت آب وروزالين من النعش وحدقتا في أيار ولكني بقيت في الوراء. وكنت أدور حول المكان وأنظر إلى نفسي في مرايا الغرفة عندما أحضرت حزيران التشيللو وبدأت في العزف، لقد عزفت «آه يا سوزانا» وهو ما جعلنا جميعا نبتسم. وما من شيء يجعلك ترتاح خلال فترة المجالسة أكثر من شيء طريف. واقتربت من النعش ووقفت بين آب وروزالين.

وكانت أيار القديمة نفسها باستثناء أن جلدها كان مشدودا أكثر إلى عظام وجهها. وكان ضوء المصباح المنعكس على النعش يجعلها تلمع. لقد ألبسوها فستانا أزرق ملكيا لم أره من قبل وكانت به أزرار لؤلؤية وله ياقة مستديرة تشبه الزورق، وكانت ترتدي قبعتها الزرقاء كذلك. وبدا وكأنها ستفتح عينيها في أي لحظة وتبتسم لنا.

لقد كانت تلك المرأة التي علمت أمي كل ما يتعلق بالتخلص من الصراصير بلطف. وبسطت أصابعي وقمت بإحصاء الأيام التي مرت منذ أخبرتني أيار أن أمي كانت تسكن هنا من قبل. ستة أيام. ولكنها بدت وكأنها ستة أشهر. وكنت لا أزال متحرقة لإخبار آب بما كنت أعرفه. وأعتقد أنه كان بإمكاني إخبار روزالين، ولكني في الحقيقة كنت أريد أن أخبر آب بالذات. فهي الوحيدة التي كانت ستفهم ما كان ذلك يعنيه لي.

وأنا أقف أمام النعش، ثم وأنا أنظر إلى آب، انتابتني رغبة ملحة في أن أخبرها في تلك اللحظة. أن أنطق كل شيء وكفى. **لست ليلي ويليامز. أنا ليلي أوينز، وأمي كانت تسكن معكم هنا. لقد أخبرتني أيار.** ثم سيخرج كل ما تبقى. ولكني عندما نظرت إليها، كانت تمسح الدموع عن وجهها وتبحث عن منديل في جيبها، وأدركت أنه سيكون من الأنانية إضافة شيء آخر إلى قلبها المكلوم برحيل أيار.

وكانت حزيران تعزف بعينين مغلقتين وكأن دخول روح أيار إلى الجنة كان يتوقف كليا على عزفها. لم يسبق لك أن سمعت تلك الموسيقى من قبل وكيف كانت تجعلنا نؤمن أن الموت مجرد باب إلى عالم آخر.

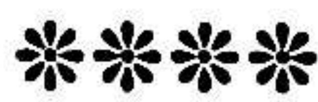
وجلست آب وروزالين أخيرا ولكني لم أستطع مغادرة النعش منذ أن وقفت إلى جانبه. وكانت ذراعا أيار مشبوكتين على صدرها، كجناحين متشابكين، وكانت تلك وضعية لم أجد فيها أي إطراء. فمددت ذراعي وحملت يدها، وكانت باردة جدا ولكني لم أكترث لذلك. وقلت لها: **أتمنى أن تكوني أسعد هناك في الجنة. أتمنى ألا تحتاجي لأي نوع من الحيطان هناك.** وإذا رأيت مريم، سيدتنا، **أخبريها أنهم**

يعطون الأولوية للمسيح هنا، ولكننا نبذل ما في وسعنا لإبقاء ذكراها حية. ولسبب ما كنت أشعر أن روح أيار تحوم حول المكان، في ركن ما من السقف، وتسمع كل كلمة نقولها، حتى وإن لم نكن ننطقها عاليا.

وأتمنى أن تبحثي عن أمي. أخبريها أنك رأيتني، وأنني على الأقل بعيدة عن تي-ري في الوقت الحالي. قولي لها: إن ليلي ترغب في أن تعطيها إشارة بأنك تحبينها حتى وإن لم تكن كبيرة، ولكن فلترسلي إشارة من فضلك.

وتنفست بعمق، وكنت لا أزال أمسك بيدها الميتة وأفكر في أن أصابعها كانت تبدو كبيرة جدا بين أصابعي. ثم قلت لها: **أعتقد أنني سأودعك الآن.** وارتعدت ومر شعور لاسع فوق رموشي. وانسابت الدموع على خدي وتقاطرت على فستانها.

ولكني قبل أن أغادر، عدلت من وضعيتها، فطويت يديها ووضعتهما تحت ذقنها وكأنها كانت تفكر في المستقبل بجدية.



عند الساعة العاشرة صباحا، وبينما كانت حزيران تعزف المزيد من الألحان لأيار وروزالين تفتش المطبخ، جلست عند أدراج الشرفة الخلفية وكنت أحاول تسجيل كل شيء في مذكرتي، ولكنني كنت في واقع الأمر أنتظر آب. وكانت قد توجهت إلى حائط المبكى. وتخيلتها تخرج ألمها وتملأ به الفراغات الموجودة بين الأحجار.

وعندما لمحتها عائدة من هناك، توقفت عن الكتابة وبدأت في

الشخبطة على هامش الصفحة. وتوقفَت هي عند منتصف الطريق وتطلعت إلى المدخل ثم رفعت يديها فوق عينيها محاولة حجب أشعة الشمس عنهما وصاحت أنظروا من هنا! وأطلقت العنان لرجليها.

ولم يسبق لي أن رأيت آب تركض من قبل، ولم أصدق السرعة التي تسارعت بها خطاها وساقاها الطويلتان تمتدان تحت تنورتها، وهتفت لي:

- إنه زاك.

فرميت مذكرتي وانطلقت راكضة من الأدراج.

وسمعت روزالين ورائي في المطبخ تخبر حزيران بأن زاك قد عاد، وتوقفت موسيقى حزيران في وسط نوتة موسيقية. وحين وصلت إلى المدخل، كان زاك ينزل من سيارة كلايتون. فاحتضنته آب فيما كان كلايتون ينظر إلى الأرض مليا وهو يبتسم.

وحين أرخت آب قبضتها عن زاك، لاحظت كم أصبح هزيلا. ووقف ينظر إليَّ ولم أستطع فهم التعبير الذي كان يعتلي وجهه. وتقدمت نحوه متمنية لو أنني كنت أعرف ما ينبغي أن أقوله في تلك اللحظة. وهبت ريح جعلت خصلة من شعري تنزل على وجهي فمد يده إليها وأبعدها عن وجهي ثم ضمني إليه بحرارة للحظات.

- هل أنت بخير؟

قالت حزيران، وقد أتت بعجلة وأمسكت فكه بيدها، وواصلت:

- لقد قلقنا عليك حد الموت.

فرد زاك:

- أنا بخير الآن.

ولكن شيئا ما لم أستطع التعرف عليه كان قد تلاشى من وجهه.

وقال كلايتون:

- من الواضح أن الفتاة التي كانت تبيع التذاكر في قاعة السينما رأت كل شيء. لقد استغرقت وقتا طويلا، ولكنها أخبرت الشرطة في الأخير عمن ألقى القنينة. ولذلك أُسقِطت التهمة عن زاك.

فقالت آب:

- شكرا لك يا رب.

وتنفسنا جميعا الصعداء في نفس الوقت.

- لقد رغبنا فقط في المجيء وتعزيتكم في أيار.

قال كلايتون، وعانق آب ثم حزيران. وعندما استدار إليَّ وضع يديه على كتفي دون أن يعانقني تماما، وقال:

- مسرور برؤيتك من جديد.

ثم نظر إلى روزالين التي كانت على مقربة من السيارة، وقال لها:

- وأنت كذلك يا روزالين.

وأخذت آب بيد روزالين وجرتها إليها ثم استمرت في الإمساك بيدها كما كانت تفعل بيد أيار أحيانا، وهنا فاجأني أنها كانت تحب روزالين، وأنها

قد تود تغيير اسمها ليصبح تموز وضمها إلى رابطتهم الأخوية.

وقال زاك:

- لم أستطع تصديق الأمر حين أخبرني السيد فورست عن أيار.

ونحن نتوجه صوب المنزل ليتمكن كلايتون وزاك من الجلوس قرب النعش، كنت أفكر: **ليتني لففت شعري. ليتني صففته بإحدى التصفيفات الجديدة التي تشبه خلية النحل.**

واجتمعنا كلنا حول أيار، وكان كلايتون يطرق رأسه فيما كان زاك يحدق في وجهها.

ووقفنا هناك وأطلنا الوقوف. وأخذت روزالين تدندن، وأعتقد أن ذلك كان من جراء غرابة الموقف، ولكنها ما لبثت أن توقفت.

ونظرت إلى زاك، وكانت الدموع تنهمر على خديه. وقال:

- أنا آسف، لقد كان ذلك خطئي. لو أنني وشيت بالفتى الذي رمى بالقنينة لما اعتقلت وما كان أي شيء من هذا ليحدث.

وكنت أعتقد أنه لن يعرف أبدا أن اعتقاله هو ما جعل أيار تذهب إلى النهر. ولكن يبدو أن أملي كان مبالغا فيه. وسألته:

- من أخبرك؟

وحرك يده وكأن الأمر لم يكن ذا أهمية، وقال:

- لقد سمعت أمي ذلك من أوتيس. وهي لم تكن ترغب في أن

تخبرني ولكنها عرفت أن أحدا ما سيخبرني عاجلا أم آجلا.

ومسح وجهه وتابع:

- يا ليتني....

ومدت آب ذراعها ولمست ذراعه وقالت:

- حسنا، الآن، أعتقد أن بوسعي القول لو أنني أخبرت أيار منذ البداية عن اعتقالك عوض إخفاء ذلك عنها، ما كان أي من هذا ليحدث. أو لو أنني منعتها من الذهاب إلى الحائط تلك الليلة، ما كان أي من هذا ليحدث. وماذا لو أنني لم أنتظر لوقت طويل قبل أن ألحق بها...

ونظرَت إلى جثة أيار وقالت:

- إن أيار من فعل ذلك يا زاك.

ولكني مع ذلك كنت أخشى أن يجد اللوم طريقه إليهما ويسكن فيهما، فتلك هي عادته.

****

- يمكنك مساعدتي الآن في تدثير قفران النحل.

قالت آب لزاك عندما هما بالمغادرة.

- هل تذكر كيف فعلنا ذلك عند وفاة إيستر؟

ونظرت إلي وقالت:

- لقد كانت إيستر إحدى بنات مريم وتوفيت العام الماضي.

- طبعا، أستطيع المساعدة.

رد زاك، وسألتني آب:

- هل تودين مرافقتنا يا ليلي؟

- نعم، سيدتي.

ولم تكن لدي أي فكرة عما كانت تعنيه بتدثير الخلايا، ولكني لم أكن لأفوت ذلك مهما حدث.

وبعد أن ودعنا كلايتون، لبسنا خوذنا وأحجبتنا واتجهنا نحو القفران. وكنا نحمل أقمشة سوداء قصت على شكل مربعات كبيرة، وشرحت لنا آب كيفية وضع غطاء مربع على كل صندوق ثم تثبيته بلبنة والتأكد من ترك الباب مفتوحا.

وتابعتُ آب وهي تقف قليلا أمام كل قفير وأصابعها ملتحمة ببعضها تحت ذقنها. ولماذا نفعل هذا بالضبط؟ كنت أود معرفة ذلك ولكن الأمر بدا كطقس مقدس لم يكن يحق لي أن أقاطعه.

وحين انتهينا من تغطية جميع القفران، جلسنا تحت أشجار الصنوبر وأخذنا في التحديق فيها، في تلك البلدة الصغيرة ذات البنايات السوداء. بلدة في حداد. وحتى الطنين الذي كان ينبعث منها أصبح كئيبا تحت الأغطية السوداء، ومنخفضا وطويلا كصوت الصفارات الضبابية في البحر ليلا.

وخلعت آب خوذتها وذهبت إلى كراسي الحديقة الخلفية ولحقنا بها أنا وزاك. وجلسنا والشمس خلفنا ورنونا إلى حائط المبكى.

وقالت آب:

- كان النحالون منذ زمن بعيد يدثرون القفران عندما يتوفى أحد ما من العائلة.

فسألتها:

- ولماذا كانوا يفعلون ذلك؟

- يفترض أن تدثير القفران يمنع النحل من الرحيل. أتعلمين، إن آخر ما قد يرغبون فيه هو أن يحصل تطريد النحل عندما يتوفى أحد ما. فقد كان يفترض أن يساعد وجود النحل على بعث الحياة في الشخص المتوفى من جديد.

واتسعت عيناي.

- أحقا؟

وقال زاك:

- أخبريها عن أريستاوس.

- آآآ، حسنا، أريستاوس، يجب أن يعرف جميع النحالين هذه القصة.

وابتسَمت لي بطريقة جعلتني أشعر أنني كنت على وشك الحصول على الدرس الثاني في تربية النحل، بعد أن كان الدرس الأول هو التعرض للسع.

- لقد كان أريستاوس أول من ربى النحل. وذات يوم توفيت جميع نحلاته، وكان ذلك عقابا له من الآلهة عن شيء سيء كان قد قام به. وطلبت إليه الآلهة تقديم ثور كقربان يُظهر به أسفه، وأن يعود إلى جمجمة الثور بعد تسعة أيام وينظر بداخلها. وقد نفذ هو ما طلبته منه الآلهة تماما، وعندما عاد إلى الجمجمة رأى ثولا من النحل يخرج منها. لقد كان ذلك نحله وقد عاد إلى الحياة من جديد، فاصطحبه معه إلى المنزل، وبعد ذلك بدأ الناس يعتقدون أن النحل يهزم الموت. وكان ملوك الإغريق يبنون قبورهم على شكل قفران نحل لذلك السبب.

وجلس زاك ومرفقاه على ركبتيه وهو يحدق في دائرة العشب وكانت لا تزال ممتلئة وخضراء زمردية من رقصنا بالرشاش، وقال:

- عندما تطير نحلة، ترتفع روح.

ونظرت إليه نظرت فارغة. فقالت آب:

- إنها مقولة قديمة، وهي تعني أن الروح تنبعث من جديد في الحياة الأخرى عندما يحضر النحل.

- وهل يوجد ذلك في الإنجيل؟

وضحكت آب وقالت:

- لا، ولكن عندما كان المسيحيون يختبئون من الروم في سراديب الموتى، كانوا ينقشون صور النحل على الحيطان. وذلك ليذكروا بعضهم البعض بأنهم سيبعثون بعد أن يموتوا.

وأقحمت يدي تحت فخذي وعدلت من جلستي، وكنت أحاول

تخيل سراديب الموتى تلك. وسألت:

- وهل تعتقدين أن وضع أقمشة سوداء على القفران سيساعد أيار على الدخول إلى الجنة؟

فأجابت أب:

- طبعا لا. إن تدثير القفران بالأقمشة السوداء من أجلنا نحن. أنا أفعل ذلك لنتذكر أن الحياة تنتهي بالموت وأن الموت يفسح المجال للحياة.

واتكأت على كرسيي، وحدقت في السماء اللامتناهية وامتدادها فوق العالم كغطاء قفير. وتمنيت أكثر من أي شيء آخر لو استطعنا دفن أيار في قبر على شكل قفير، وأن أستطيع أنا نفسي الاستلقاء في قبر على شكل قفير والانبعاث من جديد.

****

عندما أقبلت بنات مريم، كن محملات بالأكل. وفي آخر مرة رأيتهن فيها، كانت كويني وابنتها فيوليت تعتمران أصغر القبعات في المجموعة ولكنهما كانتا عاريتي الرأس هذه المرة. وأعتقد أن ذلك كان لأن كويني كانت تكره تغطية بياض شعرها الذي كانت تفتخر به، وأما فيوليت التي فاق عمرها الأربعين فلم تكن تجرؤ على ارتداء قبعة ما لم تفعل والدتها ذلك. ولو أن كويني ذهبت إلى المطبخ ووضعت رأسها في الفرن، لفعلت فيوليت الشيء نفسه.

وكانت لينيل ومابيلي وكريسي والفتاة الحلوة تلبسن قبعات سوداء أقل بهرجة بكثير من القبعات التي كن يلبسنها سابقا، ما عدا قبعة لينيل

التي كان بها لثام وريشة حمراوان. ونزعن قبعاتهن ووضعنها في صف على البيانو، حتى لكنت ترغب في القول، **وما الغاية من ذلك؟**

وانطلقن في العمل، فقطعن شرائح اللحم والفلفل الحلو والبيض المحشو. وكانت لدينا جميع أنواع المأكولات التي تعد خلال الجنائز من فاصوليا خضراء ولفت ومعكرونة بالجبن وكعكة الكراميل. وتناولنا طعامنا في أطباق ورقية في المطبخ ونحن وقوف، وكنا نقول إن أيار كانت لتحب كل ما أعددناه.

وحين امتلأنا إلى درجة الرغبة في أخذ قيلولة، توجهنا إلى غرفة الاستقبال وجلسنا مع أيار، وكانت البنات تمررن بينهن زبدية خشبية بها شيء يطلقن عليه الترنجبين، وهو خليط مملح من بذور عباد الشمس والسمسم واليقطين والرمان يرش عليه العسل ثم يدخل إلى الفرن. وكن يأكلنه بالحفن ويقلن إنهن لا يتخيلن الجلوس بقرب شخص ميت دون أكل تلك البذور لأنها كانت تمنعهن من الشعور بالإحباط.

وقالت مابيلي:

- إنها تبدو بصورة جيدة، أليس كذلك؟

وشخرت كويني وقالت:

- بما أنها تبدو جميلة، ربما علينا وضعها في نافذة العرض التي تمر بجانبها السيارات في دار تجهيز الجنائز.

- آه يا كويني!

صاحت مابيلي. وانتبهت كريسي إلى أننا أنا وروزالين لم نكن نعرف

ما كن يتحدثن عنه وقالت:

- إن في دار تجهيز الجنائز في البلدة نافذة عرض يمكنك المرور بجانبها بالسيارة. وقد كانت تلك الدار بنكا في السابق.

وأضافت كويني:

- والآن هم يضعون النعش عند النافذة التي كنا نمر بها لصرف شيكاتنا. ويستطيع الناس قيادة السيارة بمحاذاتها لإلقاء نظرة وداع دون أن ينزلوا من سياراتهم. بل إنهم يرسلون لك أيضا دفتر زوار لإمضائه.

وقالت روزالين:

- هل أنت جادة؟

فأجابتها كويني:

- نعم، كل الجدية.

وربما كانتا تقولان الحقيقة، إلا أن حديثهما لم يكن يبدو جادا، لقد كانتا تتمايلان على بعضهما وتضحكان، وكان جثمان أيار إلى جانبهما.

وقالت لينيل:

- لقد مررت من هناك بسيارتي ذات مرة لإلقاء نظرة وداع على السيدة لمار بعد أن توفيت لأنني كنت أعمل لديها في ذلك الحين. وكانت السيدة الجالسة إلى جانب نعشها عند النافذة هي نفسها موظفة البنك، وعندما مررت بسيارتي بمحاذاة النافذة قالت:

- يوم سعيد.

واستدرت نحو آب التي كانت تمسح الدموع التي ملأت عينيها من جراء الضحك، وقلت لها:

- لن تسمحي لهم بوضع أيار عند نافذة البنك، أليس كذلك؟

فأجابت الفتاة الحلوة:

- لا تقلقي بشأن ذلك يا عزيزتي، إن النافذة في دار تجهيز جنائز البيض. وهو وحدهم الذين يملكون ذلك القدر من الأموال الذي يجعلهم يأتون بشيء بذلك القدر من التفاهة.

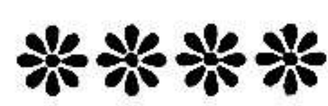
وانفجرن ضاحكات من جديد، ولم أستطع منع نفسي من الضحك لأني شعرت بالارتياح لأن الناس لن يحظوا بفرصة المرور بسياراتهم بمحاذاة نافذة دار تجهيز الجنائز لرؤية أيار من جهة، ومن جهة أخرى، لأن ما من أحد كان ليستطيع منع نفسه من الضحك وهن يضحكن.

ولكني سأخبرك بالسر الذي لم تنتبه له أي منهن، ولا حتى آب نفسها، وهو أكثر شيء بعث السرور في قلبي. ذلك أن الفتاة الحلوة قالت ما قالته وكأنني واحدة منهن. ولم يقل أي أحد في الغرفة: **ماذا تظنين أنك تفعلين وأنت تتحدثين عن البيض بهذه الطريقة وبيننا واحدة منهم**. وأدركت أنهن لم تفكرن حتى أني كنت مختلفة عنهن.

وإلى غاية تلك اللحظة، كنت أعتقد أن الهدف الأسمى هو أن يتفاهم البيض والسود، ولكني بعد ذلك فكرت في أن اختفاء لون البشرة كان أفضل من ذلك بكثير. وفكرت في ذلك الشرطي، إيدي

هازلوورست، وهو يقول إنني كنت أحط من قدري بمكوثي في بيت هؤلاء النساء السوداوات، ولم أفهم في حياتي كلها كيف آلت الأمور لما آلت إليه، وكيف أصبحت النساء السوداوات الأحط قدرا. لقد كان يكفيك النظر إليهن لتعرف كم كن مميزات، وكأنهن كنز مختفي بيننا. إيدي هازلوورست، يا للهراء.

وشعرت بالدفء بداخلي تجاههن، وفكرت في أنني حين أموت، سأكون مسرورة بعرضي في نافذة البنك لتضحك بنات مريم بهستيرية.



في الصباح الثاني من فترة المجالسة، وقبل أن تصل بنات مريم بوقت طويل، وحتى قبل أن تنزل حزيران من الطابق العلوي، وجدت آب رسالة تركتها أيار قبل انتحارها وكانت مشبوكة تحت جذوع سنديانة، على مقربة من المكان الذي ماتت فيه أيار. وكانت الغابة قد دفنتها تحت الأوراق التي تساقطت حديثا، تلك التي تسقط عند الليل.

وكانت روزالين تحضر كعكة كريما الموز على شرف أيار وكنت أجلس على الطاولة منشغلة بحبوب الإفطار ومحاولة إيجاد شيء يستحق المتابعة على راديو الترانزستر عندما اقتحمت آب المطبخ وهي تمسك الرسالة بكلتا يديها وكأنها تخشى أن تسقط منها الكلمات إذا لم تتعامل معها بحذر.

وصاحت وهي تنظر إلى الأعلى:

- حزيران، انزلي إلى هنا. لقد وجدت رسالة من أيار.

وفرشت آب الرسالة على الطاولة ووقفت أمامها ويداها مضغوطتان على بعضهما. وأطفأتُ الراديو البلاستيكي وحملقت في الورقة المتجعدة والكلمات التي بهتت من طول بقائها في الخارج.

وتخبطت رجلا حزيران الحافيتان على الأدراج ثم اقتحمت الغرفة.

- يا إلهي يا آب، ماذا تقول الرسالة؟

- إنها... إنها تشبه أيار كثيرا.

قالت آب، ورفعت الرسالة ثم قرأتها لنا.

عزيزتيَّ آب وحزيران،

أنا آسفة لتركِكما بهذه الطريقة. أكره أن أراكما حزينتين ولكنني أفكر في الفرحة التي ستغمرني بلقاء نيسان وأمي وأبي وجدتي. تخيلانا هناك معا وسيخفف ذلك عنكما. أنا متعبة من حمل عبء العالم فوق كتفيَّ. سأرتاح الآن. لقد حان الوقت لأموت، لقد حان الوقت لأحيا. أرجوكما، لا تفسدا الأمر.

مع حبي،

أيار

ووضعت آب الرسالة واستدارت باتجاه حزيران. وفتحت ذراعيها على مصراعيها وتقدمت نحوها، واحتضنا بعضهما كما تحتضن أخت كبيرة أختها الصغيرة، صدرا إلى صدر وذقناهما فوق عنقي بعضهما.

وبقيتا كذلك لمدة طويلة جعلتنا أنا وروزالين نتساءل ما إن كان علينا مغادرة الغرفة، ولكنهما تركتا بعضهما وجلسنا جميعا وسط رائحة كعكة كريما الموز.

وقالت حزيران:

- هل تعتقدين أن الوقت كان قد حان لتموت حقا؟

وأجابت آب:

- لا أعرف، ربما، ولكن أيار كانت محقة في أمر واحد وهو أن الوقت قد حان لنعيش نحن. لقد كانت تلك وصيتها يا حزيران، وعلينا أن ننفذها. أليس كذلك؟

- ماذا تقصدين؟

قالت حزيران. وتابعنا آب وهي تمشي نحو النافذة وتضع يدها على مساحة العمل في المطبخ، وتنظر إلى السماء التي كان لونها أزرق مائلا إلى الخضرة وكانت تلمع كقماش التفتا.

- ماذا يا آب؟

وعندما استدارت آب، كان يبدو عليها الإصرار.

- سأقول لك شيئا يا حزيران.

ومشت ووقفت أمامها.

- لقد عشت نصف حياة بما يكفي. لقد كانت أيار تقول مُتْ عندما

يحين وقت موتك، واحيَ عندما يكون وقت عيشك. لا تعش نصف حياة ولكن عش بكل جوارحك وكأنك لا تخاف شيئا.

وقالت حزيران:

- لا أعرف ما الذي تتحدثين عنه.

- تزوجي نيل.

- ماذا؟

- منذ أن تراجع ميلفين إدواردز عن الزواج بك قبل سنوات عديدة، أصبحت تخشين الحب وترفضين أن تجربي حظك. وكما قالت أيار، لقد حان الوقت لكي تعيشي. لا تفسدي الأمر.

وفغرت حزيران فاهها ولم تنبس شفتاها بكلمة.

وفجأة امتلأ الجو برائحة الحريق. وفتحت روزالين الفرن واجتثت الكعكة منه لتجد أن الجزء المصنوع من بياض البيض قد احترق عن كامله.

وقالت آب:

- سنأكلها هكذا، إن بعض الحلوى المحروقة لن تؤذي أحدا.

****

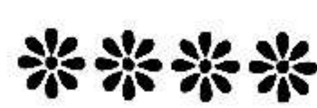
استمرت فترة المجالسة أربعة أيام. وكانت آب تحمل رسالة أيار معها على الدوام، وتضعها في جيبها أو تحت حزامها عندما كانت تلبس

فستانا دون جيوب. وكنت تابع حزيران، وقد أصبحت أكثر هدوءا منذ أثارت آب موضوع نيل. ولم تكن تشرد بالضبط، وإنما كان الأمر أشبه بالتأمل. وكنت ألمها جالسة قرب النعش وجبهتها مستندة إليه، وكنت لتدرك أنها كانت تفعل ما هو أكثر من تودع أيار، لقد كانت تحاول أن تجد أجوبتها للأشياء.

وذات بعد ظهيرة ذهبنا أنا وآب وزاك إلى قفران النحل ونزعنا عنها الأقمشة السوداء. وقالت آب إنه لا يمكننا تركها كذلك لفترة طويلة لأن النحل حفظ تفاصيل خليته ومن شأن تغيير كذاك أن يربكه. وقد لا يجد طريقه إلى الخلية من جديد. **اسأليني عن ذلك**. فكرت.

وكانت بنات مريم تأتين كل يوم قبل الغداء مباشرة وتجلسن في غرفة الاستقبال مع أيار طوال فترة ما بعد الظهر وتحكين قصص عنها. وكنا نبكي كذلك ولكنني كنت أشعر أننا قد بدأنا في تقبل أمر توديعها. وكل ما كنت آمله هو أن تبادلنا أيار الشعور نفسه.

وكان نيل يبقى في المنزل كما تفعل بنات مريم، وكان يبدو مرتبكا تماما من الطريقة التي كانت تحدق بها حزيران في وجهه. وكانت بالكاد تستطيع عزف التشيللو لأن ذلك كان يتطلب أن تترك يديه. ولأقول الحقيقة، كنا جميعا نقضي نفس الوقت الذي نمضيه في النظر إلى أيار وهي تنتقل إلى الحياة التالية في تتبع حزيران ونيل.



وبعد ظهر اليوم الذي أتت فيه دار تجهيز الجنائز لنقل جثمان أيار لدفنها، كان النحل يئز حول زجاج النافذة الأمامية. وعند حُمل النعش

في عربة نقل الموتى، ارتفع طنين النحل واختلط مع ألوان آخر بعد الظهر. الذهبي الأصفر والبني الباهت.

وكنت لا أزال أسمع الطنين عند المقبرة، ولو أننا كنا بعيدين بأميال في مقبرة للسود بها شواهد منهارة وأعشاب ضارة. وحملتِ الرياح الصوت بينما كنا متجمعين معا ونتابع نعش أيار وهو ينزل بداخل القبر. ومررت آب كيسا ورقيا مليئا بالترنجبين ونثرنا البذر في الحفرة مع النعش، وامتلأت أذني بطنين النحل ولا شيء غيره.

وفي تلك الليلة، حين خلدت إلى فراشي وأغلقت عيني، مر طنين النحل فوق جسدي وفوق الأرض كلها. لقد كان ذلك أقدم صوت على وجه البسيطة، صوت الأرواح وهي تعبر إلى السماء البعيدة.

****

تقوم الخادمات بعشرة ملايين رحلة بحث عن الطعام لجمع ما يكفي من الرحيق لصنع رطل من العسل

Bees of the World

الفصل الحادي عشر

بعد دفن أيار، أوقفت آب الأعمال المتعلقة بصنع العسل وبيعه وحتى دوريات تفقد القفران. وكانت هي وحزيران تأخذان الوجبات التي كانت تعدها روزالين إلى غرفتيهما. فكنت نادرا ما أرى آب باستثناء فترة الصباح حين كانت تجتاز الحديقة متوجهة نحو الغابة. وكانت تلوح لي وحتى عندما كنت أركض نحوها وأسألها عن وجهتها وما إن كنت أستطيع مرافقتها، كانت تبتسم لي وتقول ليس اليوم وإنها كانت لا تزال في حداد. وكانت أحيانا تبقى في الغابة حتى بعد أن يمر وقت الغداء.

وكان عليَّ التعايش مع رغبتي الملحة في القول **ولكنني أحتاج إلى التحدث معك**. يا لغرابة الحياة. لقد توانيت لأكثر من شهر عن إخبار آب عن أمي وكان بإمكاني فعل ذلك بكل سهولة، وحين أصبحت أتحرق لإخبارها، لم يكن بإمكاني ذلك. فلا يمكنك أن تقطع حداد المرء لتخبره بمشاكلك.

وكنت أساعد روزالين قليلا في المطبخ ولكن كان بإمكاني في غالب الأحيان التسكع والكتابة في مذكرتي. وكتبت أشياء كثيرة من كل قلبي إلى أن ملأتها عن آخرها.

وفاجأني كثيرا مدى اشتياقي لتفاصيل حياتنا العادية، لأمور بسيطة

كصب الشمع داخل القوالب أو إصلاح صندوق خلية مكسر، أو الركوع بين آب وحزيران لأداء الصلاة الليلية أمام سيدتنا.

وكنت أقصد الغابة بعد الظهيرة، وحين أتأكد من أن آب لم تكن هناك، كنت أختار شجرة ما وأقول: **إذا حط عصفور على تلك الشجرة قبل أن أعد إلى العشرة، ستكون تلك رسالة من أمي تقول فيها إنها تحبني.** وحين كنت أصل إلى سبعة، كنت أبطئ العد، وأمطط الكلمات. وأحيانا كنت أعد إلى الخمسين دون أن يحط أي عصفور.

وكنت أدرس خريطة كارولاينا خلال الليل عندما كان الجميع نياما وأحاول تبين مكان يمكننا أنا وروزالين الذهاب إليه. ولطالما أحببت رؤية المساكن المطلية بألوان قوس قزح في شارلستون ومصادفة أحصنة حقيقية وعربات في شوارعها. إلا أنه وبقدر ما كان ذلك مغريا لي، فقد كانت فكرة أن نغادر المنزل الوردي تكاد تحطمني. وحتى لو حدثت معجزة وظهرت شاحنة شمام أخرى وأخذتنا إلى هناك، فقد كان علينا أنا وروزالين إيجاد عمل واكتراء منزل وتأمل ألا تُطرَح علينا أي أسئلة.

ولم أكن أرغب حتى في مغادرة سريري أحيانا. واعتدت على ارتداء سراويلي الداخلية التي كانت عليها أسماء الأيام بفوضوية، فكان يحدث أن ألبس يوم الاثنين سروالا داخليا كتب عليه الخميس. ولم أكن أكترث لذلك.



لم أكن أرى حزيران إلا عندما كان يأتي نيل، وكان يأتي يوميا. فكانت

تخرج مرتدية أقراط دائرية كبرى، وكانا يأخذان السيارة ويقطعان بها مسافات طويلة. وكانت حزيران تقول إن ذلك يخفف عنها كثيرا. وإن الريح ترتب أفكارها والمناظر الطبيعية تجعلها ترى الحياة التي تنتظر أن تُعاش. وكان نيل يقعد خلف المقود فيما كانت حزيران تجلس إلى جانبه في المقعد الأمامي، وكنت أخشى على سلامتهما في حقيقة الأمر.

وأتى زاك عدة مرات لزيارتنا، وكان يجدني متربعة على رجلي في كرسي الحديقة، وكنت أقرأ ما كتبته في دفتري. وأحيانا، كان شعور غريب يتحرك في معدتي عندما ألمحه فجأة.

وقد قلت له:

- أنت صديق في الثلث، وأخ في الثلث الآخر، وشريك في تربية النحل في الثلث التالي، ثم صديق حميم في الثلث المتبقي. فشرح لي أن هناك ثلثا إضافيا في المعادلة، وهو ما كنت أعرفه بالتأكيد، فرغم أنني لم أكن أجيد الرياضيات، لم يكن الأمر يصل إلى ذلك الحد. وكنا نحدق في بعضنا البعض بينما كنت أحاول التفكير في أي ثلث في وسعي حذفه.

قلت:

- لو أني كنت فتاة سوداء، ....

فوضع أصابعه على شفتي حتى تذوقت ملوحتها، وقال:

- لا يمكننا التفكير في تغيير لون جلدتنا. ولكن ما علينا فعله هو التفكير في تغيير العالم.

ولم يكن يستطيع الحديث إلا عن مدرسة القانون وسحق المؤخرات.

ولم يقل سحق مؤخرات البيض، وكنت ممتنة لذلك، ولكنني كنت أومن بما كان يقوله.

لقد كان فيه شيء ما لم يكن فيه من قبل. لقد كان متقدا ومثقلا وغاضبا. وكان الاقتراب منه أشبه بالمشي فوق سخان غازي، أو على صف من النيران الزرقاء المتقدة في التفاف عينيه الغامقتين والمبللتين.

وكانت جميع أحاديثه تدور الاضطرابات العرقية في نيوجيرزي، والشرطة التي تنهال بعصيها على الفتيان السود الذين كانوا يرشقونهم بالحجارة، وعن قنابل المولوتوف، والاعتصامات وعن القضايا العادلة، وعن مالكولم إكس وعن جماعة الوحدة الأفريقية الأمريكية التي ردت الصاع صاعين لمجموعة الكو كلوكس كلان.

وكنت أرغب في أن أقول لزاك: **هل تتذكر عندما كنا نأكل مثلجات أيار تحت أشجار الصنوبر؟ وهل تتذكر عندما غنيت «بلوبيري هيلز»؟**



بعد أسبوع من الحداد اللامتناهي، وحين اعتقدت أننا كنا سنمضي حياتنا في عوالمنا الخاصة الحزينة وأننا لن نتشارك وجباتنا أو نعمل في بيت العسل معا، تفاجأت بروزالين وهي تعد الطاولة في المطبخ لأربعة أشخاص، وقد وضعت الصحون الصينية التي نقشت على حوافها زهور وردية وأصداف مزينة بشريط. وغمرني الفرح لأن الحياة كانت تدب في المنزل من جديد.

ووضعت روزالين شمعة نحل على الطاولة، وأعتقد أن تلك كانت

أول وجبة أتناولها على ضوء الشموع في حياتي كلها. وكانت القائمة تضم الدجاج المدخن والأرز والمرق والفاصولياء البيضاء المجففة وشرائح الطماطم والبسكويت وضوء الشموع.

وما أن بدأنا الأكل حتى سألت روزالين حزيران:

- أخبريني، هل ستتزوجين نيل أم لا؟

وتوقفتُ وآب عن المضغ وعدلنا من جلستنا. وأجابت حزيران:

- عليكم اكتشاف ذلك.

فأجابت روزالين:

- وكيف يفترض بنا أن نكتشف ذلك إن لم تخبرينا؟

وعندما انتهينا من الأكل، أحضرت آب أربع قنينات من الكولا الباردة جدا من المبرد وأربع علب من الفول السوداني المملح. وتابعناها وهي تفتح قنينات الكولا. وقالت حزيران:

- يا إلهي، ما هذا؟

- إنها تحليتنا المفضلة أنا وليلي.

ردت آب وابتسمت لي، ثم أضافت:

- إننا نحب وضع الفول السوداني في القنينة مباشرة، ولكن يمكنكما أكل كل واحدة على حدة إذا شئتما.

وقالت حزيران وقد قلبت عينيها.

- أعتقد أنني أحب أكلهما منفصلين.

وقالت روزالين:

- لقد كنت سأعد فطيرة الفاكهة، ولكن آب قالت إننا سنشرب الكولا بالفول السوداني.

وقالت **الكولا والفول السوداني** بنفس الطريقة التي قد تنطق بها **مخاط الأنف**.

وضحكت آب وقالت:

- يبدو أنهما لا تستطيعان التعرف على الأطعمة الشهية حين تريانها، أليس كذلك يا ليلي؟

- كلا، سيدتي.

قلت بينما كنت أرج الفول السوداني داخل قنينتي وكان يُحدث الرغوة من جراء تفاعله مع الكولا، ثم طفى فوق السائل البني. وشربت الكولا ومضغت الفول السوداني وأنا أشعر بعظمة مذاق المالح والحلو داخل فمي، وطوال ذلك الوقت، كنت أنظر إلى النافذة وأتابع الطيور وهي تطير نحو أعشاشها وقد بدأ القمر في الانسياب وسط أراضي كارولاينا الجنوبية، وعلى هذا المكان الذي كنت منزوية فيه بين ثلاثة نساء كانت وجوههن تلمع على ضوء الشموع.

وعندما أفرغنا قنيناتنا، ذهبنا إلى غرفة الاستقبال لتلاوة الصلاة المريمية لأول مرة منذ وفاة أيار.

وركعت على السجادة قرب حزيران فيما اتخذت روزالين مكانها المعتاد على الكرسي الهزاز. ووقفت آب إلى جانب سيدتنا وطوت الرسالة التي تركتها أيار قبل انتحارها إلى أن أصبحت تشبه طائرة ورقية صغيرة جدا. وغرزتها في ثقب عميق ينطلق من عنق سيدتنا. ثم ربتت على كتف مريم السوداء وأطلقت تنهيدة عميقة جعلت الحياة تنبعث من جديد في الغرفة الخالية من الهواء، وقالت:

- طيب، لقد انتهى الأمر.

****

بقيت في غرفة أيار مع روزالين منذ وفاة أيار، ولكن حين بدأنا أنا وروزالين في صعود الدرج تلك الليلة، قلت باندفاع:

- هل تعرفين؟ أعتقد أنني سأعود إلى غرفتي في بيت العسل.

وكنت قد اشتقت لأن تكون لي غرفة بمفردي.

ووضعت روزالين يديها على خصرها وقالت:

- يا إلهي، بعد كل الجلبة التي أحدثتها عندما انتقلت إلى هنا، تريدين تركي الآن.

وفي الحقيقة لم يكن يهمها على الإطلاق أنني كنت أرغب في ترك الغرفة، ولكنها لم تكن لتفوت فرصة لاستفزازي. وأضافت:

- هيا، سأساعدك في نقل أغراضك إلى هناك.

- هل تقصدين الآن؟

فأجابت:

- خير البر عاجله.

وأعتقد أنها اشتاقت لأن تكون لها غرفتها الخاصة أيضا.

وبعد أن غادرت روزالين، جلت بنظري حول غرفتي القديمة في بيت العسل، وكانت غارقة في الصمت. وكل ما كنت أفكر فيه هو أن الحقيقة ستكون قد انقشعت في مثل هذه الساعة من يوم الغد، وأن كل شيء سيتغير حينها.

وأحضرت صورة أمي وصورة مريم السوداء من حقيبتي استعداد لعرضهما على آب. ووضعتهما تحت مخدتي، ولكني عندما أطفأت النور، اجتاح الخوف سريري القاسي والضيق. وكان يخبرني عن كل الطرق التي قد تتشعب بها الأمور، كأن أزج في سجن القاصرات في مستنقعات فلوريدا. ولا أعرف لم فكرت في المستنقعات إلا أنني لطالما اعتقدت أن المستنقعات هي أسوأ مكان قد يسجن فيه المرء. وفكرت في كل التماسيح والثعابين وفي القيظ الذي كان أسوأ من هنا حيث كان الناس لا يقلون فقط البيض وإنما شرائح لحم الخنزير والنقانق على أرصفة كارولاينا الجنوبية. ولم أستطع تخيل صعوبة التنفس في فلوريدا. كنت سأختنق هناك ولم أكن لأتمكن من رؤية آب من جديد.

وسكنني الخوف طوال الليل. وكنتِ لأفعل أيَّ شيء لقاء العودة إلى غرفة أيار والإنصات لشخير روزالين.

****

وفي الصباح الموالي، استيقظتُ في ساعة متأخرة لأني لم أنم جيدا الليلة السابقة، ولأنني تعودت على الكسل بعد أن توقفنا عن العمل في بيت العسل. وكانت رائحة الكعك الطري تسافر على طول الطريق المؤدي إلى المنزل الوردي وتصل حتى سريري فتسربت إلى أنفي وأيقظتني.

وحين وصلت إلى المطبخ، كانت آب وحزيران وروزالين هناك وكن ملطخات بالطحين وقد انهمكن في إعداد حلويات صغيرة ذات طبقة واحدة. وكن يغنين وهن يعملن، كمغنيات ذا سوبريمز وذا مارفليتس وذا كريستالز ويحركن خصورهن على أنغام **دا دوو رون رون.**

- ماذا تفعلن؟

قلت وأنا أبتسم لهن من المدخل، فتوقفن عن الغناء وضحكن وتدافعن ونكزن بعضهن.

وقالت روزالين:

- حسنا، انظرا من استيقظ.

وكانت حزيران ترتدي سروالا نسائيا قصيرا على جانبيه أصداف على شكل زهرة أقحوان، ولم أكن قد رأيت في حياتي قط سروالا بذلك الشكل. وقالت:

- إننا نعد الحلويات للاحتفال بيوم مريم. تعالي وساعدينا. ألم تخبرك آب عن يوم مريم؟

ونظرت إلى آب وقلت:

- لا سيدتي، إنها لم تخبرني.

وقامت آب التي كانت ترتدي إحدى مرايل أيار، وبالذات تلك المريلة المكشكشة عند كتفيها، بمسح يديها في الجزء الأمامي منها وقالت:

- أعتقد أنني نسيت ذلك. لقد اعتدنا على الاحتفال بيوم مريم في شهر آب منذ خمسة عشر عاما. هيا، تناولي فطورك وتعالي لتساعدينا. لدينا الكثير لنقوم به ولا أعرف إن كنا سننهي كل شيء.

وملأت زبدية بحبوب الإفطار المعدة من الأرز وصببت عليها الحليب، وكنت أحاول التفكير في حديث الفرقعة والطقطقة التي كانت تتجاذبه مع نفسها. وكيف كان من المفترض أن أتجاذب مع آب ذلك الحديث الذي من شأنه أن يقلب حياتي وسط كل تلك الأحداث.

وقالت آب:

- قبل آلاف السنين، كانت النساء تفعلن نفس الشيء تماما. فقد كن يحضرن الحلويات لوليمة مريم.

ونظرت حزيران إلى وجهي الخالي من التعابير.

- إن اليوم هو عيد رفع مريم العذراء إلى السماء. الخامس عشر من آب. لا بد وأنك سمعت عنه من قبل.

نعم، بالتأكيد، عيد الصعود إلى السماء، لقد كان الأخ جيرالد يتحدث عنه من حين لآخر. الأكيد أنني لم أسمع عنه من قبل. وحركت رأسي.

- لا، لم نكن نسمح لمريم بالحضور في كنيستنا حقا إلا في عيد الميلاد.

وابتسمت آب وغمست رشاشا خشبيا في حوض العسل الذي كان على مساحة العمل قرب محمصة الخبز. وفيما كانت ترش العسل فوق صينية الحلويات الطرية، شرحت لي بالتفصيل كيف أن رفع مريم إلى السماء كان يعني رفعها إلى الجنة. لقد توفيت مريم واستيقظت ثم رفعتها الملائكة إلى الأعلى عند الغيوم الملتفة.

وقالت حزيران:

- إن أيار هي من أطلق اسم يوم مريم على هذا العيد.

وأضافت آب وهي تنقل الحلويات إلى الرف ذي القضبان:

- إن الأمر لا يتوقف عند الصعود إلى السماء. إنه يوم خاص نتذكر فيه سيدتنا ذات الأصفاد. ونعيد تمثيل قصتها، كما أننا نقدم الشكر على غلة العسل. وتأتي بنات مريم كذلك. إن هذان اليومان هما أفضل أيام السنة لدينا.

- وهل تحتفلون ليومين؟

وقالت آب:

- إننا نبدأ عند المساء وننتهي بعد ظهيرة اليوم التالي. تناولي إفطارك بسرعة لأن عليك تحضير الأقدار البخارية وأكاليل الزهور وتعليق أضواء الميلاد وإخراج الشمعدانات وتنظيف العربة وإخراج السلاسل.

وكنت أفكر. ماذا؟ انتظري.. تنظيف العربة؟ وتعليق أضواء الميلاد؟ وإخراج السلاسل؟ السلاسل؟

وأنا أهم بوضع الزبدية في المغسلة، نقر أحد ما الباب.

- أليست هذه رائحة أفضل بيت في تيبورون؟

قال نيل وهو يتقدم إلى الداخل، فردت حزيران:

- لقد حزرت.

وقدمت له حبة من حلوى العسل، ولكنه هز رأسه، وهو ما أكد قطعا أن شيئا ما كان يشغل باله. فلم يكن نيل يرفض الطعام. ووقف عندئذ وسط الغرفة وقد استند إلى إحدى رجليه ثم إلى الأخرى.

وسألته حزيران:

- ماذا تفعل هنا؟

وتنحنح وحك عذاره، وقال:

- لقد... لقد أتيت آملا في التحدث إليك.

وبدا الكلمات متيبسة وهي تخرج من فمه هو، حتى أن حزيران قطبت حاجبيها وأمعنت النظر فيه قليلا، ثم قالت:

- هل أنت بخير؟

- أنا بخير.

رد ووضع يديه في جيبه، ثم أخرجهما، وأضاف:

- أنا فقط أريد التحدث إليك.

وانتظرت حزيران قليلا ثم قالت:

- حسنا، تفضل.

- كنت أفكر في أن نذهب بالسيارة.

وجالت ببصرها حول المطبخ، وقالت:

- إذا لم تلاحظ، أنا مغرقة بالعمل يا نيل.

- نعم، أرى ذلك ولكن...

- أنظر، فقط أخبرني ماذا تريد. وما هذا الشيء بالغ الأهمية؟

قالت حزيران وقد بدأ عليها الاغتياظ. ونظرتُ إلى آب التي كانت تزم شفتيها وتفتعل الانشغال، ثم إلى روزالين التي توقفت عن العمل تماما وكانت تنقل ببصرها من حزيران إلى نيل ثم إلى حزيران.

وقال نيل:

- اللعنة. لقد أتيت وأنا أخطط أن أطلب منك أن تقبلي الزواج مني للمرة المائة.

وأوقعت ملعقتي في المغسلة. ووضعت آب مرش العسل. وفغرت حزيران فاهها وأغلقته دون أن تنبس بكلمة. وتسمر الكل في مكانه.

هيا، لا تفسدي الأمر، لقد حان الوقت لتعيشي حياتك.

وأصدر البيت صريرا، شأنه شأن البيوت القديمة، ووجه نيل

بصره إلى الباب. وشعرت بقميصي يتبلل تحت ذراعي. وانتابني نفس الشعور الذي كنت أحس به في الصف الخامس عندما كانت المعلمة تكتب كلمات غير مفهومة على السبورة وتطلب منا وضع الحروف في ترتيبها الصحيح لتصبح الكلمة ذات معنى. وكانت تمنحنا دقيقتين قبل أن يرن جرسها. وكنت أتعرق وأنا أحاول الفوز على الساعة. لقد انتابني نفس الشعور في تلك اللحظة وكأن نيل كان سيخرج من الباب قبل أن تعيد حزيران ترتيب الجواب في قلبها.

وقالت روزالين:

- حسنا، لا تكتفي بالوقوف هناك وفاهك مفغور يا حزيران. قولي شيئا.

وحدقت حزيران في نيل وكنت أستطيع استشفاف الصراع على وجهها، والاستسلام الذي كان عليها أن تقوم به بالداخل، ليس لنيل فقط وإنما للحياة كذلك. وفي الأخير تنهدت بعمق وقالت:

- طيب، لنتزوج.

وضربت روزالين على فخذها وأخرجت شهقة فرح، فيما رسمت شفتا آب أكبر ابتسامة رأيتها على وجهها على الإطلاق. وأما أنا، فكنت أتجول ببصري من شخص إلى آخر، محاولة استيعاب الأمر.

واقترب نيل من حزيران وقبلها على شفتيها، واعتقدت أنهما لن يتنفسا من جديد.

وحين فعلا، قال نيل:

- سنذهب إلى محل المجوهرات حالا لنشتري لك خاتما قبل أن

تغيري رأيك.

ونظرت حزيران إلى آب. وقالت:

- طيب، لا أريد أن أتركهم لكل هذه الأشغال.

ولكن لم يكن يبدو أن ذلك يزعجها على الإطلاق.

وقالت آب:

- هيا، اذهبي.

وحين غادرا، جلستُ وآب وروزالين وتناولنا حلوى العسل الساخنة وأخذنا في التحدث عما حدث للتو. لقد كانت أمامنا الكثير من الأعمال، ولكن بعض الأشياء تتطلب أن يجلس المرء ويفكر فيها مليا قبل أن يعود إلى أشغاله. وقلنا:

«هل رأيت النظرة التي اعترت وجه نيل؟»... «هل تصدقان تلك القبلة؟»

وكنا، في الغالب، نحدق في بعضنا البعض ونقول ستتزوج حزيران!

****

كان الاستعداد ليوم مريم يتطلب العمل دون توقف. وطلبت مني آب البدء بإعداد الأعلام الملونة، فقطعت حزما من ورق الكوريشة الزرقاء والبيضاء إلى شرائط حتى ظهرت بثور مؤلمة على إبهامي. ولففت حوافها بأصابعي لإعطائها لمسة ملتوية. وبعد ذلك، سحبت سلما إلى الحديقة وعلقتها على أشجار الريحان.

وقطعت طبقة سيف الغراب وصنعت إكليلا بحجم ستة أقدام عن طريق إلصاق الزهور في شريط، ولم أكن أعتقد أنني سأنجح في الأمر. وحين سألت آب عما كان يفترض أن أفعل بالإكليل، قالت:

- علقيه على العربة.

طبعا، كيف أفكر لم في الأمر؟

وبعد ذلك، نقبت في خزانة البهو عن أضواء الميلاد التي طلبت مني آب أن أعلقها حول الشجيرات القريبة من أدراج الشرفة الخلفية، دون نسيان وصلة المقابس التي كان عليّ أن أركبها.

وفيما كنت أعمل، كان زاك يجر آلة جز العشب، ولم يكن يلبس قميصا. ووضعت طاولات لعب الورق بجانب أشجار الريحان حتى تخفق الأعلام وتدغدغ وجوهنا ونحن نأكل. وحاولت ألا أنظر إلى زاك، وإلى جسده الممشوق وهو يلمع بالعرق، وإلى الصفيحة المعدنية التي كان يعلقها في السلسلة التي كانت حول عنقه، وإلى سرواله القصير الذي كان يتدلى من خصره، وخصلة الشعر التي كانت تحت سرته.

وجرف زاك كومة كبيرة من حشائش الملفوف الضارة التي اكتسحت المكان دون أن يُطلب منها ذلك حتى، وكان يجر المجرفة التي كانت تحدث نوبات من النخير الغاضب، بينما كنت أجلس على الدرج منهمكة في إخراج بقايا الشمع من دزينتين من الشمعدانات ثم ملأتها بشموع جديدة ونثرتها حول المكان على العشب، وحول الأشجار وغالبا في الحفر الصغيرة حيث كانت تنبثق حشائش الملفوف.

وعلى الشرفة، شغلت آب آلة صنع المثلجات. وكانت إلى جانبها كومة من السلاسل، فنظرت إليها وسألتها:

- ماذا سنفعل بهذه؟

وأجابتني:

- سوف ترين.

****

عندما بلغت الساعة السادسة مساء، كنت مرهقة من أشغال يوم مريم، ولم يكن الحدث الحقيقي قد بدأ بعد. وأنجزت آخر عمل في قائمة أعمالي لذلك اليوم، وكنت متجهة إلى بيت العسل لأغير ملابسي عندما توقفت سيارة حزيران ونيل عند المدخل.

وانطلقت حزيران خارج السيارة مبتهجة ويدها مرفوعة نحو الأعلى حتى أتمكن من الاستمتاع بالنظر إلى خاتمها. وتفحصته، ويجب أن أعترف أن نيل تفوق على نفسه. لم يكن الخاتم كبيرا جدا في الحقيقة ولكنه كان في غاية الجمال. وكانت الماسة موضوعة داخل إطار فضي متعرج.

وقلت:

- إنه أجمل خاتم رأيته في حياتي.

وتركت حزيران يدها مرفوعة واستمرت في تقليبها حتى تلمع الماسة في الضوء. وقلت:

- أعتقد أن أيار كانت ستحب هذا الخاتم أيضا.

ووصل الفوج الأول من بنات مريم، ومشت حزيران الهوينا تجاههن ويدها مرفوعة.

وحين ذهبت إلى بيت العسل، رفعت مخدتي للتأكد من أن صورتيْ أمي ومريم السوداء لا تزالان حيث تركتهما. وعزمت على أن أخبر آب بالحقيقة ذلك اليوم سواء أكان ذلك عيد مريم أم لا. وجعلتني الفكرة أرتعد. وجلست على السرير وشعرت بالأشياء وهي تتضخم بداخلي وتزدحم في صدري.

وأنا في طريقي إلى المنزل الوردي، كنت ألبس سروالا قصيرا وقميصا علويا نظيفين وشعري ممشوط، ثم توقفت لأتأمل كل شيء. وكان كل من آب وحزيران وروزالين وزاك ونيل وأوتيس وجميع بنات مريم يقفون على العشب الذي جز حديثا إلى جانب طاولات لعب الورق وكانوا يضحكون بصوت خافت ومهتز، وكانت هناك أكوام من الأكل، وكانت الأعلام الزرقاء والبيضاء ترفرف بمرور نسمات الهواء، وأضواء الميلاد تلمع كلوالب ملونة حول الشرفة، وكانت جميع الشموع مشتعلة رغم أن الشمس لم تكن قد اختفت بعد. وكان كل جزيء من الهواء يشع بشعلة حمراء.

وقلت لنفسي، إنني أحب هذا المكان من كل قلبي.

وأطرت عليَّ بنات مريم، فأثنين على رائحتي ومظهر شعري الرائع وهو ممشوط. وقالت لينيل:

- هل تودين أن أصنع لك قبعة يا ليلي؟

- حقا؟ تريدين أن تصنعي لي قبعة؟

ورغم أنني لم أكن أتخيل المناسبة التي قد ألبس فيها قبعة من صنع لينيل، إلا أنني كنت أريد واحدة. وفكرت في أنه يمكنني على الأقل ارتداؤها عند دفني ذات يوم.

- طبعا، سأصنع لك واحدة. ولن تستطيعي تصديق شكلها. ما هو لونك المفضل؟

وقالت آب التي كانت تسمع حديثنا: «**الأزرق**». وغمزتني.

وأكلنا أولا. وكنت حينها قد أدركت أن بنات مريم تولي أهمية قصوى للأكل. وحين انتهينا كان حمرة اليوم قد تلاشت وتسلل الليل ليحيط بنا، ولطف الجو وتشرب المساء اللونين البنفسجي والأزرق المائل إلى الأسود. وأحضرت روزالين أطباق حلوى العسل ووضعتها على الطاولات.

وأشارت إلينا آب بالوقوف في دائرة حول الطاولة. وبدأ برنامج يوم مريم.

وقالت آب:

- هذه حلويات عسل مريم، حلويات ملكة الجنة.

وتناولت واحدة بيدها واقتسمت قطعة منها ثم مدتها أمام مابيلي التي كانت إلى جانبها في الدائرة، وقالت آب:

- هذا جسد الأم المقدسة.

وأغلقت مابيلي عينيها وفتحت فمها ووضعت آب قطعة الحلوى على لسانها.

وبعد أن ابتلعت مابيلي قطعة الحلوى، حذت حذو آب، فقسمت قطعة أخرى وأعطتها إلى الشخص الموالي في الدائرة وكان ذلك نيل. وكانت تحتاج إلى سلم للوصول إلى فمه، إذ لم يكن طولها يبلغ خمسة أقدام حتى وهي تلبس حذاء عالي الكعب. فما كان من نيل إلا أن جلس القرفصاء وفتح فمه.

- هذا جسد الأم.

قالت مابيلي، ووضعت قطعة الحلوى في فمه.

ولم أكن أعرف أي شيء على الإطلاق عن الكنيسة الكاثوليكية ولكني كنت متأكدة من أنه كان سيغمى على البابا لو أنه رأى ذلك المشهد. ولكن الأخ جيرالد لم يكن ليضيع الوقت في الإغماء وإنما كان سينطلق لإعداد التعويذات.

وأنا، لم أكن قد رأيت أشخاصا كبار يطعمون بعضهم من قبل، فكنت أتابعهم وبداخلي شعور بأنني قد أنفجر باكية. ولا أعرف ما الذي أثارني من المشهد ولكن حلقة الإطعام تلك جعلتني أشعر أن العالم أفضل لسبب أو لآخر.

وكما هي الحياة، اقتضى الأمر أن تكون حزيران هي من يطعمني. وفتحت فمي وأغلقت عيني وانتظرت جسد الأم، فهمست لي حزيران:

- أنا آسفة لأني تعاملت معك بقسوة عندما أتيت إلى هنا.

وبعد ذلك انتشرت حلاوة حلوى العسل داخل فمي.

وتمنيت لو أن زاك هو من كان بجانبي حتى أضع قطعة من الحلوى في فمه. وكنت لأقول له: **أتمنى أن يلطف هذا نظرتك للعالم. وآمل أن يجلب إليك مشاعر رقيقة.** وعوضا عن ذلك، كان عليَّ إطعام قطعة الكعك لكريسي التي قضمتها بعينين مغلقتين.

وبعد أن أُطعِم الجميع، ذهب زاك ونيل إلى غرفة الاستقبال وعادا حاملين سيدتنا ذات الأصفاد وخلفهما أوتيس الذي كان يجر كومة من السلاسل، وأوقفاها داخل العربة الحمراء. ومالت إليّ آب وقالت:

- سوف نعيد تمثيل قصة سيدتنا ذات الأصفاد. وسنأخذها إلى بيت العسل ونكبلها هناك هذه الليلة.

وفكرت أن **سيدتنا ستقضي الليلة معي في بيت العسل.**

وبينما كانت آب تجر العربة ببطء في الحديقة، كان زاك ونيل يسندان سيدتنا بأيديهما. وأعتقد أن إكليل الزهور الذي كان يحيط بالعربة هو الذي كان يضفي جمالية على المشهد كله.

وحملت حزيران التشيللو فيما كانت بنات مريم تلحقن بالعربة في صف أحادي وهن تحملن الشموع وتغنين «**مريم، نجمة البحر. مريم القمر المضيء، مريم، خلية العسل.**»

وكنا أنا وروزالين في آخر الصف نحمل الشمع ونحاول الغناء لأننا لم نكن نحفظ الكلمات. وغطيت الشمعة بيدي لئلا تنطفئ.

وعند مدخل بيت العسل، حمل نيل وزاك التمثال ونقلاه إلى

الداخل. ولكزت الفتاة الحلوة أوتيس بمرفقها، فتقدم إلى الداخل لمد يد المساعدة في وضع التمثال بين الفراز والصهريج المنضج.

وقالت آب:

- حسنا، سنبدأ الآن آخر جزء من قداسنا. فلتقفوا في نصف دائرة حول سيدتنا.

وعزفت حزيران لحنا كئيبا على التشيللو، فيما حكت آب قصة مريم السوداء من أولها إلى آخرها. وحين وصلت إلى الجزء الذي يلمس فيه العبيد قلب سيدتنا وكيف كانت تبعث فيهم الجرأة وتوحي لهم بخطط الفرار، ارتفع عزف حزيران.

وقالت آب:

- وأصبحت سيدتنا قوية جدا لدرجة جعلت السيد يسجنها ويكبلها بالسلاسل في المرآب. أبعدت وصفدت.

- الأم المقدسة، المقدسة.

تمتمت فيوليت. وأخذ نيل وأوتيس السلاسل وأخذا في تكبيل سيدتنا. وكنت متأكدة من أنه سيكون من المعجزة ألا يقتل أوتيس أحدا من طريقة رميه للسلاسل على ضوء الشموع.

وتابعت آب:

- ولكن في كل مرة كان السيد يكبل فيها مريم في المرآب، كانت تتحرر من قيودها وتعود إلى أصحابها.

وتوقفت آب. ودارت حول الحلقة وهي تنظر إلينا الواحد تلو الآخر، وتحدق في وجه كل واحد منا دون أن تكون في عجلة من أمرها.

وبعد ذلك رفعت صوتها قائلة:

- ما قيد سينزع القيد عن نفسه. وما أبعد سيعود. هذا هو وعد سيدتنا.

وقال أوتيس:

- آمين.

وبدأت حزيران في العزف من جديد، ولحسن الحظ كان عزفها مرحا تلك المرة. وحدقت في مريم وهي مكبلة من رأسها إلى أخمص قدميها. وفي الخارج، لمع البرق في السماء.

وكان الجميع يبدو غارقا في التأمل أو فيما كانوا يفعلونه. وكانت عيون الجميع مغلقة ماعدا عينا زاك. وكان يحدق في.

ونظرت إلى مريم المكبلة المسكينة. ولم أستطع تحمل رؤيتها كذلك، فقالت آب:

- إن هذا مجرد تمثيل يساعدنا على التذكر، تذكر كل شيء.

ومع ذلك، كانت الفكرة بمجملها تغرقني في الحزن. لقد كنت أكره التذكر.

واستدرت وخرجت من بيت العسل إلى صمت الليل الدافئ.

****

لحق بي زاك عندما وصلت إلى حديقة الطماطم. وأمسك بيدي واستمررنا في المشي، وتخطينا حائط أيار ثم دخلنا الغابة دون أن نتكلم. وكانت حشرات زيز الحصاد قد جنت، فكانت تملأ الهواء بغنائها الغريب. واصطدمت بخيوط عنكبوت مرتين، فشعرت بالخيوط الرفيعة الشفافة على وجهي وأعجبتني. فقد رأيت فيها لثاما من الليل.

ورغبت في النهر، وفي جموحه، وفي أن أتجرد من ملابسي وأشعر الماء ينساب على جسدي. وأن ألعق أحجار النهر بنفس الطريقة التي فعلت بها ذلك في الليلة التي قضيناها أنا وروزالين بمحاذاة الجدول. وحتى موت أيار لم يشوه صورة النهر في عيني. لقد بذل النهر ما بوسعه، وكنت متأكدة من ذلك، لقد أعطى لأيار عبورا سلميا إلى الحياة الأخرى. قد تموت في نهر، وقد تبعث فيه من جديد، تماما مثل القبور التي تحاكي قفران النحل التي أخبرتني عنها آب.

وكان ضوء القمر منتشرا تحت الأشجار، فقادنا إلى الماء.

وكان الظلام يجعل الماء شديد اللمعان. ووقفنا عند الضفة وتابعنا حزم الضوء المتحركة، وتركنا خرير المياه يتفاخر حولنا. وكانت يدانا لا تزالان متشابكتين وشعرت بأصابع زاك تضغط على يدي.

وقلت:

- كانت هناك بركة حيث كنت أعيش، وكنت أذهب إليها أحيانا للمشي داخل الماء. وذات يوم كان فتيان المزرعة المحادية يصطادون السمك هناك. وكان لديهم جميعا أسماك صغيرة اصطادوها وركزوها في سليكة، فأمسكوا بي وطرحوني على الضفة ولفوها حول عنقي في

دوائر صغيرة بحيث لا أتمكن من تمريرها عبر رأسي. وكنت أصرخ: «اتركوني، أزيحوا ذلك عني،» ولكنهم كانوا يضحكون ويقولون: «ماذا بك؟ ألا تعجبك قلادة السمك؟»

- يا للفتيان اللعينين.

قال زاك.

- لقد كانت بعض تلك الأسماك ميتة ولكن أغلبها كان يرفرف ويحدق بي، وكان يبدو عليها الخوف. وفكرت في أني إذا سبحت داخل الماء يمكنهم التنفس. ولكن ما أن وصل الماء إلى ركبتي حتى خرجت. لقد خشيت المضي قدما. وأعتقد أن ذلك كان أسوء ما في الأمر. لقد كان بإمكاني مساعدة تلك الأسماك ولكني لم أفعل.

- لم يكن بإمكانك البقاء في النهر إلى الأبد.

- ولكن كان بإمكاني البقاء لوقت طويل. وكل ما فعلته هو التوسل إليهم لفك السليكة عن عنقي. لقد توسلت إليهم. وطلبوا مني أن أصمت، لقد جعلوا مني حامل أسماك، وبقيت هناك إلى أن ماتت الأسماك كلها على صدري. لقد كنت أحلم بها لحوالي سنة؛ كنت أحلم أنني معلقة في السليكة معها.

وقال:

- أعرف ذلك الشعور.

ونظرت إلى أبعد نقطة في عينيه واستطعت الوصول إليها.

- عندما ألقي عليك القبض...

قلت، ولم أعرف كيف أقول ذلك.

- ماذا عن ذلك؟

- لقد غيرك الأمر، أليس كذلك؟

وحدق في الماء وأجاب:

- أحيانا يا ليلي، أشعر بالرغبة في قتل شيء ما.

- لقد كان أولئك الفتية الذين لفوا السليكة حول عنقي محملين بالغضب كذلك. كانوا غاضبين تجاه العالم وقد جعلهم ذلك لئيمين. عليك أن تعدني يا زاك أنك لن تصبح مثلهم.

- أنا لا أرغب في ذلك.

- ولا أنا.

واقترب وجهه من وجهي وقبلني. وشعرت في البداية وكأن أجنحة فراش الليل تلامس شفتي ثم انفتح فمه فوق فمي. واستسلمت لذلك. وقبلني بلطف وبجوع في الوقت ذاته، وأحببت طعمه ورائحة جسده والطريقة التي كانت شفتاه تنفتحان بها ثم تغلقان، تنفتحان ثم تغلقان. وكنت أطفو فوق نهر من الضوء، يرافقني السمك، والسمك هو مجوهراتي. وكان إحساس جميل يتحرك بداخل جسدي، والحياة تنسكب تحت جلدي وطرق الحب الصاخبة تتولى زمام الأمور. وحتى مع ذلك كله، كنت أستطيع الشعور بالسمك يموت فوق قلبي.

وعندما انتهت القبلة، نظر إليّ وكان وجهه متأججا، وقال:

- لا أحد يعرف الجدية التي سأدرس بها هذه السنة. ستجعلني زنزانة السجن أحقق أعلى علامات حصلت عليها على الإطلاق. وحين ينتهي هذا العام، لن يمنعني شيء من مغادرة المكان والالتحاق بالجامعة.

فقلت:

- أعرف أن بإمكانك فعل ذلك، وستفعل.

ولم تكن تلك مجرد كلمات أنطق بها. فأنا أجيد تقييم الناس وكنت أعرف جيدا أنه سيصبح محاميا. لقد كانت الأمور في تغير، حتى في كارولاينا الجنوبية، لقد كنت تستطيع استشفاف ذلك حتى في الواقع. سيكون أحد رائدي الحرية الذين تحدث عنهم مارتن لوثر كينج. هكذا كنت أحب أن أرى زاك في تلك اللحظة. رائد.

وتحرك من مكانه ووقف قبالتي، وقال:

- أريد منك أن تعرفي أنني.....

وتوقف ونظر عاليا إلى الأشجار.

اقتربت منه وقلت:

- ماذا تريدني أن أعرف؟

- أنني .... أنني مهتم بك، وأفكر فيك طوال الوقت.

وخطر ببالي أنه كانت هناك أشياء لم يكن يعرفها عني؛ أشياء قد

تجعله لا يكترث بي إن هو عرفها، ولكني ابتسمت وقلت:

- وأنا أيضا مهتمة بك.

- لا يمكننا أن نكون مع الآن يا ليلي، ولكن يوما ما، بعد أن أذهب وأصبح شخصا ما، سأجدك وسنبقى معا.

- وهل تعدني بذلك؟

- نعم، أعدك.

وأمسك بالسلسلة التي كان يعلق بها الصفيحة المعدنية حول عنقه ووضعها على رأسي وقال:

- حتى لا تنسي.

ونزل المستطيل الفضي تحت قميصي وتمايل باردا وواثقا على صدري. زاكاري لينكولن تايلر يمكث هناك قريبا من قلبي ويتدلى من عنقي.

لو أن الملكة كانت أكثر ذكاء، لأصيبت على الأرجح بالعصاب. وهي في الواقع خجولة ومتقلبة، وربما يرجع ذلك إلى كونها لا تغادر القفير على الإطلاق، بل إنها تقضي أيامها في العتمة، فيما هو أشبه بليل سرمدي... إن دورها الحقيقي هو أنها أم للقفير أكثر منه ملكته؛ ولقب الأم هو لقب يعطى لها غالبا بيد أن ذلك أقرب من السخرية بسبب افتقارها إلى غريزة الأمومة أو القدرة على الاعتناء بصغارها.

The Queen Must Die: And Other Affairs of Bees and Men

الفصل الثاني عشر

انتظرتُ آب في غرفتها. ولم يكن الانتظار أمرا غريبا علي. فلطالما انتظرت أن تدعوني فتيات مدرستي إلى احتفال ما. ولطالما انتظرت أن يغير تي-ري من طباعه، والشرطة أن تأتي وتجرجرنا إلى سجن إيفرغلاندز. ولطالما انتظرت أن ترسل لي أمي إشارة ما تبين حبها لي.

وكنا قد تسكعنا أنا وزاك في الخارج إلى أن انتهت بنات مريم من طقوسهن في بيت العسل. ثم ساعدناهن في تنظيف الحديقة من الفوضى، فقمت بتكديس الأطباق والكؤوس وقام زاك بطي طاولات لعب الورق. وكانت كويني قد ابتسمت وقالت:

- لماذا غادرتما قبل أن ننتهي؟

فأجابها زاك:

- لقد كان ذلك طويلا جدا.

فأجابته ممازحة:

- هذا كل ما في الأمر إذن.

وضحت كريسي. وعندما غادر زاك، انسحبت إلى بيت العسل

وأخرجت صورة أمي وصورة مريم السوداء من تحت مخدتي. وأمسكتهما بيدي ومررت ببنات مريم وكن منهمكات في غسل الأواني في المطبخ وسألنني:

- إلى أين أنت ذاهبة يا ليلي؟

كنت أكره أن أكون فظة، ولكن، لم يكن في وسعي إجابتهن أو الدخول في حديث فارغ. لقد كنت أرغب في معرفة أشياء عن أمي ولم أكن أكترث بشيء سوى ذلك.

وتابعت سيري نحو غرفة آب، وكانت تعبق برائحة شمع العسل. وأنرت أحد المصابيح وجلست على صندوق الأرز الذي كان عند قدم السرير حيث أخذت في طي ذراعيّ ومدهما ثماني مرات أو عشرا. وكانتا باردتين ورطبتين وعنيدتين، وكل ما كانتا تريدان فعله هو الحركة وفرقعة مفاصل الأصابع، فأقحمتهما تحت فخذي.

لقد كانت المرة الوحيدة التي زرت فيها غرفة آب من قبل هي عندما أغمي عليّ يوم لقاء بنات مريم واستيقظت على سريرها. ولا بد أنني كنت مشوشة عندئذ فقد بدت لي جديدة تماما. ويمكنك المشي في رحاب تلك الغرفة لساعات والشعور بأنك في رحلة استكشافية وأنت تتفقد حاجياتها.

فأولا، كان كل شيء أزق: اللحاف والستائر والبساط ومخدة الكرسي والمصابيح. ولكن، لا يجب أن تشعر بأن الغرفة مملة فقد كان الأزرق بدرجات مختلفة، زرقة السماء وزرقة البحيرة وزرقة البحر وزرقة الماء، وأي درجة قد تخطر على بالك. وشعرت وكأنني كنت أغوص داخل المحيط.

وعلى المنضدة، حيث كان الناس الأقل أهمية ليضعوا علبة مجوهرات أو إطارا بداخله صورة، كان على منضدة آب حوض سمك مقلوب بداخله قطعة ضخمة من قرص عسل. وكان العسل قد سال منها فكون برك صغيرة على الصينية تحته.

وكانت تضع على الطاولتين الجانبيتين شموعا مصنوعة من شمع النحل ذائبة في حاملين نحاسيين. وتساءلت ما إذا كان ذلك الشمع الذي صنعته بنفسي، وأثارت مشاعري فكرة أن أكون قد ساعدت في إنارة غرفة آب حين كان الظلام يحل بها.

ومشيت حول الغرفة وتفقدت الكتب المرتبة بعناية على رف كتبها. **اللغة المتقدمة للنحالين، وعلوم مزرعة النحل، وعصر القصة الأخلاقية لبولفينتش، وأساطير اليونان، وإنتاج العسل، وأساطير النحل حول العالم، ومريم عبر العصور**. وأخرجت الكتاب الأخير من الرف وفتحته ووضعته على حجري وأخذت في تصفح الصور. وكانت مريم تظهر أحيانا سمراء بعينين بنيتين، وفي أحيان أخرى كانت شقراء وذات عينين زرقاوين، ولكنها كانت جميلة في كلتا الحالتين. وكانت تبدو كمتسابقات مسابقة ملكة جمال أمريكا. كملكة جمال المسيسيبي. ويمكنك التعويل على بنات المسيسيبي للفوز. ولم أستطع منع نفسي من أن أتمنى رؤيتها تلبس زي السباحة والكعب العالي قبل حملها بالطبع.

ولكن الصدمة الكبرى كانت في أن كل صور مريم كانت تحتوي على وردة بجانب الملك جبريل، وفي كل واحدة منها كان يظهر ليخبرها بأنها كانت سترزق بأعظم الأطفال حتى ولو كانت لم تتزوج بعد، وكان

يحمل لها زنبقة بيضاء كبيرة وكأن تلك كانت تعزية عن كل النميمة التي كانت ستدور حولها. وأغلقت الكتاب وأعدته إلى مكانه على الرف.

وهبت نسمة هواء من النافذة وتحركت بداخل الغرفة. وذهبت إلى النافذة وأخذت أحدق في أهداب الأشجار الداكنة عند حافة الغابة، وكان نصف قمر يتدلى كعملة ذهبية داخل شق. وكأنه كان سيهبط من السماء. وتسربت أصوات من خلال الزجاج. وكانت أصواتا نسائية. وارتفعت كتغاريد ثم تلاشت. وكانت بنات مريم في طريقهن للمغادرة. وأقحمت شعري بين أصابعي وطفت حول البساط كما يفعل الكلب قبل أن يستقر على الأرض.

وفكرت في أفلام السجن التي يكونون فيها على وشك صعق سجين بالكهرباء ظلما، وبالطبع تبدأ الكاميرا في الانتقال بين الرجل المسكين الذي يتصبب عرقا في الزنزانة والساعة التي تقارب الثانية عشر.

وعدت للجلوس على صندوق الأرز.

وتناهى صدى خطوات على لوح الأرضية، خطوات واثقة وغير متسارعة. وكانت خطوات آب. ووقفت باستقامة أكثر، وبدوت أطول، وبدأت دقات قلبي في التسارع لدرجة أنني كنت أسمعها داخل أذني. وحين دخلت الغرفة قالت:

- كنت أعرف أنني سأجدك هنا.

وانتابتني رغبة في الانطلاق خارج الغرفة أو القفز من النافذة، وقلت لنفسي إنني لم أكن مجبرة على فعل ذلك، ولكن رغبتي في الأمر

انبثقت من جديد. لقد كان عليّ أن أعرف.

- هل تتذكرين عندما...

قلت بصوت خافت جدا، وتنحنحت ثم أضفت:

- هل تذكرين عندما قلت إن علينا أن نتحدث؟

وأغلقت الباب. وقضي الأمر. **لم يعد هناك مجال للتراجع**. هذا ما قاله صوت الباب. **قضي الأمر**.

- نعم، أتذكر ذلك جيدا.

ووضعت صورة أمي على صندوق الأرز. فاقتربت آب وحملت الصورة وقالت:

- إنك صورة طبق الأصل عنها.

ونظرت إليّ بعينيها الكبيرتين المرفرفتين وبداخلهما نار نحاسية. وتمنيت لو استطعت النظر إلى العالم من خلالهما ولو لمرة واحدة.

وقلت:

- إنها أمي.

- نعم عزيزتي، أعرف ذلك. والدتك هي ديبورا فونتانيل أوينز.

ونظرت إليها وطرفت عيناي. فدنت مني وانعكس ضوء المصباح الأصفر على نظارتها فحجب عينيها. وعدلت من جلستي حتى أتمكن من رؤيتها بصورة أفضل.

وسحبت الكرسي من منضدتها ووضعته أمام صندوق الأرز وجلست قبالتي، وقالت:

- أنا سعيدة لأننا سنتحدث عن الأمر أخيرا.

وكنت أشعر بركبتها وهي تلامس ركبتي بالكاد. ومرت دقيقة كاملة دون أن تقول أي منا أي شيء. وأمسكتِ الصورة، وعرفت أنها كانت تنتظر مني أن أكسر الصمت.

- كنت تعرفين أنها أمي منذ البداية.

قلت غير متأكدة مما إذا كنت أشعر بالغضب أو بالخيانة أو بالمفاجأة المحضة.

ووضعَتْ يدها على يدي وفركت إبهامها على جلدي، ثم قالت:

- في أول يوم وصلت فيه إلى هنا، نظرت إليك فرأيت ديبورا عندما كانت في مثل سنك. وكنت أعرف أنه كان لديبورا ابنة، ولكني استبعدت أن تكون ابنتها أمامي في غرفة الاستقبال. ولكن حين قلت إن اسمك هو ليلي، عرفت عندها من تكونين.

ربما كان عليّ توقع ذلك. وشعرت في غصة في حلقي ولم أكن أعرف سببها حتى.

- ولكن... ولكنك لم تقولي شيئا على الإطلاق؟

- لأنك لم تكوني مستعدة لتعرفي شيئا عنها. ولم أكن أرغب في المجازفة حتى لا تهربي من جديد. لقد كنت أريد أن تحظي بفرصة

ليشتد عودك وتقوي قلبك. لكل شيء أوان يا ليلي. عليك أن تعرفي متى تتكلمين ومتى تلتزمين الصمت، ومتى تتركين الأشياء تأخذ مجراها الطبيعي. وهذا ما كنت أحاول فعله.

ولذت بالصمت. فكيف كنت لأغضب منها وقد فعلت الشيء نفسه؟ لقد كتمت ما كنت أعرفه ولم تكن أسبابي بنبل أسبابها.

وقلت:

- لقد أخبرتني أيار.

- ماذا؟

- لقد رأيتها ترسم خطا من بسكويت غراهام المملح وحلوى المارشملو لتتبعها الصراصير. وكان أبي قد أخبرني ذات مرة أن أمي كانت تفعل الشيء نفسه، ولذلك سألتها إن كانت تعرف ديبورا فونتانيل. وقالت إنها كانت تعرفها وإنها كانت تسكن في بيت العسل.

وهزت آب رأسها:

- يا إلهي هناك الكثير من الأشياء لأخبرك بها. ربما تتذكرين عندما قلت إنني عملت كمدبرة منزل في ريتشموند قبل أن أتجه إلى التدريس. حسنا. لقد كنت أعمل في منزل والدتك.

منزل أمي. وبدت فكرة أن تكون شخصا يعيش تحت سقف غريبة، شخص يستلقي على الفراش، ويأكل الطعام على الطاولة ويغتسل في الحمام.

- هل كنت تعرفينها وهي صغيرة؟

وقالت آب:

- لقد كنت أقوم بتربيتها. فكنت أكوي فساتينها وألف الغذاء الذي كانت تأخذه معها إلى المدرسة في كيس ورقي. وكانت تحب زبدة الفول السوداني، ولم تكن ترغب بشيء غيرها طوال الأسبوع.

تنهدت وانتبهت إلى أنني كنت أحبس أنفاسي:

- وماذا كانت تحب أيضا؟

- لقد كانت تحب الدمى. وكانت تنظم حفلات الشاي لدماها في الحديقة، وكنت أعد لها سندويتشات صغيرة جدا لتضعها في أطباق الدمى.

وتوقفت وكأنها كانت تحاول استرجاع شيء ما.

- وكانت تكره الواجبات المنزلية. وكان عليّ أن أذكرها بها طوال الوقت، وأن ألاحقها في كل مكان وأتهجى الكلمات. وذات مرة، تسلقت شجرة واختبأت هناك لئلا تحفظ قصيدة لروبرت فروست. ووجدتها وتسلقت الشجرة أيضا والكتاب في يدي، ولم أكن لأتركها تنزل قبل أن تحفظ القصيدة عن ظهر قلب.

وأغلقت عينيّ وتخيلت أمي وهي تجلس إلى جانب آب على جذع شجرة وتحفظ كل سطر من القصيدة التي كان عليّ أنا أيضا حفظها لدرس اللغة الإنجليزية. وأطرقت رأسي وأغلقت عيني.

- ليلي. قبل أن أخبرك أي شيء آخر عن والدتك، أريد منك أن تخبريني كيف وصلت إلى هنا، هل اتفقنا؟

وفتحت عيني وأومأتُ برأسي.

- قلتِ إن والدك قد توفي.

ونظرت إلى يديها وكانتا لا تزالان ممسكتين بيدي وخشيت أن تحركهما.

- لقد اخترعت ذلك. وهو لم يمت حقا. إنه يستحق أن يموت فحسب.

وقالت:

- تيرانس ري.

- هل تعرفين أبي كذلك؟

- لا، لم يسبق لي أن التقيت به، ولكني سمعت عنه من ديبورا.

- أنا أناديه تي-ري.

- تقصدين أنك لا تنادينه أبي؟

- إنه ليس أبا حقا.

- وماذا تقصدين؟

- إنه يصرخ طوال الوقت.

- يصرخ فيك؟

- إنه يصرخ في كل شيء في العالم، ولكني لم أغادر لهذا السبب.

- ولماذا هربت إذا يا ليلي؟

- لقد قال لي تي-ري إن... إن أمي...

وانهمر الدمع من عيني وتحولت كلماتي إلى مجرد أصوات حادة غير مفهومة.

- لقد قال إن أمي تركتني. وقال إنها تركتنا كلنا وهربت.

وتكسر حائط زجاجي في صدري، حائط لم أكن أعي بوجوده هناك.

وانزلقت آب نحو حافة الكرسي وفتحت ذراعيها بنفس الطريقة التي فتحتها بها لحزيران يوم اكتشفتا الرسالة التي تركتها أيار عند انتحارها. وملت إليهما وشعرت بهما تغمرانني. أن تحتضنك آب شيء أجمل من أن تستطيع الكلمات التعبير عنه.

لقد كنت قريبة منها جدا وشعرت بقلبها ينبض على صدري ويداها تفركان ظهري. لم تقل **هيا توقفي عن البكاء، سيكون كل شيء على ما يرام**. وهي الجملة التلقائية التي يقولها لك الناس عندما يرغبون في أن تصمتي. وقالت:

- إن ذلك مؤلم. أعرف ذلك. دعيه يخرج.

وذلك ما فعلته وفمي مضغوط على فستانها، وبدا وكأنني استجمعت كل الألم الذي مر بي طوال حياتي وصببته في أعلى صدرها متخلصة منه بقوة من فمي ولكنها لم تنتفض.

وبللتها دموعي، والتصق طوق فستانها القطني بجلدها. وكنت

أستطيع رؤية لمعان الأماكن المبللة من جسدها الداكن. وكانت مثل الإسفنجة تمتص كل الأشياء التي لم أكن أستطيع الاستمرار في حملها.

وأحسست بدفء يديها فوق ظهري. وفي كل مرة كنت أتوقف فيها لاستنشق الهواء وأشهق قليلا، كنت أسمع نفسها المضطرد والمتساوي. شهيق فزفير. وحين بدأ بكائي يخبو، استسلمت لتحركات تنفسها. وفي الأخير، تراجعت ونظرت إليها وأنا أشعر بالدوار من شدة الانفجار الذي حدث بداخلي. ومررت يداها على منحدر أنفي، فأفرجتُ عن ابتسامة حزينة. وقلت:

- أنا آسفة.

فردت:

- لا تأسفي لذلك.

وتوجهَت نحو منضدتها وأخرجَت منديلا من الدرج العلوي وكان مطويا ومكويا وقد نقش اسمها على واجهته بخيط فضي. وربتت على وجهي برفق.

وقلت:

- أريد أن تعرفي أنني لم أصدق ما قاله تي-ري، فأنا أعرف أنها ما كانت لتتخلى عني هناك. لقد أردت أن أعرف عنها وأن أبين له كم كان مخطئا.

وتابعت آب وهي تحرك يديها تحت نظارتها وتحرك أصبعها في الحيز ما بين عينيها.

- أهذا ما جعلك تغادرين؟

وأومأت برأسي.

- هذا إضافة إلى أنني وروزالين وقعنا في مشكلة في البلدة. وعرفت أن تي-ري كان ليقتلني، وأنا كنت متعبة من ذلك.

وما نوع المشكلة؟

وتمنيت لو أني لم أكن مضطرة للمتابعة. ونظرت إلى الأرضية. وقالت أب:

- هل تقصدين مصدر الغرز والجرح الذي كان على رأسها؟

- كل ما كانت تريده هو تسجيل اسمها في قائمة المصوتين.

وضيقت آب جفنيها وكأنها تحاول فهم الأمر. وقالت:

- حسنا، حاولي أن تبدئي من البداية. خذي وقتك وأخبريني بكل ما حدث.

وفعلت ما بوسعي وأخبرتها عن التفاصيل البائسة وحرصت على ألا أنسى شيئا: روزالين وقد تدربت على كتابة اسمها، ثم الرجال الثلاثة وهم يستهزؤون بها، وكيف سكبت عصير السعوط على أحذيتهم.

- لقد أخذنا الشرطي إلى السجن.

قلت، وبدا وقع الكلمات غريبا وهي تصل إلى أذني، ولم أكن لأتخيل كيف استقبلتها آب.

- السجن؟

قالت آب، وانحدر جسدها.

- هل وضعوكما في السجن؟ وبأي تهمة؟

- لقد قال الشرطي إن روزالين قد اعتدت على أولئك الرجال، ولكني كنت هناك، وهي لم تفعل سوى حماية نفسها. هذا كل ما حدث.

وعضت آب على أسنانها واستقامت في جلستها وسألت:

- وكم من الوقت قضيتما هناك؟

- أنا لم أبق طويلا، فقد أتي تي-ري وأخذني، ولكنهم رفضوا إخراج روزالين ثم عاد أولئك الرجال وضربوها.

- يا عذراء!

قالت آب وطافت الكلمات حولنا، وفكرت في أن روح مريم كانت تختبئ في كل مكان. وأن قلبها الأحمر المليء بالشراسة كان بين الأشياء العادية. أليس ذلك ما قالته آب؟ هنا وفي كل مكان، ولكنها لا تُرى.

- حسنا، وكيف خرجتما في نهاية المطاف؟

هناك أشياء لا تملك إلا أن تتنفس بعمق وتقولها.

- لقد ذهبت إلى المستشفى التي أُخِذت إليها لتقطيب جرحها وأخرجتها دون علم الشرطي.

- يا عذراء!

قالت آب للمرة الثانية. ووقفت وطافت حول الغرفة مرة واحدة.

- لم أكن لأفعل ذلك قط، ولكن تي-ري قال إن الرجل الذي اعتدى على روزالين هو أكثر من يمقت السود في كل المعمور، وإنه لن يكون غريبا عنه أن يعود ويقتلها. ولم أستطع تركها هناك.

وكان الأمر مخيفا. لقد كانت أسراري تتسرب في الغرفة وكأن شاحنة نقل الأزبال قد استدارت وكبت كل محتوياتها البئيسة على الأرض لفرزها. ولكن لم يكن ذلك أكثر ما كان يخيفني. ما أخافني هو الطريقة التي اتكأت بها آب على كرسيها وحملقت في النافذة مخترقة رأسي دون أن تنظر لشيء سوى الهواء الرطب. وكان ما تفكر فيه لغزا يُتلِف الأعصاب.

وسرت حمى في عنقي.

- أنا لا أقصد أن أكون شخصا سيئا، ولكنني لا أستطيع منع ذلك.

قلت وحدقت في يديها اللتين كانتا مجتمعتين وكأنهما تصليان.

ولربما اعتقدت أن دمعي قد جف، ولكنه عاد لينهمر من جفني، وقلت:

- إن كل ما أقوم به خاطئ. أنا أكذب دائما، ليس عليك. حسنا، لقد كذبت عليك ولكن دوافعي كانت قوية. وأنا أكره الناس، ليس تي-ري فقط. ولكن أشخاص كثيرون: فتيات المدرسة اللواتي لم تقمن بشيء سوى تجاهلي. وأكره ويلفريد مارشانت، شاعرة تيبورون وأنا لا أعرفها حتى. وأحيانا أكره روزالين لأنها تحرجني. وعندما أتيت إلى هنا

كنت أكره حزيران.

وأطبق الصمت على المكان عندئذ. وارتفع كالماء. وانطلق الهدير في رأسي وانهمر المطر من عيني.

انظري إلي. ضعي يدك في يدي. قولي لي شيئا.

وفي تلك اللحظة، كان أنفي يسيل شأنه شأن عيني. وكنت أشهق وأمسح وجنتي ولم أكن قادرة على منع فمي من تقيئ جميع الأشياء الفظيعة التي استجمعتها عن نفسي. وعندما انتهيت، حسنا... إن كانت تستطيع أن تحبني عندها، وإذا كانت تستطيع أن تقول ليلي، **أنت لا تزالين زهرة مميزة مزروعة في الأرض،** حينها ربما كنت سأستطيع أن أنظر إلى مرايا غرفة الاستقبال وأن أرى النهر يلمع في عيني ويتدفق رغم كل الأشياء التي ماتت فيه.

وقلت:

- ولكن ذلك كله ليس بشيء يذكر.

وكنت أقف على قدمي وبي رغبة في الذهاب إلى مكان ما ولكن لم يكن لي مكان أقصده. لقد كنا على جزيرة. جزيرة زرقاء تطفو داخل منزل وردي أفرغت فيه زوادتي، وكنت آمل ألا يزج بي في الخارج، في البحر لأنتظر عقابي.

- لقد...

وكانت آب تنظر إليّ ولم أكن أعرف كيف يمكنني قول ذلك.

- لقد ماتت أمي بسببي. أنا... أنا قتلتها.

وانتحبتُ وجثوت على ركبتي على البساط. وكانت تلك المرة الأولى التي نطقت فيها تلك الكلمات أمام شخص ما. وقد شرخ وقعها قلبي.

قد تسمع مرة أو مرتين في حياتك كلها روحا قاتمة تهمس لك، صوتا ينبعث من كنه الأشياء، وسيكون له شفرات عند الشفاه ولن يتوقف قبل أن تفصح عن السر. وأنا أجثو على الأرضية، غير قادرة على التوقف عن الارتعاد، سمعته يقول بوضوح:

- أنت غير محبوبة يا ليلي أوينز. من هذا الذي سيحبك؟ من هذا الذي سيحبك في العالم كله؟

انحنيت أكثر، حتى الكعب، غير واعية تماما بأنني كنت أتمتم الكلمات عاليا، **لن يحبني أحد**. وحين نظرت حولي، لمحت شذرات الغبار تسبح وسط الضوء المنبعث من المصباح، وكانت آب قد وقفت وأخذت تنظر إلي.

واعتقت أنها قد تحاول أن توقفني على قدمي، ولكنها جثت على ركبتيها إلى جانبي وأزاحت الشعر عن وجهي وقالت:

- آه يا ليلي، يا طفلتي.

فقلت وأنا أحدق في عينيها:

- لقد قتلتها عن طريق الخطأ.

فقالت، وقد أمسكت بذقني وأدارت وجهي نحو وجهها:

- أنصتي إليّ الآن. ذلك أمر مريع. من المريع أن تعيشي مع تلك الفكرة، ولكنك محبوبة. وحتى وإن قتلتها عن طريق الخطأ، فأنت تبقين أعز فتاة وأكثر الفتيات المحبوبات. إن روزالين تحبك، وأيار كانت تحبك، وليس من الصعب رؤية أن زاك يحبك وكل بنات مريم تحببنك. وحزيران، ورغم تصرفاتها فهي تحبك. كل ما في الأمر هو أنها احتاجت لبعض الوقت لأنها كانت مستاءة جدا من والدتك.

- كانت مستاءة من أمي؟ ولكن لماذا؟

قلت وقد أدركت أن حزيران أيضا كانت تعرف من أكون منذ البداية.

وحركت آب رأسها وقالت:

- إنه أمر معقد، مثل حزيران تماما. فهي لم تستطع تقبل عملي كخادمة في منزل أمك. وأعرف أن ذلك لم يكن عادلا، ولكنها أفرغت غضبها في ديبورا. ولكنها تحبك الآن، أليس كذلك؟

وقلت:

- أعتقد ذلك.

ولكن ما أريد أن تعرفيه حقا هو أنك محبوبة. وأنا أحبك تماما كما كنت أحب والدتك.

ونهضت آب، ولكني لم أبرح مكاني، وكنت أخزن كلماتها بداخلي. وقالت:

- أعطني يدك.

ومدت يدها لي. وحين وقفت على قدمي، شعرت بالدوار، بذلك الشعور الذي يجرفك عندما تنهض بسرعة قصوى.

لقد انهمر عليّ كل ذلك الحب. ولم أكن أعرف ما يمكنني أن أفعله به.

وكنت أرغب في أن أقول لها **أحبك أيضا. أحبكم جميعا.** وسري فيّ ذلك الشعور كزوبعة، ولكني حين هممت بقول ذلك، لم يكن لدي صوت ولا كلمات. فقط الكثير من الهواء والحنين.

وقالت آب:

- نحن الاثنتان بحاجة إلى بعض الهواء النقي.

ثم انطلقت نحو المطبخ بخطى ثابتة.

****

صبت آب كأسين من الماء المثلج من المبرد. وأخذناهما إلى الشرفة الخلفية حيث جلسنا على الأرجوحة. وأخذنا في احتساء المشروب البارد والاستماع لصرير السلاسل. إن الهدوء الذي يبعثه ذلك الصوت مثير. ولم نتكلف عناء تشغيل الضوء فقد كان الجلوس في الظلام كذلك يبعث على الهدوء.

وبعد بضع دقائق، قالت آب:

- هناك شيء لا أستطيع فهمه يا ليلي... كيف وصلتما إلى هنا؟

وأخرجت الصورة الخشبية لمريم السوداء من جيبي وناولتها إياها:

لقد كانت أمي تحتفظ بها، وقد جدتها في السقيفة مع صورتها.

- يا إلهي!

قالت آب، وغطت فمها بيدها، ثم أضافت:

- لقد أعطيت هذه الصورة لوالدتك قبل وفاتها بوقت قصير.

ووضعت كأسها على الأرض ومشت في الشرفة. ولم أعرف إن كان عليّ متابعة الحديث، فانتظرت أن تقول هي شيئا ما، وعندما لم تفعل، ذهبت إليها ووقفت إلى جانبها. وكانت تزم شفتيها وعيناها تحملقان في الليل. وكانت الصورة بين يدها ولكنها كانت تتدلى إلى جانب جسدها.

واحتاجت إلى دقيقة كاملة قبل أن ترفع الصورة من جديد حتى نستطيع كلانا التحديق فيها.

وقلت:

- لقد كتب على ظهرها تيبورون، ك.ج..

وأدارت آب الصورة وقالت:

- لا بد وأن ديبورا قد كتبت ذلك.

وعبر وجهها ما يشبه الابتسامة، وأضافت:

- لقد كانت لتفعل ذلك، فقد كان لديها ألبوم صور كامل وكانت تكتب على ظهر كل صورة منه مكان التقاطها حتى وإن قد التقطت في منزلها.

وناولتني الصورة، فتأملتها ومررت أصبعي على كلمة تيبورون.

وقالت آب:

- من كان ليظن ذلك؟

وعدنا إلى مكاننا على الأرجوحة حيث كنا نتأرجح جيئة وذهابا، ونضغط بأرجلنا على الأرض لنحرك الأرجوحة بلطف. وكانت آب تحدق أمامها، وقد انزلق حزامها على مرفقها دون أن تنتبه لذلك حتى.

لطالما قالت حزيران إن معظم الناس يقضمون أكثر مما كانوا يستطيعون مضغه، ولكن آب كانت تمضغ أكثر مما تقضم. وكانت حزيران تحب ممازحتها بشأن الطريقة التي كانت تتأمل بها الأشياء، وكيف كانت تتكلم معك في لحظة، وتنزلق نحو عالم خاص في اللحظة الموالية وتأخذ في تقليب أفكارها دون توقف وهضم الأشياء التي كانت تخنق معظم الناس. وكنت أود أن أقول لها، **علميني فعل ذلك. علميني كيف أتعايش مع هذا كله.**

ودوى الرعد فوق الأشجار، وكنت أفكر في حفلات الشاي التي كانت تنظمها أمي والسندويتشات التي كانت تعدها لدماها، وغمرني ذلك بالحزن. ربما لأنني كنت أرغب في حضور حفلة كتلك، وربما لأن تلك السندويتشات كانت لتكون محشوة بزبدة الفول السوداني التي لم تكن تعجبني كثيرا، وكانت الحشوة المفضلة عند أمي. وتساءلت عن القصيدة التي ساعدتها آب في حفظها وما إذا كانت لا تزال عالقة بذهنها عندما تزوجت تي-ري. هل كانت تستلقي على السرير وتسمع شخير تي-ري وتأخذ في تذكر القصيدة إلى أن تنام، وتتمنى لو أنها

هربت مع روبرت فروست؟

ونظرت إلى آب بجانب عيني. وأخذت في استرجاع تلك اللحظة في غرفتها حيث أفصحت لها عن أبشع الأمور البشرية. وبعد أن سمعت ذلك، قالت **أنا أحبك تماما كما كنت أحب والدتك.**

- حسنا إذن.

قالت آب وكأننا لم نتوقف عن الحديث، وتابعت:

- هذا يفسر كيف أتيت إلى تيبورون، ولكن كيف وجدتني بحق السماء؟

- لقد كان ذلك سهلا. لم يستغرق الأمر طويلا قبل أن ألمح عسل مادونا السوداء وكانت عليه نفس الصورة التي كانت أمي تحتفظ بها. مادونا السوداء القادمة من بريزنشار في بوهيميا.

- لقد نطقت اسمها بطريقة جميلة.

- لقد تدربت على ذلك.

- وأين رأيت العسل؟

- في متجر ومطعم يخنة فروغمور عند طرف البلدة. وسألت الرجل الذي كان يرتدي ربطة عنق على شكل فراشة عن مصدر العسل، فدلني على منزلك.

- لا بد وأنه السيد غرادي. أقسم أن هذا يجعلني أعتقد أنه كان مقدرا لك أن تجدينا.

لقد كان ذلك مقدرا، ولم يكن لدي أدنى شك في ذلك. وكل ما كنت أتمناه هو أن أعرف مآلي، ونظرت إلى حجرينا وكيف كنا نحن الاثنتين نضع راحتي أيدينا على أفخاذنا وكأننا كنا ننتظر أن يسقط شيء ما.

وقالت:

- حسنا، لنتحدث عن والدتك.

وأومأت برأسي. وكانت كل جوارحي تتحرق للحديث عنها. وقالت آب:

- عندما تشعرين بالحاجة إلى أخذ استراحة أخرى، أخبريني بذلك.

- حاضر.

قلت. ولم أستطع تخيل ما كنا مقدمتين عليه. شيء سيتطلب أخذ استراحات. ولكن لماذا كنا لنحتاج إلى ذلك؟ استراحات للرقص من الفرح؟ أم لتستطيع إعادتي للحياة بعد أن يغمى علي؟ أم أن الاستراحات كانت لأستطيع استقبال الحقائق غير السارة؟

وانطلق نباح كلب في الأفق. وانتظرت آب إلى أن توقف، ثم قالت:

- لقد بدأت العمل لدى والدة ديبورا في عام ١٩٣١. وكانت ديبورا في الرابعة من عمرها. لقد كانت طفلة جميلة ولكنها كانت تثير المتاعب، وأقصد الكثير منها. ففي البداية، كانت تسير خلال نومها. وذات ليلة، سارت إلى الخارج وتسلقت سلما تركه العمال الذين كانوا يصلحون السقف عند حائط المنزل. لقد كان سيرها خلال الليل يضني والدتها كثيرا.

وضحكت، ثم تابعت:

- وكانت لوالدتك صديقة خيالية. هل كانت لك واحدة يوما ما؟

وحركت رأسي بالنفي فواصلت:

- لقد كانت تناديها تيكا تي. وكانت تتحدث إليها عاليا وكأنها تقف معها. وإذا نسيت أن أضع مكانا لتيكا تي على الطاولة، كانت ديبورا تثور غضبا. وأحيانا، كنت أجهز مكان تيكا تي وكانت ديبورا تقول: «ماذا تفعلين؟ إن تيكا تي ليست هنا. لقد ذهبت لتمثيل في فيلم ما». وكانت والدتك تحب شيرلي تمبل.

- تيكا تي.

قلت لأشعر بذلك الاسم في لساني.

وقالت آب:

- لقد كانت تيكا تي تلك مميزة. فقد كانت تجيد كل ما كان يستعصي على ديبورا فعله. وكانت تيكا تي تحصل على علامات كاملة في وظائف المدرسة، وكانت تحصل على نجوم في مدرسة يوم الأحد، وكانت ترتب سريرها وتنظف طبقها. وكان الناس ينصحون جدتك، وكان اسمها سارة، بأخذ ديبورا إلى طبيب في ريتشموند كان يعالج الأطفال الذين يعانون من مشاكل. ولكنني قلت لها: «لا تقلقي بشأن ذلك. إنها فقط تتعامل مع الأشياء بطريقتها الخاصة. سوف تنسى تيكا تي مع مرور الوقت.»

وذلك ما حصل.

ما الذي جعلني لا أعرف شيئا عن الأصدقاء الخياليين. فأنا أرى الفائدة منهم، وكيف أن جزءا منك ينصرف إلى الخارج ويذكرك بمن يمكن أن تكون لو أنك بذلت بعض الجهد.

وقلت:

- لا يبدو أن هناك شبها بيني وبين أمي.

- بل هناك شبه بينكما. لقد كان لديها شيء مميز مثلك. فقد كانت تقوم فجأة بأشياء لا تحلم بها الفتيات في سنها مجرد الحلم.

- مثل ماذا؟

وحدقت آب في كتفي وابتسمت:

- ذات مرة، هربت من المنزل، ولا أستطيع حتى تذكر مما كانت مستاءة. وبحثنا عنها حتى بعد حلول الظلام، ثم عثرنا عليها وكانت تنام بعمق في قناة لتصريف المجاري.

وبدأ الكلب في النباح من جديد. ولاذت آب بالصمت. وأصغينا السمع وكأنه كان صفارة إنذار، وجلست في تلك الأثناء بعينين مغلقتين وكنت أحاول تخيل أمي وهي تنام في قناة للتصريف.

وبعد برهة قلت:

- كم من الوقت عملت لدى... جدتي؟

- لقد عملت لديها لمدة طويلة دامت أكثر من تسع سنوات، إلى أن حصلت على عمل في التدريس كما أخبرتك. وقد بقينا على اتصال بعد

أن غادرت.

- أراهن أنهم لم يحبوا انتقالك إلى كارولاينا الجنوبية.

- لقد بكيت ديبورا المسكينة دون انقطاع. وكان عمرها تسعة عشر عاما عندها، ولكنها بكت وكأنها كانت في السادسة.

وتباطأت الأرجوحة وتوقفت، ولم تفكر أي منا في تحريكها من جديد.

- وكيف جاءت أمي إلى هنا؟

وأجابت آب:

- كنت قد أمضيت عامين هنا. وقد بدأت عملي في صنع العسل، وكانت حزيران تعمل في المدرسة حين تلقيت مكالمة طويلة المسافة منها. وكانت تبكي بحرقة، وقالت إن والدتها قد توفيت، وقالت لي: «لم يبق لي أحد غيرك».

- وماذا عن والدها؟ أين كان؟

- السيد فونتانيل توفي عندما كانت رضيعة، ولم ألتق به قط.

- إذا هي انتقلت إلى هنا لتكون معك.

- لقد كان لديبورا صديقة من المدرسة الثانوية، وكانت قد انتقلت لتوها إلى سيلفان، وهي من أقنعها بأن سيلفان مكان مناسب لها. وقالت لها إن هناك الكثير من فرص العمل والرجال العائدين من الحرب. فانتقلت ديبورا إلى هنا. وأعتقد أن وجودي هنا شجعها لحد كبير، فقد كانت تريد أن تكون قريبة مني.

وبدأت الخيوط تتجمع. وقلت:

- جاءت أمي إلى سيلفان والتقت بتي-ري وتزوجا.

وردت آب:

- هذا صحيح.

حين خرجنا إلى الشرفة، كانت السماء مفروشة بالنجوم، وكان درب التبانة يلمع وكأنه طريق حقيقية بوسعك المشي فيها وإيجاد أمك واقفة عند نهايته ويداها على خصرها. ولكن، في تلك اللحظة، اكتسح الحديقة ضباب كثيف واستقر عند الشرفة. وبعد دقيقة، بدأ مطر خفيف في التهاطل.

وقلت:

- ولكني ما لن أفهمه أبدا هو سبب زواجها منه.

- لا أعتقد أن والدك كان دائما بنفس الصورة التي هو عليها الآن. لقد أخبرتني ديبورا عنه. وكانت تحب كونه كرِّم في الحرب. لقد كانت تراه شجاعا جدا. وكانت تقول إنه يعاملها كأميرة.

وكدت أضحك في وجهها.

- ولكن، هذا ليس تيرانس ري نفسه. ويمكنني قول ذلك.

- تعرفين يا ليلي، قد يبدأ الناس بصورة ما، ولكن الحياة تدور وتنال منهم فيصبحون مختلفين تماما. أنا لا أشك في أنه كان يحب والدتك في البداية. وفي الواقع، لقد كان يعبدها. ثم تشربت والدتك ذلك، مثل الكثير من الشابات اللواتي تؤخذن بالرومانسية. ولكن بعد ستة أشهر

أو ما إلى ذلك، بدأ ذلك في التلاشي. لقد تحدثت في إحدى رسائلها عن الوسخ الذي كان يتجمع تحت أظافر تيرانس. وأنا أتذكر ذلك. وبعد ذلك، كتبت لي وقالت إنها لم تعد متأكدة من أنها تستطيع العيش في مزرعة أو شيئا من هذا القبيل. وحين تقدم لها رفضته.

- ولكنها تزوجته.

قلت وأنا جد مشوشة.

- لقد غيرت رأيها بعد ذلك وقبلت.

فقلت:

- لماذا؟ إذا كان الحب قد تلاشي، فلماذا تزوجته؟

وشبكت آب كفيها ووضعتهما وراء رأسي وسرحت شعري بأصابعها. وقالت:

- لقد فكرت مليا فيما إن كان ينبغي أن أخبرك بذلك، ولكن لربما ساعدك هذا في فهم كل ما حدث بصورة أفضل. عزيزتي، لقد كانت ديبورا حاملا. هذا هو السبب.

لقد أدركت ذلك قبل أن تنطق به، ولكن مع ذلك، كان وقع كلماتها كمطرقة.

- لقد كانت حاملا بي.

قلت وبدا صوتي واهنا وأنا أنطق بتلك الكلمات. لقد كانت حياة أمي أثقل مما كنت أحتمل.

- هذا صحيح، لقد كانت حاملا بك. وقد تزوجا مع اقتراب عيد الميلاد. واتصلت بي لإخباري بذلك.

منبوذة، لقد كنت طفلا منبوذا.

ولم يكن الأمر يقتصر على ذلك. لقد علقت أمي مع تي-ري بسببي أنا. وكنت مسرورة لأننا كنا نجلس وسط الظلام ولم تكن آب تستطيع رؤية الانكسار على وجهي. قد تعتقد أنك ترغب في معرفة شيء ما، ولكن ما أن تفعل حتى ترغب في مسح ذلك من ذاكرتك تماما. وقد كنت أخطط أن أجيب من يسألونني عما أريد أن أصير في المستقبل بأنني أريد أن أفقد الذاكرة.

وأصغيت إلى همس المطر. وكان الرذاذ يطفو ويبلل وجنتي بينما كنت أحصي أصابعي. وقلت:

- لقد ولدت بعد سبعة شهور من زواجهما.

- اتصلت بي بعد أن ولدت مباشرة، وقالت إنك جميلة جدا لدرجة أنها لم تكن تكف عن النظر إليك.

وأشعرني ذلك بوخزة في عيني وكأن الرمل دخل إليهما. ربما كانت أمي قد أعجبت بي في نهاية المطاف وتحدثت إليّ بلغة الأطفال المحرجة، ولفت شعري الصغير على شكل مخروط مثلجات ووضعت عليه فراشات وردية. حتى وإن لم تكن خططت لإنجابي، فإن ذلك لا يعني أنها لم تكن تحبني.

وتابعت آب الحديث بينما ركنت إلى القصة التي اعتدت أن أحكيها

لنفسي والتي كانت أمي تحبني فيها بجنون. لقد عشت بداخل تلك القصة كما يعيش السمك الذهبي في حوضه، وكأن العالم كله يختزل فيها. وكانت مغادرتها لتتسبب في هلاكي.

وكنت أجلس بكتفين متهدلين وأحدق في الأرض. وقررت ألا أفكر في كلمة «منبوذة».

وقالت آب:

- هل أنت بخير؟ هل تريدن الذهاب إلى فراشك والاكتفاء بهذا القدر ثم متابعة حديثنا غدا؟

فانتفضت وقلت:

- لا.

ثم أخذت نفسا وتابعت:

- أنا بخير حقا.

وحاولت التظاهر بالهدوء، وقلت:

- أنا فقط أحتاج لبعض الماء.

وأخذَتْ كأسي الفارغ وذهبت إلى المطبخ واستدارت باتجاهي مرتين. وعندما عادت بالماء، كانت قد علقت مظلة حمراء على معصمها، وقالت:

- سآخذك بعد قليل إلى بيت العسل.

وأنا أشرب، كان الكأس يهتز بين يدي والماء ينزلق بالكاد. وعلا صوت البلع في حلقي حتى غطى على صوت المطر لبضع ثوان.

وقالت آب:

- هل أنت متأكدة من أنك لا ترغبين في الخلود إلى سريرك الآن.

- أنا متأكدة، أريد أن أعرف...

- وماذا تريدين أن تعرفي يا ليلي؟

فقلت:

- كل شيء.

واستسلمت آب وجلست إلى جانبي على الأرجوحة، وقالت:

- حسنا إذن... حسنا.

وقلت:

- أعرف أنها تزوجت منه فقط بسببي. ولكن هل تعتقدين أنها كانت سعيدة، ولو قليلا؟

- نعم، أعتقد أنها كانت سعيدة لبعض الوقت. وأعرف أنها كانت تحاول، فقد تلقيت حوالي اثنتي عشرة رسالة منها ومثلها من المكالمات الهاتفية على أوقات متفرقة من السنوات الأولى، وكنت أرى أنها كانت تبذل مجهودا. وهي كانت غالبا ما تكتب عنك، وعن تعلمك الجلوس، ثم عن خطواتك الأولى وعن الألعاب التي كنت تلعبينها. ولكن

رسائلها ما لبثت أن تناقصت، وحين كانت تصلني، كان بإمكاني أن أرى أنها لم تكن سعيدة. وذات يوم، اتصلت بي. وكان ذلك عند نهاية آب أو بداية أيلول؛ وأنا أتذكر ذلك لأننا كنا قد احتفلنا بيوم مريم بفترة قصيرة.

وقالت إنها ستترك تي-ري وإن عليها ترك المنزل. وكانت تسأل إن كانت تستطيع المكوث معنا لبضعة أشهر إلى أن تتبين ما يمكنها فعله من بعد. وطبعا وافقت على ذلك. وحين ذهبت لإحضارها من محطة الحافلات، كانت مختلفة تماما. لقد أصبحت هزيلة وكانت تحت عينيها هالات سوداء.

وأحسست بمغص في بطني. فقد عرفت أننا قد وصلنا إلى النقطة التي كنت أخشاها أشد خشية. وتسارعت أنفاسي.

- كنت معها حين التقيت بها في محطة الحافلات. أحضرتني معها، أليس كذلك؟

وانحنت آب باتجاهي واقتربت من أذني وقالت:

- لا يا عزيزتي. لقد أتت لوحدها.

وعضضت على باطن وجنتي دون أن أشعر بذلك، وجعلني طعم الدم أرغب في البصق، ولكنني اكتفيت ببلعه. وقلت:

- ولماذا؟ لماذا لم تحضرني؟

- كل ما أعرفه يا ليلي هو أنها كانت تعاني من الاكتئاب، لقد كانت منهارة نوعا ما. وعندما غادرت المنزل، لم يكن قد حدث شيء

غير عادي. لقد استيقظت وقررت أنها لم تكن قادرة على المكوث هناك أكثر من ذلك. فاتصلت بامرأة من المزرعة المقابلة وطلبت منها أن تبقى معك وقادت شاحنة تيرانس ري إلى محطة الحافلات. وكنت أعتقد أنها ستحضرك معها إلى أن وجدتها وحدها في محطة الحافلات.

وصرت الأرجوحة بينما كنا نجلس هناك ونشتم رائحة المطر الدافئة والغابة الندية والعشب المتعفن. **لقد تركتني أمي.**

- أنا أكرهها.

قلت وكنت أنوي أن أهتف بذلك عاليا، ولكن الكلمات خرجت بهدوء غير طبيعي، وكانت منخفضة وجشة كصوت السيارات وهي تسحق الحصى ببطء.

- مهلا يا ليلي.

- أنا أكرهها. وهي لم تكن كما تخيلتها بتاتا.

لقد قضيت حياتي متخيلة كل الطرق التي كانت تحبني بها والمخلوق المثالي الذي كانته. وكان ذلك كله كذبة من صنعي.

- لقد كان من السهل عليها تركي، ولكنها لم تكن ترغب بي أصلا.

قلت، ومدت آب ذراعيها إلي، ولكنني فتحت الباب الزجاجية المفضية إلى أدراج الشرفة.

وقالت آب:

- لن أخلق لها الأعذار يا ليلي، لقد فعلت والدتك ما فعلته.

- أم نكرة.

قلت، وشعرت بالقسوة بداخلي. القسوة والغضب.

- هل لك أن تنصتي إلي يا ليلي؟ عندما قدمت والدتك إلى تيبورون. كانت جلدا على عظم بالأساس. ولم تستطع أيار جعلها تأكل أي شيء. ولم تتوقف عن البكاء لأسبوع. وقد سميت تلك الحالة فيما بعد انهيارا عصبيا، ولكننا لم نعرف ما نطلق عليها عند حدوثها. وأخذتها إلى الطبيب هنا، فأعطاها زيت كبد سمك القد وسأل عن عائلتها البيضاء. وقال إنها ربما تحتاج إلى قضاء بعض الوقت في مستشفى الأمراض العقلية، ولكني لم آخذها إليه مرة أخرى.

- مستشفى الأمراض العقلية؟ ولكنه مكان للمختلين عقليا.

وكانت القصة تسوء أكثر فأكثر.

- أعتقد أن الطبيب لم يكن يعرف ما يمكن أن يفعل لها. ولكنها لم تكن مختلة عقليا. لقد كانت تعاني من الاكتئاب.

- كان يجدر بك أن تدعيه يزجها هناك. ليتها تعفنت هناك.

- ليلي!

لقد صدمتُها وسرني ذلك.

لقد كانت أمي تبحث عن الحب، ولكنها عثرت على تي-ري والمزرعة ثم أنا عوضا عن ذلك. ولم أكن أكفيها. ولذلك فقد تركتني مع تي-ري أوينز.

وشق البرق السماء، ولم يستطع حتى ذلك هزي من مكاني. وتناثر شعري كالدخان في كل اتجاه. وأحسست بعيني تتصلبان وتهمدان وتصبحان ضيقتين كعملة معدنية صغيرة. وحدقت في حفنة من فضلات العصافير كانت على الدرج السفلي وفي المطر وهو يلطخ بها الشقوق الخشبية.

- هل تسمعينني الآن؟

قالت آب وصوتها يتسرب من الزجاج وفي كل كلمة حواف حادة.

- هل تسمعينني؟

- نعم، أنا أسمعك.

- إن من يعانون من الاكتئاب يفعلون أشياء لم يكونوا ليقدموا عليها في الظروف العادية.

- أشياء مثل ماذا؟ التخلي عن أبنائهم؟

قلت ولم أستطع التوقف. وبلل المطر خفيّ وتسرب من بين أصابعي.

وأطلقت آب زفرة وعادت لتجلس على الأرجوحة. وبدا وكأنني قد جرحتها أو أشعرتها بالخيبة، فحفر ذلك هوة بداخلي. وتلاشي بعض من كبريائي.

وصعدت الأدراج وعدت إلى الداخل، إلى الشرفة الزجاجية. وجلست بجانبها على الأرجوحة، ووضعت يدها على يدي، وتسربت

الحرارة من راحتها إلى جلدي. وشعرت بالقشعريرة.

- تعالي إلي.

قالت وجرتني إليها. وكان الأمر وكأنني انزلقت تحت جناح طائر وبقينا كذلك لفترة من الزمن، وأخذنا نتأرجح جيئة وذهابا وأنا تحت جناحيها.

وقلت:

- ولماذا كانت تعاني من الاكتئاب؟

- أنا لا أعرف الإجابة بأكملها، ولكن ذلك يرجع في جزء منه إلى عيشها في المزرعة بعيدا عن كل شيء، وإلى زواجها من رجل لم تكن ترغب في الزواج منه.

وانهمر المطر، وأصبح يتهاطل بغزارة أكثر كأغطية سوداء فضية. وحاولت استيعاب ما كان يشعر به قلبي ولكني لم أفلح في ذلك. لقد كنت أكره أمي للحظة ثم أشعر بالأسى من أجلها في اللحظة الموالية.

وقلت:

- حسنا، لنقل أنها كانت تعاني من انهيار عصبي. ولكن، كيف كان بإمكانها التخلي عني؟

- بعد أن قضت ثلاثة أشهر هنا، وبدأت تشعر بالتحسن، بدأت تتحدث عن اشتياقها لك، وفي النهاية، عادت إلى سيلفان لتحضرك إلى هنا.

واستقمت في جلستي ونظرت إلى آب، وخرج الهواء من بين شفتي بسرعة.

- هل ذهبت لإحضاري؟

- كانت تخطط لإحضارك للعيش هنا في تيبورون، وكانت قد تحدثت مع كلايتون عن طلب الطلاق. وفي آخر مرة رأيتها، كانت تلوح لي من خلال نافذة الحافلة.

ووضعت رأسي على كتف آب، وعرفت ما حدث بعدها بالضبط. لقد وصلنا إلى تلك النقطة. ذلك اليوم البعيد الذي ما كان ليبرحني. الحقيبة على الأرض. وأمي وهي تلقي الملابس بداخلها دون أن تطويها. وكانت تردد بسرعة.

لقد أخبرني تي-ري أنها عادت لأخذ أغراضها، ولكنها كانت قد عادت من أجلي. لقد كانت ترغب في إحضاري إلى تيبورون، إلى آب.

ليتنا نجحنا في الأمر. وتذكرت وقع حذاء تي-ري على الأدراج، وانتابتني الرغبة في لكم شيء ما. وفي لوم أمي لأن تي-ري فاجأنا، ولأنها لم تحزم حقيبتها بسرعة أكبر، ولأنها لم تأت في وقت أبكر.

وفي الأخير، نظرت إلى آب. وعندما تكلمت، كان طعم مر قد سرى في فمي. وقلت:

- أتذكر ذلك. أتذكر قدومها لأخذي.

- كنت أتساءل عن ذلك.

- لقد فاجأها تي-ري وهي تحزم أمتعتها. وأخذا في العراك

والصياح. وقامت...

وتوقفت، وكان صوتها يتردد في ذهني.

- تابعي.

ونظرتُ إلى يدي وكانتا ترتجفان، وقلت:

- تناولت المسدس من الخزانة، ولكنه أخذه منها. لقد حدث كل شيء بسرعة مهولة لدرجة أن الأحداث تختلط في ذهني. رأيت السلاح على الأرض وحملته. ولا أعرف لماذا فعلت ذلك، ولكني كنت أريد المساعدة. كنت أريد إعادته إليها. لماذا فعلت ذلك؟ لماذا التقطته؟

وانزلقت آب إلى حافة الأرجوحة وأدارت وجهها نحوي وكان يبدو على عينيها العزم.

- وهل تتذكرين ماذا حصل بعد أن التقطت المسدس؟

وحركت رأسي وقلت:

- فقط الضوضاء... والانفجار... لقد كان مدويا.

واهتزت سلاسل الأرجوحة. ونظرت إليّ آب وبدا وجهها عبوسا.

وقلت:

- وكيف عرفت... أن أمي قد توفيت؟

- عندما لم تعد ديبورا كما وعدت... حسنا، كان يجب أن أعرف ما حدث، فاتصلت بمنزلكم وأجابتني امرأة قالت إنها جارتكم.

وسألتها:

- هل أخبرتك جارتنا بما حدث؟

- لقد قالت إن ديبورا قد قتلت في حادثة بمسدس. ولم تكن لتقول أكثر من ذلك.

واستدرت وحدقت في الليل، وفي أغصان الأشجار المتقاطرة، وفي الظلال وهي تتحرك فوق الشرفة نصف المضاءة.

- لم تعرفي أنني من فعل ذلك، أو من فعل ذلك؟

- لا، لم أتصور قط شيئا من هذا القبيل.

قالت، ثم أضافت:

- ولا أعرف ما إن كنت أستطيع تخيل الأمر حتى الآن.

وشبكت أصابعها ووضعت يدها على حجرها وقالت:

- لقد حاولت معرفة المزيد. واتصلت من جديد فأجابني تيرانس ري، ولكنه لم يرغب في التحدث عن الأمر، وأصر على معرفة من أكون. وبعد ذلك، اتصلت بشرطة سيلفان، ولكنهم رفضوا إعطائي أي معلومات، وقالوا إنها كانت حادثة وفاة وكفي... وبذلك، كان عليّ التعايش مع جهلي بما حدث كل هذه السنوات.

وجلسنا في صمت، وكان المطر قد توقف تقريبا وتركنا وسط كل ذلك الصمت وتحت سماء غاب عنها القمر. وقالت آب:

- هيا، سآخذك إلى السرير.

وانطلقنا في جوف الليل، محاطين بالأصوات الخافتة لأغاني الجنادب وتقاطر المطر على المظلة وجميع الإيقاعات المروعة التي تنهش داخلك حين تُنزِل سقف مقاومتك. وترددت الكلمات، **لقد تركَتكِ، لقد تركتك، لقد تركتك.**

قد تنطوي المعرفة على لعنة تستشري في حياة شخص ما. لقد قايضت كومة من الأكاذيب بكومة من الحقائق، ولم أكن أعرف أيهما كان أثقل. أيهما كان يتطلب جَلدا أكبر لحمله. ولكن ذلك سؤال تافه، لأنك عندما تعرف الحقيقة، لا تملك أن تتراجع وتختار حقيبة الأكاذيب. إنها حقيبتك الآن سواء أكانت ثقيلة أم لا.

وفي بيت العسل، انتظرتْ آب إلى أن دخلت فراشي، ثم انحنت وقبلت جبهتي. وقالت:

- إن كل شخص على وجه البسيطة يرتكب أخطاء يا ليلي. كل شخص. إننا جميعا بشر، وقد ارتكبت والدتك خطأ وحاولت إصلاحه.

- تصبحين على خير.

قلت واستدرت.

- ليس هناك شيء كامل. وهذه هي الحياة.

قالت آب وقد صارت عند المدخل.

****

إن طول النحل لا يتجاوز سنتيمترا واحد إلا بقليل، ولا يبلغ وزنها إلا حوالي ٦٠ ميليغراما، ولكنها تستطيع الطيران وهي تحمل أشياء تفوق وزنها

The Honey Bee

الفصل الثالث عشر

تجمع الحر عند خطوط مرفقي وفي الأماكن الناعمة خلف ركبتي. وأنا أستلقي فوق الأغطية، تحسست جفني. لقد بكيت كثيرا لدرجة جعلتهما ينتفخان ويبدوان نصف مغلقين. ولولا حالتهما، لما صدقت أيا مما دار بيني وبين آب.

ولم أبرح مكاني منذ غادرت آب، وكان كل ما فعلته هو التحديق في سطح الحائط المستوي وفي مجموعة اليعاسيب التي كانت تخرج وتستمتع بالزحف في المكان بعد أن تظن أنك تغط في النوم. وعندما تعبت من متابعتها، رفعت ذراعيّ وغطيت عيني وقلت لنفسي: **نامي يا ليلي. نامي فحسب.** ولم أستطع ذلك بطبيعة الحال.

وجلست، وشعرت وكأن جسدي يزن مائتي رطل. وكأن أحد ما قد جر شاحنة إسمنت إلى بيت العسل، وأرجح الأنبوب إلى صدري وبدأ في صب الإسمنت عليه. وكنت أكره أن أشعر وكأنني كتلة من الإسمنت في جوف الليل.

وأنا أحدق في الحائط، فكرت في سيدتنا أكثر من مرة. وودت التحدث إليها وسؤالها: **أين يمكنني الذهاب من هنا؟** ولكني حين رأيتها في وقت مبكر، حين دخلت رفقة آب إلى بيت العسل، لم يبد أن

بيدها حيلة، فقد كانت مكبلة بالسلاسل. والمرء يرغب في أن يكون من يصلي له قادرا أو يبدو كذلك على الأقل.

ولكنني أرغمت نفسي على الخروج من السرير وذهبت إلى رؤيتها. وقررت أنه يحق لمريم نفسها ألا تكون في كامل قوتها طوال الوقت. وكان كل ما أريده هو أن تفهم. لقد كنت بحاجة لشخص يطلق تنهيدة عميقة ويقول **أنا أشعر بك أيتها المسكينة**. وإن كان لي أن أختار، كنت لأفضل اختيار شخص يفهم وضعيتي، حتى وإن كان لا يستطيع أمامها شيئا، وليس العكس. ولكن ذلك اختياري الشخصي.

وفي تلك اللحظة، استنشقت رائحة السلاسل الصدئة التي تزكم الأنوف. وشعرت بالرغبة في تخليصها منها، ولكنني لم أرغب في إفساد عملية إعادة تمثيل القصة التي كانت تقوم بها آب وبنات مريم.

وكانت الشمعة الحمراء ترتعش عند قدميْ مريم. ونزلت إلى الأرض وتربعت أمامها. وفي الخارج، كانت الريح تدوي في أعالي الأشجار، وكانت تصدر أنغام رتيبة أعادتني إلى زمن بعيد حين كان يوقظني الصوت نفسه عند الليل، فكنت، وأنا شبه نائمة وغائبة، أتخيل أمي بين الأشجار تتغنى بحبها اللامتناهي لي. وذات مرة، ركضت إلى غرفة تي-ري، وأنا أصرخ قائلة إنها كانت في الخارج قرب نافذتي، فما كان منه إلا أن قال ثلاث كلمات: اللعنة يا ليلي.

وكنت أكره أن يكون على صواب. فلم يكن هناك أي صوت في الريح. ولم تكن أمي تغني هناك. ولم يكن هناك أي حب لا متناه.

وكان الشيء المريع، الشيء المريع حقا، هو الغضب الذي تجمع

بداخلي. وكان قد بدأ عند الشرفة الخلفية التي انهارت فيها قصة أمي ومعها الأرض التي كنت أقف عليها. ولم أكن أريد أن أغضب. وقلت لنفسي، **لست غاضبة. ليس لك أي حق في أن تغضبي. إن ما فعلته بأمك أسوأ بكثير مما فعلته هي لك.** ولكن، ليس بوسعك أن تمنع نفسك من الغضب، فإما أن تكون غاضبا أو لا.

وكانت الغرفة حارة وهامدة. وفي الدقيقة التي تلت، لم أكن قادرة على التنفس من جراء الغضب الذي ملأني. وكانت رئتاي تنتفخان فتصطدمان به ثم ما تلبثا أن تعودا إلى مكانهما.

ووقفت على قدمي ومشيت وسط العتمة. وكانت طاولة العمل خلفي وعليها بعض مرطبانات عسل مادونا السوداء التي كان زاك سيأخذها إلى مكان ما في البلدة، ربما إلى مكتب كلايتون أو إلى متجر ومطعم يخنة فروغمور أو متجر ذي آيمن دولار أو متجر ديفاين دو أو صالون التجميل الخاص بالسود.

كيف تجرأتْ على ذلك؟ كيف تجرأَتْ على تركي؟ لقد كنت مجرد طفلة.

ونظرت إلى النافذة وانتابتني رغبة في تهشيم لوحاتها الزجاجية. كنت أريد أن أرمي بشيء ما إلى السماء وأكسر فيها شيئا ما. وحملت مرطبان عسل ورميته بكل ما أوتيت من قوة، فكاد يضرب رأس مريم وارتطم بالحائط فتهشم. وتناولت مرطبانا آخر ورميته كذلك. فهوى على الأرض إلى جانب مجموعة من العاسلات. ورميت باقي المرطبانات إلى أن أصبح العسل يكسو المكان بأكمله وتطاير كما تتطاير خلطة الحلوى من الضراب الكهربائي. وكنت أقف وسط غرفة لزجة

مليئة بشذرات الزجاج، ولم أكن أكترث بذلك. لقد تركتني أمي. ومن كان ليهتم بالعسل المطلي على الجدران؟

وبعد ذلك، أخذت سطلا قصديريا، ونخرت ثم ألقيته بعنف لدرجة أنه خلف انبعاجا على الحائط. وخارت قوة اليد التي رميت بها هذه كل تلك الأشياء، ولكني مع ذلك حملت صينية من قوالب الشمع وألقيت بها كذلك.

ثم توقفت وتفرجت على العسل وهو ينزلق من الحائط نحو الأرضية. وسال بعض الدم الفاتح على ذراعي اليسرى. ولم تكن لدي أي فكرة عن مصدره. وكان قلبي يدق بجموح، وشعرت وكأنني فتحت جلدي وخرجت من جسدي مؤقتا وتركت العنان لشخص أحمق.

وتحولت الغرفة إلى دوامة، وكان بطني يتحرك دون توقف. وشعرت بالحاجة إلى لمس الحائط بكلتا يدي لجعل الدوامة تتوقف من جديد. وعدت إلى الطاولة التي كانت عليها المرطبانات وأسندت يديّ عليها. ولم أستطع التفكير فيما كان يمكنني فعله. وشعرت بحزن قوي ليس بسبب ما فعلته، بغض النظر عن سوئه، وإنما لأن كل شيء بدا فارغا: المشاعر التي كنت أكنها لها والأشياء التي اعتقدتها وكل القصص التي كانت تدور حولها والتي عشت عليها وكأنها الطعام والماء والهواء. ولأنني كنت الفتاة التي تركتها. وهذا ما كان عليه الأمر.

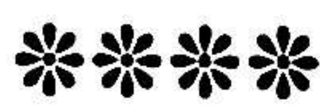
وأنا أتفقد الخراب الذي تسببت فيه، تساءلت إن كان أحد ما ممن في المنزل الوردي قد سمع ارتطام مرطبانات العسل بالحائط. وتوجهت إلى النافذة وحدقت في الحديقة الحزينة. وكانت الألواح الزجاجية لغرفة آب

مظلمة. وتحسست قلبي وكان يؤلمني أشد الألم، وكأن أحدا دهسه برجله.

لماذا تركتِني؟ همست وتابعت نفَسي وهو ينفث دائرة ضبابية على الزجاج.

وبقيت متكئة على النافذة لوهلة، ثم غادرتها وبدأت في التقاط بعض الشذرات الزجاجية المتناثرة على الأرضية قرب سيدتنا. واستلقيت على جانبي وأدنيت ركبتي من ذقني. وكانت مريم السوداء فوقي، ملطخة بالعسل ولم يبد عليها الاندهاش بتاتا. واستلقيت في الفراغ وفي التعب وقد استنزِف كل شيء، حتى الكره. ولم يبق شيء لأفعله. ولم يكن هناك أي مكان لأقصده. فقط ذلك المكان، وفي تلك اللحظة، حيث كانت الحقيقة.

وعزمت ألا أنهض في وسط الليل إلا إن كنت أرغب في قطع رجلي إربا. وبعد ذلك، أغلقت عيني وبدأت أركِّب الحلم الذي كنت أرغب في رؤيته. فكان باب صغير سيفتح في تمثال مريم السوداء، فوق بطنها مباشرة، وكنت سأزحف بداخله إلى غرفة سرية. ولم يكن ذلك من صنع خيالي تماما، لأنني كنت قد لمحت صورة في كتاب آب، وكان فيها تمثال مريم وفيه باب مفتوح على مصراعيه، وكان في داخله الكثير من الناس في عالم سري يحصلون فيه على المساواة.



أيقظتني يدا روزالين الكبيرتان وكانتا تهزانني، ففتحت عيني وشدههما الضوء. وكان وجهها منحنيا على وجهي ورائحة القهوة وهلام العنب تنبعث من فمها، وصاحت:

- ليلي! ما الذي حدث هنا بحق السماء؟

وكنت قد نسيت أن الدم كان سيتيبس على ذراعي. ونظرت إليه، وإلى قطعة من الزجاج، بحجم عقب ألماسة، كانت مغروسة في جزء ملتو من جلدي. وتناثرت حولي شذرات مسننة من المرطبانات وبرك من العسل. وكست الأرضية نقط من الدم.

وحملقَت فيّ روزالين، وكانت تنتظر وقد بدا عليها الذهول. وبحلقت فيها بدوري وأنا أحاول رؤيتها بوضوح، وكانت أشعة الشمس تسطع على سيدتنا وتلقي انعكاسها من حولنا.

وقالت روزالين:

- أجيبيني.

وضيقت جفني من وقع الضوء، ولم يبد أن فمي سينطق بأي كلمة. فأضافت:

- أنظري. لقد كنت تنزفين.

وأومأت برأسي وحركت عنقي وتفقدت الغرفة المحطمة، فشعرت بالإحراج والتفاهة والغباء.

- لقد... لقد رميت ببعض مرطبانات العسل.

- أنت من فعل ذلك؟

قالت روزالين، وبدت غير مصدقة، وكأنها كانت تنتظر أن أقول لها إن عصابة متنقلة من محطمي المنازل تسللت إلى المنزل خلال الليل. وأطلقت زفرة قوية لدرجة أنها هزت شعرها، ولم يكن ذلك سهلا على

الإطلاق بالنظر إلى كمية مثبت الشعر التي كانت تضعها. وقالت:

- يا إلهي، يا رب السماء.

ونهضْتُ وانتظرت أن توبخني، ولكنها أخذت تحاول إخراج قطعة الزجاج من ذراعي بأصابعها الغليظة. ثم قالت لي:

- هيا، أنت بحاجة إلى مطهر قبل أن يحدث التهاب ما في ذراعك.

وبدا عليها الحنق، وكأنها كانت تود أن تمسكني من كتفي وترجني إلى أن تسقط أسناني.

وجلست على حافة الحوض فيما كانت روزالين تدهن ذراعي بماسحة قطنية مثلجة ولاسعة. ووضعت لصقة على الجرح وقالت:

- ها نحن، لن تموتي من تسمم في الدم على الأقل.

وأغلقتْ درج الأدوية الذي كان فوق المغسلة، ثم أغلقت باب الحمام. وشاهدتها تجلس على كرسي المرحاض وكان بطنها يتدلى على ساقيها. وجلستُ على جانب الحوض وشعرت بالراحة لأن آب وحزيران كانتا لا تزالان في غرفتيهما.

وقالت روزالين:

- أخبريني، لماذا رميت بكل ذلك العسل؟

ونظرت إلى صف صدف البحر على حافة النافذة وأنا أعرف أنها كانت تنتمي لذلك المكان رغم أننا كنا بعيدين بأميال عن المحيط. وكانت آب تقول إنه يجب أن يضع كل شخص صدفة بحر في حمامه

لتذكره بانتمائه إلى المحيط. وقالت إن صدف البحر هي الشيء المفضل لدى سيدتنا إلى جانب القمر.

وذهبت إلى النافذة والتقطت صدفة، وكانت بيضاء وجميلة ومسطحة وصفراء الحواف.

وبقيت روزالين جالسة هناك وهي تراقبني، وقالت:

- إذا؟

- لقد كان تي-ري على حق فيما قاله عن أمي.

قلت، وقد أشعرتني تلك الكلمات بالغثيان وهي تخرج من فمي.

- لقد تركتني، تماما كما قال، لقد تخلت عني. واتقد الغضب الذي أحسست به الليلة الماضية لوهلة، وخطر ببالي أن ألقي بالصدفة على الحوض ولكني أخذت نفسا عوضا عن ذلك. فقد اكتشفت أن نوبات رمي الأشياء لم تكن تشفي الغليل.

ومالت روزالين فصر غطاء كرسي الحمام وتحرك من مكانه فوق الكرسي. وحكت مقدمة رأسها. وأشحت بنظري، إلى الأنبوب تحت المغسلة ثم إلى بقعة صدئة على فراش المغسلة.

وقالت روزالين:

- إذا فوالدتك تركتك في آخر المطاف. يا إلهي، كم كنت أخشى ذلك.

ورفعت رأسي، تذكرت الليلة الأولى من هربنا، عند الجدول، حين أخبرت روزالين بما قاله تي-ري. وكنت أرغب في أن تضحك هي من

فكرة أن أمي تخلت عني، ولكنها ترددت.

وقلت:

- لقد كنت تعرفين بذلك، أليس كذلك؟

- لم أكن متأكدة. أنا فقط سمعت بعض الأشياء.

- عن أي أشياء تتحدثين؟

وأطلقت تنهيدة، أو شيئا أكثر من مجرد تنهيدة، وقالت:

- بعد أن توفيت والدتك، سمعت تي-ري يتحدث في الهاتف إلى جارتكم، السيدة واتسون. وكان يقول لها إنها لم تعد تحتاج إلى الاعتناء بك، لأنه أحضر لاقطة من البستان. وكان يتحدث عني، ولذلك فقد تنصت لما كان يقوله.

ومر غراب بجانب النافذة وملأ الحمام بنعيقه، وتوقفت روزالين وأخذت تنتظر أن يتوقف عن ذلك.

وكنت أعرف السيدة واتسون من الكنيسة، ومن كل المرات التي كانت تمر فيها وتشتري مني الدراق. وقد كانت في غاية اللطف، ولكنها كانت تنظر لي دائما وكأن شيئا حزينا فوق الوصف كانت مكتوبا على جبيني، وكأنها كانت تريد الاقتراب مني ومسحه.

وكنت أمسك بجانب الحوض بينما كانت روزالين تتابع، ولم أكن متأكدة من كوني أريدها أن تفعل ذلك.

- لقد سمعت والدك يقول للسيدة واتسون «جيني، لقد بذلت

أكثر مما بوسعك في رعاية ليلي خلال الشهور الماضية، ولا أعرف ما كنت لأفعله من دونك.»

ونظرت إليّ روزالين وهزت رأسها وقالت:

- لطالما تساءلت عما كان يقصده بذلك. وحين أخبرتني بما قاله لك تي-ري عن ترك والدتك لك، أعتقد أني عرفت حينها.

- لا أستطيع تصديق أنك لم تخبريني.

قلت، وقد شبكت يدي فوق صدري. وسألتني روزالين:

- حسنا، وكيف اكتشفت ذلك؟

- لقد أخبرتني آب.

قلت، وفكرت في كل البكاء الذي بكيته في غرفتها. وفي تشبثي بفستانها، والحروف المنقوشة على منشفتها وملمسها الخشن فوق وجنتي.

- آب؟

رددت روزالين. وما كنت لترى روزالين وهي مشدوهة إلا نادرا، ولكنها كانت كذلك في تلك اللحظة.

وشرحت لها قائلة:

- لقد كانت تعرف أمي عندما كانت فتاة صغيرة في فرجينيا. وقد ساعدت في تربيتها.

وانتظرت بعض الثواني لأعطيها فرصة لاستيعاب الأمر.

- لقد أتت أمي إلى هنا حين غادرت. وحين كانت... السيدة واتسون تعتني بي. لقد أتت إلى هذا المنزل بالذات.

وأصبحت عينا روزالين ضيقة أكثر، إن كان هذا شيئا ممكنا. وقالت:

- والدتك...

ثم توقَّفَت، وكنت أستطيع أن أرى أن دماغها كان يصارع لاستيعاب كل شيء. رحيل أمي. واعتناء السيدة واتسون بي. وعودة أمي ثم مقتلها.

- لقد بقيت أمي ثلاثة أشهر هنا قبل أن تعود إلى سيلفان.

قلت. وأضفت:

- وأعتقد أنها في يوم من الأيام تذكرت أخيرا: آه، نعم، هذا صحيح. لقد تركت فتاة صغيرة في المنزل. حسنا، ربما سأعود وأحضرها الآن.

وسمعت نبرة الاستياء في صوتي، وخطر لي أنه في وسعي أن أحتفظ بتلك النبرة في صوتي إلى الأبد. ومن تلك اللحظة فصاعدا، كان بوسعي أن أنزوي إلى ذلك المكان البارد الذي تحكمه القساوة بكل سهولة كلما فكرت في أمي. وضغطت على الصدفة وشعرت بها تحفر الطبقة الجلدي لراحة يدي.

ونهضت روزالين. ونظرت إليها وإلى ضخامتها وهي في الحمام. ووقفت أيضا وحُشرنا للحظة بين الحوض والحمام ونحن نحملق في بعضنا البعض.

وقلت:

- ليتك أخبرتني بما كنت تعرفينه عن أمي. لماذا لم تخبريني؟

- آه يا ليلي.

قالت، وكانت كلماتها محملة بالرقة، وكأنها كانت تُؤرجَح في أرجوحة صغيرة من الرقة في حلقها.

- ولماذا قد أرغب في إيذائك بشيء كذلك؟

****

مشت روزالين إلى جانبي في بيت العسل وهي تحمل ممسحة على كتفها وملعقة طهي بين يديها، وكنت أحمل سطلا به خرق ومنظف. واستعملنا الملعقة لكشط العسل عن أماكن لم تكن لتتخيلها. وقد وصل البعض منه حتى آلة آب الحاسبة.

ومسحنا الأرضية والجدران، ثم بدأنا في العمل على تنظيف سيدتنا، فنظفنا المكان وأعدناه إلى ما كان عليه في السابق، ولم ننبس بأي كلمة طوال ذلك الوقت.

وكنت أعمل وفي داخلي شعور ثقيل وروحي مستنزفة. وكان تنفسي يخرج من منخري بقوة. وكان قلب روزالين حانقا مني فكان

وجهها يتقاطر من العرق. وكانت سيدتنا تتحدث عبر عينيها وتقول أشياء لم أستطع فهمها. ولم يكن هناك أي شيء آخر.

****

وصلت بنات مريم وأوتيس عند الظهيرة، وكن محملات بكل أنواع أطباق حواضر البيت، وكأننا لم نأكل حتى التخمة في الليلة السابقة. ووضعنها داخل الفرن لتسخينها وانتشرن في المطبخ وهن تتذوقن فطائر الذرة التي أعدتها روزالين، وتثنين عليها لأنها أكثر الفطائر التي استمتعن بأكلها على الإطلاق، وهو ما جعل روزالين تنتفخ من الزهو.

وقالت آب:

- فلتتوقفن عن أكل فطائر روزالين، ستنهينها. إنها تعدها للغداء.

- اتركيهم يأكلنها.

قالت روزالين، وهو ما صعقني، لأنها كانت عادة ما تضرب يدي كلما مددتها لتناول حتى فتات فطائرها قبل العشاء. وحين ظهر نيل وزاك، كانت الفطائر قد قاربت على الانتهاء وكانت روزالين على وشك أن تطفو في الفضاء.

وبقيت متسمرة ومتصلبة كالجص عند ركن المطبخ. وكنت أرغب في الزحف على ركبتي عائدة إلى بيت العسل والجلوس متكورة على سريري. لقد كنت أرغب في أن يصمت الجميع ويعودوا إلى بيوتهم.

وهم زاك بالاقتراب مني، ولكني استدرت وأخذت في التحديق في مصرف المغسلة. وانتبهت من نظرتي الجانبية إلى أن آب كانت تراقبني.

وكان فمها مبتهجا ولامعا وكأنها دهنته بالفازلين، وعرفت أنها كانت تأكل الفطائر أيضا. وقدمت إليّ ولمست وجنتي بيدها. ولم أكن أعتقد أنها كانت تعرف أنني حولت بيت العسل إلى منطقة كارثية، ولكنها كانت تجيد معرفة الأشياء. وربما كانت تريد أن تخبرني أنه لا بأس في ذلك.

وقلت:

- أريد منك أن تخبري زاك عن هربي وعن أمي وعن كل شيء.

- ألا تريدين إخباره بنفسك؟

واغرورقت عيناي، وقلت:

- أنا لا أستطيع فعل ذلك. أخبريه أنت، أرجوك.

ونظرت باتجاهه وقالت:

- حسنا، سأخبره حالما حظيت بفرصة لفعل ذلك.

وقادت المجموعة إلى الخارج لبدء آخر طقوس يوم مريم. وسرنا في موكب إلى الحديقة الخلفية، وكانت على شفاه جميع البنات بقع دهن صغيرة. وكانت حزيران هناك في انتظارنا، وكانت تجلس على كرسي مطبخ دون مسند وتعزف التشيللو. وتجمعنا حولها فيما كانت أضواء الظهيرة تتقدم. وكانت الموسيقي التي كانت تعزفها من النوع الذي يقطعك، ويتسلل إلى غرف سرية في قلبك ويحرر الحزن. وأنا أصغي إليها، كنت أستطيع رؤية أمي وهي تجلس في الحافلة وتغادر سيلفان، فيما كنت أنا ذات الأربع سنوات أنام في السرير وأنا أجهل تماما ما كنت سأستيقظ لأجده.

وكانت موسيقى حزيران تتحول إلى هواء، والهواء إلى ألم. وكنت أترنح على رجلي وأحاول ألا أتنفسه.

وشعرت بالراحة حين خرج نيل وزاك من بيت العسل وهما يحملان سيدتنا، فقد غيب ذلك الحافلة من ذهني. وكان يحملانها تحت ذراعيهما وكأنها بساط ملفوف، والسلاسل تتأرجح جيئة وذهابا على جسدها. وقد تعتقد أنهما كانا ليستعملا العربة من جديد، وهو ما كان أكثر تبجيلا. وما زاد الأمور سوءا، هو أنهما أنزلاها وسط كثيب نمل فتسبب ذلك في موجة من الذعر. وكان علينا أن نقفز ونبعد النمل عن أقدامنا.

ومال شعر الفتاة الحلوة المستعارعلى حاجبيها من شدة القفز، وقد كانت تصر على تسميته «الشعر القبعة»، وكان علينا أن نعطيها بعض الوقت لتذهب إلى الداخل لتعديله. وقال لها أوتيس:

- لقد قلت لك ألا تلبسي ذلك الشيء. إن الجو حار ليلبس المرء شعرا مستعارا. إنه ينزلق من رأسك بسبب التعرق.

وقالت دون أن تستدير:

- أنا ألبس شعري المستعار عندما أرغب في ذلك.

- وهل نجهل ذلك؟

رد عليها، وهو ينظر إلينا وكأننا كنا جميعا نقف في صفه بينما كنا متعاطفين مع الفتاة الحلوة تماما. ولم يكن ذلك لأن شعرها المستعار كان يعجبنا، فقد كان أقبح شيء قد تراه على الإطلاق، ولكننا لم نكن نرغب في أن تتلقى الأوامر من أوتيس.

وحين توقف كل ذلك أخيرا، قالت آب:

- حسنا، ها نحن، وها هي سيدتنا.

ونظرت إليها وأنا أشعر بالفخر من مدى نظافتها.

وقرأت آب كلمات مريم من الإنجيل:

«فهوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبني...»

وقاطعتها فيوليت قائلة:

- طوبى لك يا مريم.... طوبى لك.

وحدقت في السماء، ونظرنا جميعا إلى الأعلى متسائلين ما إن كانت قد لمحت شيئا من مريم من خلال الغيوم، وقالت مرة أخرى:

- طوبى لك يا مريم.

وقالت آب:

- إننا نحتفل اليوم بصعود مريم إلى السماء. ونحن نحتفل باستيقاظها من النوم وصعودها إلى الجنة. ونحن هنا لنتذكر قصة سيدتنا ذات الأصفاد، ولتذكير أنفسنا بأن السلاسل لم تستطع جعلها تذعن أبدا. لقد كانت سيدتنا تحرر نفسها في كل مرة.

وأمسكت آب بالسلسلة التي كانت حول مريم السوداء وفتحت الحلقة قبل أن تمررها للفتاة الحلوة التي فتحتها أكثر قليلا وشارك الجميع في فتح حلقة من السلسلة. وما علق بذهني حقا هو الصلصلة

التي كانت تحدثها وهي تتحول إلى كومة تحت قدمي مريم، والأصوات ترتفع من حيث توقفت فيوليت: **طوبي لك، طوبي لك، طوبي لك، طوبي لك.**

- إن مريم تصعد.

قالت آب وكان صوتها همسا مركزا، وأضافت:

- إنها تصعد إلى فوق.

ورفعت بنات مريم أذرعهن، ورفع أوتيس نفسه ذراعيه عاليا في الهواء.

وقالت آب:

- لن تُذل أمنا مريم ولن تقيد. ولن تذل أو تقيد بناتها، سنسمو، نحن بناتها، سوف... نسمو.

ومررت حزيران قوسها على حبال التشيللو، وكنت أرغب في رفع ذراعي مع الباقين، لأسمع صوتا آتيا إلي من السماء ويقول لي سوف تسمين، لأشعر بأن ذلك كان ممكنا ولكنهما كانتا مرتخيتين إلى جانبي. وبداخلي، كنت أشعر بالضآلة والدنو والهجران. وكلما أغلقت عيني، كانت الحافلة تبزغ أمامي.

وبقيت أذرعة بنات مريم مرتفعة في الهواء وتعطي الانطباع بأنهن كن يصعدن رفقة مريم إلى السماء. ثم أخذت آب مرطبانا من عسل مادونا السوداء من وراء كرسي حزيران، وأعاد ما فعلته بعدها الجميع إلى الأرض، فقد فتحت الغطاء وأفرغته على رأس سيدتنا.

ونزَّ العسل على وجه مريم وكتفيها وانزلق بين ثنايا فستانها. وعلِقت قطعة من شمع العسل عند انعطاف مرفق سيدتنا.

ونظرت لروزالين وكأنني أقول لها، حسنا، رائع، لقد قضينا كل ذلك الوقت في تنظيفها من العسل، وها هم يلطخونها به من جديد.

وقررت ألا أتفاجأ بعد الآن من أي شيء قد تقوم به تلك النسوة، ولكن ذلك لم يتعدى الدقيقة، لأنهن احتشدن بعد ذلك حول سيدتنا كدائرة من النحلات المرافقات ودهن العسل على الخشب، وأدخلنه فوق رأسها وفي وجنتيها وعنقها وكتفيها وذراعيها وعلى صدرها وبطنها.

وقالت مابيلي:

- هيا يا ليلي، تعالي وساعدينا.

وكانت روزالين قد انغمست بينهن وكانت تدهن العسل على فخذي سيدتنا. وبقيتُ في الخلف ولكن كريسي أخذت يدي وسحبتني إلى مريم، وغمستها داخل فوضى العسل الذي أدفأته الشمس، تماما فوق قلب سيدتنا الأحمر.

وتذكرت زيارتي لسيدتنا في وسط الليل، وكيف وضعت يدي على نفس الموضع. وقلت لها أنت أمي. وأنت أم الآلاف.

وقلت:

- لا أفهم لما تفعلون هذا.

فأجابت كريسي:

- إننا نغسلها دائما بالعسل. كل عام.

- ولماذا؟

وكانت آب تضع العسل على وجه سيدتنا. وقالت:

- إن الكنائس تغسل تماثيلها المميزة بالماء المقدس كطريقة لتشريفها. ولا سيما تماثيل سيدتنا. وهم يغسلونها أحيانا بالنبيذ. وقد اخترنا نحن العسل.

وانتقلت آب إلى عنق سيدتنا وقالت:

- انظري يا ليلي، إن العسل مادة محافظة. إنها تسد أقراص الخلايا لحمايتها ولتنقيتها ليستطيع النحل الصمود في وجه الشتاء. وعندما نغسل سيدتنا به، أعتقد أنه يمكنك القول إنه يحميها لسنة أخرى، إننا نفعل ذلك بقلوبنا على الأقل.

- لم أكن أعرف أن العسل مادة محافظة.

قلت، وقد بدأت أشعر به تحت أصابعي وبها وهي تنزلق وكأنها دهنت بالزيت.

- حسنا، إن الناس لا يفكرون في العسل بتلك الطريقة، ولكنه شديد التفاعل لدرجة أن الناس كانوا يدهنون به أجساد الموتى لتحنيطها. وكانت الأمهات تدفن رضعهن الأموات فيه حتى يصونهم.

وكان ذلك استعمالا لم أفكر فيه من قبل. وكنت أتخيل منازل تجهيز

الجنائز وهي تبيع مرطبانات العسل للأموات بدل الكفن. وحاولت تخيل ذلك في نافذة دار تجهيز الجنائز.

وبدأت في دهن العسل على الخشب وأنا شبه محرجة من حميمية ما كنا نفعله.

وحدث أن اقتربت مابيلي برأسها أكثر من اللازم فلطخ العسل شعرها، ولكن لينيل هي من ذهب إلى أبعد الحدود حيث كان العسل يتقاطر من مرفقيها. ولم تفتأ تحاول لعقه، ولكن لسانها لم يستطع الوصول إلى هناك طبعا.

وبدأ النمل موكبا أحادي الصف إلى جانب سيدتنا، وقد اجتذبه العسل، ولم يكن ليفوز على مجموعة من النحل المكتشف الذي ظهر وحط على رأس سيدتنا. فما أن يُخرِج أحد ما العسل حتى تتوافد مملكة الحشرات بسرعة البرق.

وقالت كويني:

- أعتقد أن دببة العسل ستنضم إلينا هي الأخرى.

وقد ضحكتُ من ذلك، ولمحت بقعة في قاعدة التمثال لم يبلغها العسل، وعملت على دهنها به.

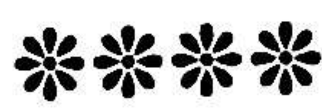
وكانت سيدتنا محاطة بالأيادي المتدرجة من البني إلى الأسود والتي كانت تتحرك في جميع الاتجاهات، وهنا بدأ أكثر الأشياء غرابة في الحدوث. فقد أصبحت أيدينا جميعا تقوم بنفس الحركة وتنطلق نحو أعلى التمثال ثم تنزلق إلى أسفله في حركات طويلة وبطيئة، ثم تتحول

إلى الجانب، وكأنها سرب من الطيور غير اتجاهه في السماء في نفس اللحظة، فتتساءل عمن أعطى الأمر بذلك.

واستمر ذلك لفترة ما كنت لأستطيع تقديرها، ولم نفسد اللحظة بالكلام. لقد كنا نحافظ على سيدتنا وكنت أشعر بالرضى تجاه ما كنت أفعله لأول مرة بعد أن عرفت ما عرفته عن أمي.

وتراجعنا جميعا في الأخير. وكانت سيدتنا تقف هناك والسلاسل متناثرة على العشب، وقد كساها العسل باللون الذهبي.

وقامت البنات الواحدة تلو الأخرى بتقطير أيديهن في سطل من الماء وتنظيفها من العسل. وانتظرت إلى الأخير لأنني كنت أريد أن تغطي طبقة العسل جلدي لأطول وقت ممكن. وكان الأمر أشبه بارتداء قفازات سحرية. وكأنني كنت أستطيع حماية كل ما كنت ألمسه.



تركنا سيدتنا في الحديقة بينما كنا نأكل، ثم عدنا وغسلناها بالماء بنفس الطريقة البطيئة التي غسلناها بها بالعسل. وبعد أن أعادها نيل وزاك إلى مكانها في غرفة الاستقبال، غادر الجميع. وبدأت آب وحزيران وروزالين في غسل الأواني، وانسحبت أنا إلى بيت العسل. واستلقيت على فراشي وحاولت ألا أفكر في أي شيء.

هل لاحظت أنك كلما حاولت ألا تفكر، أصبحت أفكارك أكثر انسيابا؟ وأنا أتجنب التفكير، قضيت عشرين دقيقة في هذا السؤال المذهل: لو أنه كان بوسعك أن تحظى بمعجزة من الإنجيل، ماذا كنت

لتختار؟ واستبعدت معجزة الخبز والسمك لأنني لم أكن أريد رؤية الأكل من جديد. وفكرت في أن المشي على الماء أمر مشوق، ولكن فيما كنت لأستعمل ذلك؟ وأقصد، يمكنك المشي على الماء، ولكن، ما الغاية من ذلك؟ وانتقيت في الأخير الاستيقاظ من الموت لأن جزءا كبيرا مني كان لا يزال ميتا.

وقد حدث ذلك حتى قبل أن أستطيع التفكير. وكنت قد عدت للتو لمحاولة عدم التفكير عندما طرقت آب الباب.

- ليلي، هل يمكنني الدخول؟

- طبعا.

قلت، ولم أتكلف عناء النهوض. **لنتوقف عن عدم التفكير**. ولك أن تحاول تجنب التفكير لخمس ثوان في حضور آب.

ودخلت بهدوء وكانت في يدها علبة قبعات عليها خطوط ذهبية وبيضاء. ووقفت للحظة ونظرت إليّ وقد بدت طويلة أكثر من المألوف. وكانت المروحة تدور فوق الرف المعلق على الحائط فحركت ياقتها وجعلتها ترفرف حول عنقها.

وقلت لنفسي **لقد أحضرت لي قبعة**. ربما ذهبت إلى متجر ذي آيمن دولار واشترت لي قبعة قش لتفرحني. ولكن ذلك لم يكن منطقيا بتاتا. فلماذا قد تفرحني قبعة قش؟ وعندها فكرت للحظة أن تلك قد تكون القبعة التي وعدتني بها لينيل، ولم يبد ذلك منطقيا أيضا. فلم تكن لينيل لتصنع القبعة بتلك السرعة.

وجلست آب على سرير روزالين القديم ووضعت الصندوق فوق حجرها. وقالت:

لقد أحضرت لك بعض حاجيات والدتك.

وتفحصت استدارة الصندوق المتقنة. وعندما أخذت نفسا عميقا، تصاعد بصعوبة غريبة قبل أن يخرج. **حاجيات أمي**.

ولم أتحرك. واستنشقت رائحة الهواء القادم من النافذة وقد حركته المروحة. وشعرت أنه أصبح ثقيلا بعد هطول مطر بعد الظهر ولكن السماء كانت لا تزال مكفهرة.

وقالت:

- ألا ترغبين في رؤيتها؟

- فقط أخبريني ماذا بداخل الصندوق.

ووضعت يدها عليه وطبطبت فوقه.

- لا أعرف إن كنت أتذكر ذلك. لقد نسيت أمر الصندوق ولم أتذكره إلا هذا الصباح. وفكرت في أن نفتحه معا. ولكنك لست مضطرة لفتحه إن كنت لا ترغبين في ذلك. إنها فقط بعض الأشياء التي تركتها والدتك هنا قبل عودتها إلى سيلفان لإحضارك. وقد أعطيت ملابسها لمنظمة جيش الخلاص، ولكنني احتفظت بباقي الأشياء على قلتها. وأعتقد أنها بقيت في هذا الصندوق لعشر سنوات.

وجلست، وكنت أستطيع سماع دوي قلبي. وتساءلت إن كانت

آب تسمعه في الغرفة، بووم، بووم، بووم، بووم. ورغم الهلع الذي يبعثه سماع قلبك يدق بتلك الطريقة، إلا أن فيع شيء مألوف ومطمئن بطريقة غريبة.

ووضعت آب الصندوق على السرير وأزالت عنه الغطاء. ومددت جسدي قليلا لإلقاء نظرة بداخل الصندوق، ولكنني لم أتمكن من رؤية أي شيء، ما عدا منديلا ورقيا أبيض اكتست حوافه بعض الصفرة.

وحملت آب حزمة صغيرة وأشاحت بالمنديل.

- هذه مرآة والدتك المحمولة.

قالت وقد حملتها، وكانت بيضاوية الشكل ومحاطة بإطار على شكل سلحفاة، ولم يكن حجمها يفوق حجم راحة يدي.

وتسللت خارج سريري وانزلقت إلى الأرضية وأسندت ظهري على السرير. واقتربت من آب أكثر قليلا من ذي قبل. وتصرفَتْ وكأنها كانت تنتظر أن أمد يدي لأخذ المرآة. وفي الواقع، كان عليّ أن أجلس على يدي لئلا أفعل ذلك. وفي الأخير، حملتها آب ونظرَت إليها بنفسها. وكانت دوائر الضوء تقفز على الحائط خلفها. وقالت:

- إذا نظرت أنت في هذه المرآة فسترين وجه والدتك ينظر إليك.

وقلت لنفسي إنني لن أنظر في تلك المرآة أبدا.

ووضعَت آب المرآة على السرير وأدخلت يدها في الصندوق وأخرجت مشطا ذا مقبض خشبي وأعطتني إياه، فأخذته دون أن أفكر حتى. وكان ملمس المقبض غريبا بين يدي، فقد كان باردا وناعما عند

الأطراف وكأنه اهترأ من كثرة الاستعمال. وتساءلت إن كانت تمشط شعرها مئات المرات يوميا.

وما أن هممت بإعادة المشط إلى آب حتى لمحت شعرة سوداء طويلة ومتموجة بين أسنانه. فاقتربت به من وجهي وحدقت فيها؛ لقد كانت تلك شعرة أمي، وقطعة حقيقية منها.

وقالت آب:

- أعتقد أنها كذلك.

ولم أستطيع إشاحة نظري عنها. لقد كبرت في رأسها وكانت في تلك اللحظة بارزة كخاطرة خلفتها على المشط. وعرفت أنك مهما حاولت بجدية ومهما كان عدد المرطبانات التي تكسرها ومهما فكرت في أنه بوسعك نسيان أمك، فإنها لن تختفي أبدا من الأماكن الرقيقة بداخلك. وأسندت ظهري على السرير وشعرت بعيني تغرورقان بالدمع. وكان مشط ديبورا فونتانيل وشعرتها يسبحان في حقل رؤيتي.

وأعدت المشط إلى آب فوضعَت قطعة من المجوهرات بين يدي. مشبك ذهبي على شكل حوت عينه سوداء ونافورة حجر الراين تخرج من فتحة تنفسه.

وقالت آب:

- لقد كانت تلبس ذلك المشبك عندما أتت إلى هنا.

وأمسكته بين أصابعي ثم حبوت إلى سرير روزالين ووضعته إلى جانب مرآة الجيب والمشط، وحركتهم وكأنني كنت أرغب في تجميعهم

بطريقة جميلة.

وقد اعتدت على فعل الشيء نفسه بهدايا الميلاد على السرير. وكان تي-ري عادة ما يطلب من السيدة التي تعمل في سوق سيلفان انتقاء أربعة أشياء لي: سترة صوفية وجوارب وملابس النوم وكيسان من البرتقال. عيد ميلاد مجيد. يمكنك المراهنة بحياتك على قائمة الهدايا. وكنت أرتبها لعرضها في خط عمودي، ثم في مربع وفي خط مائل، وأي نوع من الترتيب قد يساعدني على الشعور أنها كانت دليلا على الحب.

وعندما نظرت إلى آب، كانت تخرج كتابا أسود من الصندوق. وقالت:

- لقد أعطيت هذا الكتاب لوالدتك عندما كانت هنا. الشعر الإنجليزي.

وأخذت الكتاب وتصفحته، وانتبهت إلى الملاحظات المكتوبة بقلم الرصاص على الهوامش، ولم تكن كلمات، وإنما شخبطات، وزوابع لولبية، وأسراب من الحروف، وخربشات تشبه العيون، وأوعية لها أغطية، وأوعية بأوجه وأوعية تسلق فيها أشياء مجعدة، وبرك صغيرة تصبح أمواج عاتية علي حين غرة. وكنت أتمعن في بؤس أمي، وهو ما جعلني أرغب في الخروج ودفن الكتاب في التراب.

الصفحة الثانية والأربعون. وصادفت فيها ثمانية أبيات لويليام بليك كانت قد سطرتها، وقد سطرت مرتين تحت بعض الكلمات:

آه أيتها الوردة، أنت عليلة!

تلك الدودة اللامرئية

التي تحلق في جنح الليل

في العاصفة المدوية

وجدت فراشك

ذي الفرح القرمزي

وحبها السري القاتم

دمر حياتك.

وأغلقت الكتاب، ورغبت في أن تتركني الكلمات وشأني ولكنها علقت بي. لقد كانت أمي وردة ويليام بليك. ولم أكن أرغب في شيء أكثر من أن أعتذر لها من كل قلبي عن كوني إحدى الدودات التي حلقت في ليلها.

ووضعت الكتاب على السرير إلى جانب باقي الأشياء، ثم استدرت نحو آب، فيما كانت هي تمد يدها للصندوق من جديد فأحدث منديل الورق خشخشة. وقالت:

- هناك شيء أخير.

وأخرجَت إطار صورة بيضاوي صغير ذو لون فضي باهت.

وحين مدته لي، أمسكت بيدي للحظة. وكانت في الإطار صورة جانبية لامرأة وكان رأسها منحنيا باتجاه طفلة صغيرة تجلس على كرسي عال وعلى جانب فمها بقعة من الأكل. وكان شعر المرأة متموجا ومتناثرا في كل الاتجاهات، وجميلا، وكأنها مررت المشط عليه للتو مئة

مرة. وكانت تحمل ملعقة الطفلة بيدها اليمنى والضوء يشرق في عينيها. وكانت الفتاة الصغيرة تلبس صدرية عليها دبدوب.

ولم أكن أكترث لشيء في هذا العالم سوى الطريقة التي كان وجهها يقترب من وجهي وأنفانا وهما يكادان يتلامسان، وابتسامتها العريضة والجميلة، وكأنها لآلئ. لقد أطعمتني بملعقة صغيرة، وفركت أنفها بأنفي وغمرت وجهي بضوئها.

وكان الهواء المنبعث من النافذة يحمل رائحة ياسمين كارولاينا، وهي الرائحة التي تميز كارولاينا الجنوبية. ومشيت إلى النافذة ووضعت مرفقي على حافتها وتنفست بأعمق ما استطعت. وسمعت آب وقد تحركت على السرير خلفي فصرت قدماه ثم صمتت.

ونظرت إلى الصورة ثم أغلقت عينيّ. وفكرت في أن أيار ستكون في الجنة وقد أخبرت أمي بحاجتي إلى إشارة ما، تلك الإشارة التي كانت ستخبرني بحبها لي.

****

إن المستعمرة التي تخلو من الملكة جماعة مثيرة للشفقة والكآبة؛ وقد ينبعث من داخلها عويل حداد أو نواح... وسيكون مآل هذه المستعمرة هو الموت ما لم يحدث تدخل ما، ولكن إن أتيت بملكة جديدة سيحدث تحول جذري.

The Queen Must Die: And Other Affairs of Bees and Men

الفصل الرابع عشر

بعد أن أخرجت آب كل محتويات الصندوق، انعزلت بنفسي وبقيت كذلك لبعض الوقت. وكان كل من آب وزاك يقومان بالأعمال المتعلقة بالنحل والعسل، بينما كنت أقضي معظم وقتي بالقرب من النهر. ولم أكن أرغب بشيء سوى البقاء وحدي.

وتحول شهر آب إلى صينية تغلي فيها الأيام فحسب. وكنت أقطف أوراق نبات القلقاس وأحرك الهواء أمام وجهي، وأجلس بقدمين حافيتين وقد غمستهما داخل الماء المنساب، وأستشعر النسمات وهي تعبر فوق سطح النهر وتمر بي، وكان كل شيء فيّ لا يزال مصعوقا ومندهشا من الحرارة، كل شيء ما عدا قلبي، فقد كان يربض كتمثال ثلجي وسط صدري ولم يكن أي شيء ليلمسه.

إن الناس عادة ما يفضلون الموت على أن يسامحوا. إن الأمر بذلك القدر من الصعوبة. وإن قال الرب بوضوح: «أنا أخيرك بين المسامحة أو الموت»، فإن الناس سيسارعون لشراء توابيتهم.

لففت أشياء أمي بالورق المهترئ، ووضعتها داخل صندوق القبعات وغطيته. وعندما استلقيت على بطني فوق الأرضية لأحشر الصندوق تحت سريري، عثرت على كومة صغيرة من عظام فأر.

فجمعتها ونظفتها في المغسلة. وكنت أحملها في جيبي كل يوم ولم أستطع معرفة ما كان يدفعني لفعل ذلك.

وحين كنت أستيقظ عند الصباح، كان الصندوق أول ما أفكر فيه. لقد كان الأمر وكأن أمي بنفسها كانت تختبئ تحت السرير. واضطررت ذات ليلة إلى النهوض ووضعه في الجانب الآخر من الغرفة. وبعد ذلك، كان عليّ أن أجرد مخدتي من غلافها وأضع الصندوق بداخله وأغلقه بإحكام مستخدمة واحدا من أربطة شعري. وقد فعلت كل ذلك لأستطيع النوم.

وحين كنت أذهب إلى الحمام في المنزل الوردي كنت أفكر أن أمي **كانت تجلس على كرسي الحمام نفسه**، ثم كنت أكره نفسي لأنني فكرت في ذلك. ومن كان ليهتم بالمكان الذي كانت تتبول فيه؟ إنها لم تهتم بحاجتي **أنا** إلى الحمام عندما تخلت عني للسيدة واتسون وتي-ري.

لقد كنت أحفز نفسي. **لا تفكري فيها. لقد انتهى الأمر وأصبح شيئا من الماضي.** وأقسم أنني كنت أتخيلها في اللحظة الموالية وهي في المنزل الوردي، ثم وهي في حائط المبكى تحشو أوزارها بين الفراغات الموجودة بين الأحجار. وكنت لأراهن بعشرين دولارا أن اسم تي-ري محشور بين تشققات الحائط وتصدعاته. وربما كان اسم ليلي هناك أيضا. وتمنيت لو أنها كانت ذكية بما يكفي، أو محبة بما يكفي لتدرك أن لكل واحد هموم تسحقه، ولكن أحدا لا يتخلى عن أبنائه.

ولا بد وأنني أحببت آلامي وجروحي بطريقة ما، فقد كانت تكسبني شيئا من التعاطف الحق وتشعرني بأنني كنت استثنائية. فقد كنت الفتاة التي تخلت عنها أمها، وكنت الفتاة التي كانت تركع فوق

الدقاق، ويا لي من حالة خاصة.

وقد كنا في موسم تكاثر البعوض، ولذلك فقد كان أكثر ما كنت أفعله عند النهر هو ضربه بعنف. وأنا أجلس تحت الظلال البنفسجية، كنت أخرج عظام الفأر وأحركها بين أصابعي. وكنت أحدق في الأشياء حتى كنت أكاد أتجانس معها. وكنت أنسى موعد الغداء أحيانا، فكانت روزالين تحضر لي سندويتش الطماطم. وما أن تغادر، حتى ألقي به في النهر.

وفي بعض الأحيان، لم أكن أستطيع منع نفسي من الاستلقاء على الأرض والتظاهر أنني كنت داخل قبر على شكل قرص نحل. وكان ينتابني نفس الشعور الذي أحسست به عند وفاة أيار، مع فارق أنه قد تضاعف مائة مرة هذه المرة.

وسبق أن قالت آب: «أعتقد أنك تحتاجين إلى حداد لبعض الوقت. فلتحظي بذلك إذن.» ولكن، بعد أن بدأت الحداد، لم يكن يبدو أنه سينتهي.

وعرفت أن آب قد شرحت كل شيء لزاك ولحزيران أيضا لأنهما كانا يتحدثان إليّ بحذر وكأنني كنت مختلة عقليا. وربما كنت كذلك. وربما كنت أنا الأجدر بأن أذهب إلى مستشفى الأمراض العقلية، وليس أمي. ولكن على الأقل، لم يحك أي أحد على الجرح أو يطرح أي أسئلة أو يقول، «هل أنت جادة؟ فلتخرجي من هذه الحالة.»

وتساءلت كم من الوقت كانت آب ستنتظر قبل أن تبين ردة فعلها تجاه الأشياء التي أخبرتها بها؛ وأقصد هروبي ومساعدتي لروزالين على الهرب، وكون روزالين هاربة من العدالة. لقد كانت آب تمنحني الوقت حتى تلك اللحظة، بعض الوقت لأقضيه عند النهر وفعل ما كان عليّ

فعله، تماما كما أعطت لنفسها الوقت بعد أن توفيت أيار. ولكن ذلك لم يكن ليدوم إلى الأبد.

****

إن طبيعة العالم الغريبة تقضي بأن تواصل الأمور سيرها مهما كان حجم الحسرة الحاصلة. لقد حددت حزيران يوم زفافها؛ السبت، العاشر من تشرين الأول. وكان أخ نيل، وهو كاهن أفريقي ميثودي أسقفي، من ألباني في ولاية جورجيا، سيزوجهما في الحديقة الخلفية تحت شجيرات الآس. وقد شرحت حزيران جميع خططهما ذات ليلة على وجبة العشاء. وكانت ستمشي على مذبح من بتلات الورود وهي ترتدي بذلة بيضاء من الحرير الصناعي بها جدائل زخرفية كانت مايبلي ستخيطها لها. ولم أستطع تخيل تلك الزخارف. فرسمت حزيران صورة لواحدة على لوحة ولكنني لم أستطع مع ذلك تخيل شكلها. وقد كلفت لينيل بصنع قبعة زفافها وقد وجدت في ذلك شجاعة كبيرة منها، فهي لم تكن لتحزر ما قد تأتي به لينيل في نهاية المطاف.

وعرضت روزالين أن تعد طبقات كعكة الزواج وكانت فيوليت وكويني ستستلهمان زينتها من قوس قزح. ومرة أخرى، كل ما يمكنني قوله هو أن حزيران تحلت بالشجاعة حيال ذلك.

وذات بعد ظهر، ذهبت إلى المطبخ وقد تمالكني عطش شديد وكنت أرغب في ملء إبريق بالماء وأخذه معي إلى النهر، ولكنني وجدت حزيران وآب ملتصقتين ببعضهما وسط الأرضية.

وربضتُ خارج الباب وتابعتهما رغم أن تلك كانت لحظة خاصة

بهما. وكانت حزيران تمسك بظهر آب ويداها ترتعشان وقالت:

- لقد كانت أيار لتحب هذا الزفاف... لقد قالت لي مئات المرات إنني كنت أتصرف مع نيل بعناد. يا إلهي يا آب. لماذا لم أقرر فعل هذا من قبل، عندما كانت لا تزال معنا؟

واستدارت آب قليلا ولمحتني عند المدخل. وأمسكت بحزيران التي بدأت في البكاء ولكن عينيها كانتا تنظران إلى عيني، وقالت:

- إن الندم لا يجدي شيئا. تعرفين ذلك.

****

وفي اليوم التالي، شعرت بالرغبة في الأكل. وعدت إلى المنزل لتناول وجبة الغداء لأجد روزالين ترتدي فستانا جديدا وقد كانت شعرها قد ظُفِر عن جديد. وكانت تخبئ مناديل في صدرها.

وقلت:

- من أين أتيت بذلك الفستان؟

وقامت بالالتفاف لتريني الفستان، وحين ابتسمت، التفت من جديد. وكان ما كنت لتطلق عليه الفستان الخيمة، إذ كان الكثير من القماش يتدلى من كتفيها ولم يكن فيه أي حزام أو بنسات. وكانت له خلفية حمراء عليها ورود بيضاء ضخمة. وكان من الواضح كم كانت تحبها.

وقالت:

- لقد أخذتني آب إلى البلدة البارحة واشترته لي.

واستغربت فجأة من كم الأشياء التي كانت تحدث من دوني.

- إنه فستان جميل.

قلت كذبا، وقد لاحظت للمرة الأولى غياب أي تحضيرات للغداء.

ومررت يديها على مقدمة الفستان، ونظرت إلى الساعة المعلقة فوق الموقد، ثم مدت يدها إلى حقيبة يدوية بيضاء قديمة مصنوعة من الفينيل ورثتها عن أيار.

وسألتها:

- هل أنت ذاهبة إلى مكان ما؟

- نعم، بالتأكيد

قالت آب وهي تدخل إلى الغرفة وتبتسم لروزالين.

وقالت روزالين وهي ترفع ذقنها:

- سوف أكمل ما بدأته وأسجل نفسي في قائمة المصوتين.

وتدلى ذراعاي إلى جانبي وفغرت فاهي:

- ولكن... ماذا عن كونك... تعرفين؟

وحملقت روزالين فيّ: ماذا؟

وقلت:

- هاربة من العدالة. ماذا لو تعرفوا على اسمك؟ أو ألقي عليك القبض؟

ووجهت نظري صوب آب، فقالت وهي تتناول مفاتيح الشاحنة من المسمار النحاسي القريب من الباب:

- لا أعتقد أن هناك مشكلة. نحن ذاهبتان إلى مكتب التصويت في مدرسة السود الثانوية.

- ولكن...

وقالت روزالين:

- بالله عليك، كل ما سأفعله هو الحصول على بطاقة تصويت.

وقلت لها:

- هذا ما قلته في المرة الماضية.

وتجاهلت ما قلته. وثبتت حقيبة أيار تحت ذراعها وكانت عليها شق ينطلق من المقبض إلى الجانب.

وقالت آب:

- هل ترغبين في مرافقتنا يا ليلي؟

وكنت أرغب في ذلك ولم أكن أرغب فيه في نفس الوقت. ونظرت إلى قدمي وكانتا مدبوغتين وحافيتين، وقلت:

- أفضل البقاء هنا وتحضير غدائي.

ورفعت آب حاجبيها وقالت:

- من الجيد أنك تشعرين بالجوع هذه المرة.

وذهبتا إلى الشرفة الخلفية ثم نزلتا من الأدراج. وتبعتهما إلى الشاحنة. وحين دخلتها روزالين قلت لها:

- لا تبصقي على حذاء أحد. هل فهمت؟

وأطلقَت ضحكة جعلت جسدها يهتز بأكمله. وبدا وكأن جميع الورود التي كانت على فستانها تتراقص مع هبات الريح.

وعدت إلى الداخل وسلقت شريحتي هوت دوغ وأكلتهما دون خبز. وبعد ذلك توجهت إلى الغابة حيث التقطت بعضا من نباتات القنطريون العنبري التي بسقت تحت أشعة الشمس قبل أن أشعر بالملل وأرميها.

وجلست على الأرض وأنا أتوقع أن أغرق في مزاجي العكر وفي التفكير في أمي، ولكني لم أفكر إلا في روزالين، وتخيلتها وهي تقف في الصف، وكنت أكاد أراها وهي تتدرب على كتابة اسمها. وتنجح في ذلك. لقد كانت تلك لحظتها الكبرى. وتمنيت فجأة لو أني رافقتها. لقد تمنيت ذلك أكثر من أي شيء آخر. وتمنيت لو أني رأيت وجهها وهي تتسلم بطاقة التصويت. وكنت أود أن أقول لها روزالين، **هل تعرفين؟ أنا جد فخورة بك.**

ما الذي كنت أفعله هناك في وسط الغابة؟

****

نهضت ودخلت إلى المنزل. وأنا أمر بجانب الهاتف في البهو عند الردهة، انتابتني رغبة في مهاتفة زاك، وفي الانتماء للعالم من جديد،

فركبت رقمه.

وحين أجابني قلت له:

- ما الجديد إذن؟

وقال:

- من المتصل؟

- هذا مضحك جدا.

وقال:

- أنا آسف لـ... لكل شيء. لقد أخبرتني آب عما حدث.

وغرقنا في الصمت لبرهة، ثم قال:

- هل ستعودين؟

- هل تقصد إلى أبي؟

تردد ثم قال:

- نعم.

وفي اللحظة التي قال فيها ذلك، شعرت بما كان سيحدث بالضبط. وكان كل جزء من جسدي يحس بذلك. وقلت:

- أعتقد ذلك.

وأخذت في لف خيط الهاتف حول أصبعي والتحديق في البهو

وفي الباب الأمامية. ولم أستطع تحويل بصري لبضع ثوان، وكنت أتخيل نفسي وأنا أغادر من تلك الباب ولا أعود.

- سوف آتي لأراك.

قال وشعرت بالرغبة في البكاء.

أن يطرق زاك باب منزل تي-ري أوينز شيء ما كان ليحدث.

- لقد سألتك عن جديدك، هل تذكر ذلك؟

ولم أكن أتوقع أن يكون شيء ما قد حدث، وإنما كنت أعيد طرح السؤال لأغير الموضوع.

- حسنا، لنبدأ بكوني سأبدأ في ارتياد مدرسة ثانوية للبيض هذا العام.

وصعقني ذلك. وأحكمت قبضتي على الهاتف.

- وهل أنت متأكد من أنك تريد فعل ذلك؟

قلت، وكنت على دراية لما كانت عليه تلك الأماكن.

فقال زاك:

- حسنا، يجب أن يفعل ذلك أحد ما... فلأكن أنا إذن.

لقد كان يبدو أن كلانا كان محكوما بالمآسي.

****

وعادت روزالين إلى المنزل، وكانت شخصا مسجلا للتصويت

في الولايات المتحدة الأمريكية عن جدارة واستحقاق. وجلسنا جميعا ذلك المساء في انتظار أن نتناول عشاءنا بينما كانت روزالين على الهاتف تتصل بنفسها بجميع بنات مريم.

- لقد كنت أود إخبارك بأنني سجلت في قائمة التصويت.

كانت تقول في كل مرة، ثم كان تتوقف قليلا قبل أن تواصل:

- سأصوت للرئيس جونسون والسيد هوبرت هامفري. لا، لن أصوت على السيد غولدووتر ذاك. وكانت تضحك في كل مرة وكأن تلك كانت أكثر النكت طرافة. **غولدووتر ذاك.**

وتواصل المشهد حتى بعد أن تناولنا العشاء. فما تلبث أن تعتقد أنها نسيت الأمر، حتى تقول لك من فراغ:

- سأصوت للسيد جونسون.

وحين نفذت طاقتها أخيرا وتمنت لنا ليلة سعيدة، تابعتها وهي تصعد السلالم وكانت ترتدي الفستان الأحمر والأبيض الذي ذهبت به للتسجيل في قائمة التصويت، وتمنيت من جديد لو أنني كنت هناك.

إن الندم لا يجدي شيئا، هكذا قالت آب لحزيران. أنت تعرفين ذلك.

وركضت في الأدراج وسحبت روزالين من الخلف وأوقفتها وإحدى قدميها معلقة في الهواء وتبحث عن الدرجة التالية ولففت ذراعي حولها خصرها، وقلت من غير تفكير

- أنا أحبك.

ولم أكن أعرف حتى أنني كنت سأقول ذلك.

****

وفي تلك الليلة، وحين كانت الحياة تنبعث في الجنادب وضفادع الأشجار وباقي المخلوقات، كنت أمشي بداخل بيت العسل وأنا أشعر وكأني أصبت بتحمس الربيع. وكانت الساعة تشير إلى العاشرة ليلا، وكنت في الحقيقة أشعر وكأنني أستطيع فرك الأرضيات وتنظيف النوافذ.

وذهبت إلى الرفوف وعدلت جميع المرطبانات، ثم أخذت مكنسة وكنست الأرضية مرورا بالمولد وهو الجزء الذي كان يبدو أن أحدا لم يكنسه منذ خمسين عاما. ولكنني مع ذلك لم أكن أشعر بالتعب، وما كان مني إلا أن اقتلعت الأغطية عن سريري وذهبت إلى المنزل الوردي وأحضرت شراشف نظيفة وحرصت على أن أمشي على رؤوس أصابعي لئلا أوقظ أحدا. وأحضرت مناديل لمسح الغبار ومواد تنظيف في حال احتجت لها.

وعدت، وسرعان ما اجتاحتني هستيريا التنظيف، ومع حلول منتصف الليل، كان كل شيء من حولي يلمع.

ولم أتوقف عند ذلك، بل أخذت في فرز أشيائي والتخلص من بعضها، أقلام رصاص قديمة وبعض القصص التي كتبتها وكانت أكثر إحراجا من أن يقرأها أحد ما، وسروال قصير ممزق، ثم مشط فقد معظم أسنانه.

وبعد ذلك، لممت عظام الفأر التي كنت أضعها في جيبي، والتي لم أعد بحاجة إلى حملها أينما ذهبت. ولكنني كنت أعرف أنني لا أستطيع رميها، فما كان مني إلا أن حزمتها معا بشريط شعر أحمر ووضعتها إلى جانب المروحة على الرف. وحدقت فيها لدقيقة وكنت أتساءل ما الذي قد يجعل شخصا ما يتعلق **بعظام فأر**. ثم فكرت في أن المرء قد يحتاج إلى الاعتناء بشيء ما. هذا كل ما في الأمر.

وفي تلك اللحظة، كنت قد بدأت في الشعور بالتعب، ولكنني أخرجت أشياء أمي من الصندوق: المرآة التي عليها إطار على شكل سلحفاة، ومشطها وكتاب الشعر والدبوس الحوت، وصورة وجهينا، ووضعتها فوق الرف مع عظام الفأر. وقد جعلتِ الغرفة بأكملها تبدو مختلفة.

وأنا أغفو، فكرت فيها. وفي ألا أحد يستطيع بلوغ الكمال. وفي أنه ليس على المرء إلا إغلاق عينيه والتنفس وترك لغز قلب الإنسان وشأنه.

****

وفي اليوم التالي، وضعت دبوس الحوت على قميصي الأزرق المفضل وذهبت إلى المطبخ. وكانت أغنية نات كينغ كول تملأ المكان، «مستعصية على النسان... هكذا أنت.» وأعتقد أنها شُغِّلت لتغطي على كل تلك الضوضاء التي كانت تحدثها غسالة ليدي كينمور الوردية في الشرفة. لقد كانت اختراعا باهرا ولكنها كانت تطلق أصوات شبيهة بتلك التي تصدرها آلة خلط الإسمنت. وكانت آب تجلس ومرفقاها مسندان فوق الطاولة وكانت تحتسي آخر ما تبقى من قهوتها وتقرأ كتابا

آخر كانت قد اقتنته من المكتبة المتنقلة.

وحين رفعت عينيها، نظرت إلى وجهي ثم إلى الدبوس الحوت. ورأيتها تبتسم قبل أن تعود لقراءة كتابها.

وحضرت فطوري المعتاد بحبوب الإفطار والزبيب. وبعد أن انتهيت من الأكل، قالت آب:

- تعالي معي إلى القفران. أريد أن أريك شيئا ما.

وغطينا أنفسنا كليا بزي النحالين، أو أنا من فعل ذلك على الأقل، لأن آب كانت نادرا ما تلبس شيئا آخر غير الخوذة والحجاب.

ونحن في طريقنا إلى هناك، وسعت آب خطوتها لتتجنب دهس نملة. وهو ما ذكرني بأيار، فقلت لها:

- لقد كانت أيار هي من علم أمي طريقة إنقاذ الصراصير، أليس كذلك؟

- ومن غيرها؟

قالت آب، وابتسمت، ثم واصلت:

- لقد حدث ذلك عندما كانت والدتك في فترة المراهقة. وفاجأتها أيار وهي تقتل صرصورا بمنشة الحشرات. وقالت لها: «ديبورا فونتانيل، إن كل المخلوقات الموجودة على وجه البسيطة مميزة. هل تودين أن تكوني السبب في القضاء على واحد منها؟» ثم علمتها كيف تضع خطا من حلوى المارشملو وفتات بسكويت غراهام المالح.

ومررت أصبعي على الدبوس فوق كتفي، وأنا أتخيل المشهد بأكمله، ثم نظرت حولي واسترجعت حواسي. لقد كان يوما جميلا لم تكن لتتخيل أن يفسده أي شيء.

ووفقا لآب، فإنك لم تر أعجوبة الدنيا الثامنة إن لم يسبق لك أن شاهدت مجموعة من القفران في الصباح الباكر. تخيل كل تلك الصناديق البيضاء المنزوية تحت أشجار الصنوبر. والشمس وهي تتسلل بين الأغصان فتلمع في قطرات الندى وتنشف الأغطية. وتنتشر بضعة مئات من النحلات وتأخذ في الدوران حول صناديق القفران، وكأنها تقوم بتمارين إحماء، أو تتخلص من فضلاتها في الغالب، لأن النحل نظيف جدا وما كان ليلوث قفيره. وقد يبدو لك المشهد من بعيد كلوحة قد تراها في متحف ما، مع فارق أن المتاحف لا تلتقط الأصوات. وعلى مبعدة خمسين قدما، ستسمع طنينا سيبدو وكأنه آت من كوكب آخر. وعلى مبعدة ثلاثين قدما، سيبدأ جلدك في التذبذب. وستشعر بالقشعريرة وسيتبادر إلى ذهنك ألا تقترب أكثر، لا تقترب أكثر، ولكن قلبك سيجذبك إلى الطنين مباشرة، وسيبتلعك. وستقف وسط كل ذلك وتفكر، أنا في مركز الكون حيث يُغَنَّى كل شيء للحياة.

نزعت آب الغطاء عن أحد القفران، وقالت:

- لقد فقدت ملكتها.

وكنت قد تعلمت ما يكفي عن تربية النحل لأدرك أن مآل النحل الذي يفقد قفيره ملكته هو الموت، إذ يتوقف عن العمل ويصاب بالإحباط.

وقلت:

- وماذا حدث؟

- لقد اكتشفت ذلك البارحة، فقد كان النحل يجلس هنا على لوحة الهبوط وقد بدت عليه الكآبة. وإذا رأيت النحل يتسكع وينوح، فكوني متأكدة أن الملكة قد ماتت. ولذلك فقد تفقدت جميع الأقراص وتأكدت من أنها ماتت. لا أعرف كيف حدث ذلك. لربما كان ذلك أجلها.

- وماذا تفعلين في هذه الحالة؟

- لقد اتصلت بمكتب تحويل المكالمات في المقاطعة، ووصلوني برجل في كوز كريك قال إنه سيأتي بملكة جديدة اليوم. وأنا أريد أن أضع ملكة في هذا القفير قبل أن تشرع إحدى الخادمات في وضع البيض. فإذا حدث ذلك، ستعم الفوضى داخل القفير.

وقلت:

- لم أكن أعرف أن الخادمات تستطعن وضع البيض.

- في الحقيقة، كل ما يمكنها فعله هو وضع بيض غير ملقح به ذكور. وسيتكوم في الأقراص، وتموت الخادمات نتيجة لذلك، ولن نجد من يحل محلها.

وقالت آب وهي تعيد الغطاء إلى مكانه:

- لقد كنت أريدك أن تري حالة القفير عند فقدان الملكة.

ورفعت الحجاب عن خوذتها ثم خوذتي. ونظرت إلى عيني بينما

كنت أتفحص النقط الذهبية التي كانت تلمع في عينيها. وقالت:

- هل تذكرين قصة بياتريز التي حكيتها لك من قبل؟ الراهبة التي فرت من ديرها؟ وهل تذكرين كيف وقفت مريم العذراء إلى جانبها؟

فقلت:

- نعم، أتذكر ذلك. لقد أدركت أنك كنت تعرفين أنني هربت مثل بياتريز. وكنت تحاولين أن تقولي لي أن مريم كانت في منزلي تحل مكاني إلى أن أعود.

- حسنا، لم يكن ذلك قصدي على الإطلاق. فلم تكوني أنت الشخص الهارب الذي كنت أفكر فيه. وإنما كنت أفكر في والدتك. لقد كنت أحاول أن أزرع فكرة صغيرة في ذهنك.

- وما هي؟

- أن سيدتنا قد تحل مكان ديبورا، وتكون أما بديلة لك.

وكان الضوء يتحرك على العشب ويحدث فوقه أشكالا. وكنت أتابعها وأشعر بالخجل مما كنت سأقوله.

- لقد أخبرت سيدتنا ذات ليلة في المنزل الوردي أنها أمي. ووضعت يدي على قلبها مثلما كنت تفعلين أنت وبنات مريم عند لقاءاتكن. وأعرف أنني كنت قد جربت فعل ذلك من قبل وأغمي علي، ولكنني بقيت تلك المرة رابطة الجأش، وشعرت حقا بالقوة لفترة بعد ذلك، ثم بدا وكأنني أضعف من جديد. أعتقد أنه عليّ لمس قلبها مرة أخرى.

وقالت آب:

- أنصتي إلي يا ليلي. سوف أقول لك شيئا أريد أن تتذكريه دائما، هل اتفقنا؟

واعترى وجهها الجدية والعزم. ولم تكن عيناها تطرفان.

- إن سيدتنا ليست بمخلوق خارق موجود في مكان ما، أو جنية. وهي ليست التمثال الموجود في غرفة الاستقبال. إنها شيء ما بداخلك. هل تفهمين ما أعنيه؟

- إن سيدتنا بداخلي.

قلت دون أن أكون متأكدة من أنني فهمت قصدها.

- يجب أن تجدي أما بداخلك. وفي الواقع، يجب علينا جميعا فعل ذلك. حتى وإن كانت لدينا أم، فإننا ملزمون بإيجاد ذلك الجزء منا بداخلنا.

وبسطت لي يدها وقالت:

- أعطني يدك.

ورفعت يدي اليسرى ووضعتها في يدها. وأخذَتها وضغطت براحتي على صدري، فوق قلبي النابض. وقالت:

- لست مضطرة لوضع يدك فوق قلب مريم لاستمداد القوة والعزاء والخلاص وكل ما تحتاجينه لمواصلة الحياة. يمكنك وضعها هنا على قلبك. قلبك أنت.

واقتربت آب مني أكثر. وواصلت الضغط على يدي، وتابعتْ:

- في كل المرات التي كان والدك فيها يعاملك بقسوة، كانت سيدتنا هي الصوت الذي كان يقول بداخلك «لا، لن أنحني لهذا. أنا ليلي ميليسا أوينز، ولن أنحني.» سواء كنت تستطيعين سماع ذلك الصوت أم لا، فإنها كانت هناك تردد تلك الكلمات.

وأخذت يدي الأخرى ووضعتها فوق يدها، ثم وضعت عليها يدها الأخرى، فكانت كومة من الأيادي السوداء والبيضاء تنبسط على صدري.

وقالت آب:

- عندما لا تثقين في نفسك، وتبدئين في التردد والركون إلى أشياء دون قيمتك، فإنها الجزء الذي يقول بداخلك «انهضي وعيشي حياة تليق بعظمتك أيتها الفتاة.» إنها القوة التي بداخلك. هل تفهمينني؟

وبقيت يداها في مكانهما ولكن ضغطهما كان قد خف.

- -ومهما كان ذلك الشيء الذي يفتح قلبك، فإن تلك مريم، ليس فقط القوة بداخلك وإنما الحب أيضا. وحين تركزين على ذلك، يا ليلي، فإن ذلك الهدف الأسمى لحياة الإنسان، ليس فقط الحب، وإنما المثابرة على الحب.

وتوقفت، وكان صوت النحل منتشرا في الهواء. وأزاحت آب يديها من فوق صدري، ولكنني تركت يدي في مكانهما.

- إن مريم التي أتحدث عنها هي التي تبقى في قلبك طوال الوقت

يا ليلي وتقول «ليلي، أنت منزلي الأبدي، ولا تجزعي، فأنا كافية. ونحن كافيتان.»

وأغلقت عيني، وفي برودة الصباح، هناك بين النحل، شعرت للحظة بوضوح بما كانت تتحدث عنه.

وعندما فتحت عيني، لم تكن آب بقربي. وعندما استدرت نحو المنزل، رأيتها تقطع الحديقة، وفستانها الأبيض يلمع تحت الضوء.

****

طُرِق الباب على الساعة الثانية بعد الظهر، وكنت أجلس في قاعة الاستقبال أكتب في المذكرة التي كان زاك قد تركها عند بابي، وكنت أكتب كل ما حدث منذ يوم مريم. وكانت الكلمات تنساب مني بسرعة لم أكن أستطيع مواكبتها، ولم أكن أفكر في شيء غير ذلك. ولم أعر انتباها للطرق. وفيما بعد، كنت أتذكر أنه لم يكن عاديا، وإنما كان أشبه بخبط قبضة على الباب.

وواصلت الكتابة وكنت أنتظر أن تفتح آب الباب، فقد كنت متأكدة من أن الطارق كان الرجل القادم من كوز كريك وقد جاء بالملكة الجديدة.

وطُرِق الباب مرة ثانية. وكانت حزيران قد خرجت مع نيل وروزالين تنظف الشحنة الجديدة من المرطبانات، وكانت تلك مهمتي، ولكنها تطوعت لفعل ذلك عندما رأت حاجتي الملحة لكتابة كل شيء، ولم أكن أعرف أين كانت آب. وربما كانت تساعد روزالين في بيت العسل.

والآن، أسترجع الأمر وأتساءل: كيف لم أحزر من كان الطارق؟

وعندما طُرِق الباب للمرة الثالثة، نهضت وفتحته.

وحدق فيّ تي-ري، وكان حليق الذقن ويرتدي قميصا أبيض قصير الأردان، وشعر صدره المتعرج يظهر من فتحة العنق. وعلت وجهه ابتسامة، ولكنها لم تكن ابتسامة حلوة محبة، وأستطيع التسرع والقول إنها كانت ابتسامة خبيثة لرجل عثر على فريسته وحاصرها داخل جذع شجرة أجوف دون أن يكون أمامها مخرج آخر. وقال:

- حسنا، حسنا، انظروا من وجدت.

وراودتني فجأة الفكرة المرعبة في أنه قد يسحبني في تلك اللحظة إلى شاحنته وينطلق بها مباشرة إلى مزرعة الدراق حيث لن يسمع عني أحد بعد ذلك أبدا. وتراجعت خطوات في الردهة، وقلت له بلباقة مكرهة فاجأتني وأربكته:

- هل ترغب في الدخول؟

وماذا كنت لأفعل غير ذلك؟ واستدرت وأرغمت نفسي على المشي بهدوء إلى غرفة الاستقبال.

ومشى بخطوات ثقيلة خلفي، وقال وهو يتكلم وراء رأسي مباشرة:

- حسنا. اللعنة... إن كنت ترغبين في ادعاء أننا بصدد زيارة عائلية، فلنتظاهر بذلك، ولكنها ليست كذلك، هل تسمعينني؟ لقد أمضيت نصف الصيف في البحث عنك، وسآخذك من هنا شئت أم أبيت. ولا يهمني ذلك.

وأشرت إلى كرسي هزاز وقلت:

- تفضل بالجلوس إذا أردت.

وكنت أحاول أن أبدو متزنة، في حين كنت أوشك على الانهيار من الداخل. **أين ذهبت آب؟** وقد تحول تنفسي إلى نفخات قصيرة وسطحية، وكأني كلب يلهث.

وارتمى على الكرسي الهزاز وأخذ في دفعه جيئة وذهابا، وقد التصقت تلك الابتسامة الخبيثة بوجهه.

- حسنا، لقد كنت هنا طوال الوقت، مع نساء سود. يا مسيح.

واصطدمت بتمثال سيدتنا دون أن أشعر بذلك، فتسمرت في مكاني بينما أخذ ينظر إليها، وقال:

- ما هذا بحق الجحيم؟

فقلت:

- إنه تمثال مريم، والدة المسيح.

وخرج الصوت من حلقي مهزوزا. وكنت أنقب في ذهني عما كنت سأفعله.

وقال:

- إنها تبدو كشيء انتشل من المزبلة.

- كيف وجدتني؟

وانزلق على حافة مقعد الخيزران، وأخذ يفتش في جيب سرواله إلى أن أخرج منه مطواة، تلك التي كان يستخدمها في تنظيف أظافره. وقال بزهو وانتشاء:

- أنت من قادني إلى هنا.

- لا، أنا لم أفعل ذلك.

وأخرج شفرة المطواة، وغرز رأسها في يد الكرسي الهزاز، وأخذ في حفر الخشب واستلذ بأخذ بعض الوقت للإجابة:

- بلى، أنت من قادني إلى هنا. لقد تلقيت فاتورة الهاتف البارحة، ولك أن تحزري ماذا وجدت فيها. مكالمة من مكتب محام في تيبورون. السيد كلايتون فوريست. لقد ارتكبت خطأ كبيرا يا ليلي باتصالك بي مكالمة أدفع أنا ثمنها.

- هل ذهبت إلى مكتب كلايتون وأخبرك عن مكاني؟

- لا، ولكن سكرتيرته المسنة أعطتني كل المعلومات التي كنت بحاجة إليها بكل فرح. وقالت إنني سأجدك هنا.

يا لغباء الآنسة لايسي.

وقال:

- وأين روزالين؟

- لقد غادرت منذ مدة طويلة.

وكنت أكذب. ولكن، كان باستطاعته أن يخطفني أنا ويعيدني إلى سيلفان، ولم تكن هناك حاجة إلى أن يعرف مكان روزالين. يمكنني تجنيبها ذلك على الأقل.

ولم يعلق بشيء بخصوص روزالين. وبدا سعيدا بحفر يد الكرسي الهزاز وكأنه كان في الحادية عشر من عمره ويحفر الحروف الأولى من اسمه في جذع شجرة. وأخذ يحدق في كتفي ثم ضيق جفنيه لدرجة جعلت عينيه تبدوان شبه مغلقتين. فنظرت إلى كتفي لأرى ما أثار انتباهه وأركت أنه كان ينظر إلى الدبوس الحوت على قميصي.

ونهض على قدميه وتقدم باتجاهي، وتروى عندما صار على مقربة أربعة أو خمسة أقدام مني، وكأن الدبوس كان نوعا من اللعنة، وسأل:

- من أين أتيت بهذا؟

وتحركت يدي بعفوية ولمست نافورة الحوت المصنوعة من حجر الزاين الصغيرة وقلت:

- لقد أعطتني إياه آب، صاحبة المنزل.

- لا تكذبي عليّ.

أنا لا أكذب. لقد أعطتني إياه، وقالت إنه كان لـ...

وكنت أخشى أن أكمل، فهو لم يكن يعرف شيئا عن آب وأمي.

وابيضت شفته العلوية كما كانت تفعل عندما يكون غاضبا جدا. وقال:

- لقد أعطيت ذلك الدبوس لوالدتك في عيد ميلادها الثاني

والعشرين. هيا، أخبريني الآن كيف وصل إلى هذه المرآة، آب.

- أنت أعطيته لأمي؟ أنت؟

- هيا أجيبيني، اللعنة.

- لقد أتت أمي إلى هنا عندما تركتنا وقالت لي آب إنها كانت تضعه عندما وصلت إلى هنا.

وعاد إلى مكانه، وقد بدا مهزوزا، وجلس على الكرسي بهدوء. «**سأكون ملعونا**»، قال بصوت خافت جدا سمعته بالكاد.

وقلت محاولة إن أشرح له الأمر:

- لقد كانت آب تعتني بأمي عندما كانت فتاة صغيرة في فرجينيا.

وكان يحدق في الهواء، في الفراغ. ومن خلال النافذة، وفي صيف كارولاينا، كنت أستطيع رؤية الشمس وهي تضرب سقف شاحنته وتنير حواف السياج الخشبي الذي ابتلعه الياسمين. وكانت الشاحنة ملطخة بالوحل وكأنه كان يذرع المستنقعات بحثا عني.

- كان عليّ أن أعرف.

قال وهو يهز رأسه ويتكلم وكأنني لم أكن في الغرفة. وأضاف:

- لقد بحثت عنها في كل مكان خطر على بالي. وهي كانت هنا، اللعنة، لقد كانت هنا.

وبدا وأن الفكرة كانت تذهله، وهز رأسه وأخذ يجول ببصره في

المكان، وكأنه كان يقول أراهن على أنها كانت تجلس على هذا الكرسي، وتمشي على ذاك البساط. وارتعد ذقنه قليلا وأدركت للمرة الأولى كم كان يحبها، وكم دمره رحيلها.

وقبل أن آتي إلى هنا، لم تكن حياتي برمتها سوى حفرة كانت أمي لتملأها، وقد جعلتني تلك الحفرة مختلفة، وجعلتني أتوق لشيء ما، ولكنني لم أفكر قط فيما فقده هو وكيف غيره ذلك.

وتذكرت كلمات آب وهي تقول: قد يبدأ الناس بصورة ما، ولكن الحياة تدور وتنال منهم فيصبحون مختلفين تماما. أنا لا أشك في أنه كان يحب والدتك في البداية. وفي الواقع، لقد كان يعبدها.

ولم أكن قد رأيت تي-ري يعبد أحدا سوى سناوت كلبته وحب حياته، ولكن وأنا أرى حالته في تلك اللحظة، أدركت أنه كان يحب ديبورا فونتانيل، وحين تركته، أصبحت حياته مرة.

وغرز المطواة في الخشب ونهض. ونظرت إلى المقبض المعلق في الهواء، ثم في تي-ري وهو يطوف حول الغرفة ويتلمس الأشياء، البيانو، وشماعة القبعات والمجلة الموضوعة فوق الطاولة ذات الأجنحة القابلة للطي.

وقال:

- يبدو أنك هنا لوحدك.

وشعرت بما كان سيعقب ذلك. نهاية كل شيء.

وتقدم نحوي ثم هم بأخذ ذراعي، وحين ابتعدت، اقترب بيده من

وجهي. لقد سبق لتي-ري أن انهال على وجهي مرات كثيرة بصفعات قاسية، تلك الصفعات التي تجعلك تخرج نفسا سريعا ومذهولا ولكن صفعته كانت مختلفة تلك المرة، فهي لم تكن صفعة على الإطلاق. لقد ضربني هذه المرة بكل ما أوتي من قوة، وسمعت نخيرا ينطلق من بين شفتيه وهي تنهال على وجهي، ورأيت عينيه وهما تحملقان لثانية. واستنشقت رائحة المزرعة والدراق على يديه.

ورمت بي تلك الضربة على سيدتنا التي هوت على الأرض قبل سقوطي بثانية. ولم أشعر بالألم أول الأمر، ولكن عندما جلست ووضعت قدمي تحتي، شعرت بتمزق يمر من أذني إلى ذقني. وقد جعلني ذلك أسقط على الأرض من جديد. وحملقت فيه ويداي فوق صدري وكنت أتساءل ما إن كان سيسحبني من قدمي إلى شاحنته.

وكان يصرخ:

- كيف تجرأت على تركي! سألقنك درسا، هذا ما أنت بحاجة إليه!

وملأت رئتيّ بالهواء وحاولت تمالك نفسي. وكانت مريم السوداء مستلقية إلى جانبي على الأرض، وكانت تطغى عليها رائحة العسل. وتذكرت كيف دهنا به كل شبر منها إلى أن ضمخناها بالعسل وشبعناها به. وبقيت مستلقية على الأرض فقد كنت أخشى التحرك والسكين مغروزة في الكرسي في الطرف الآخر من الغرفة. وركلني فحطت رجله على ربلة ساقي وكأنني كنت علبة قصدير في الطريق كان ليركلها فقط لأنها كانت في طريقه.

ووقف فوقي، وسمعته يتمتم:

- ديبورا. لن تتركيني مجددا.

وكانت عيناه تبدوان هائجتين وخائفتين. وتساءلت ما إن كنت قد سمعته جيدا.

ولاحظت أن يداي كانتا لا تزالان مضمومتين إلى صدري. وضغطتهما بقوة على جسدي.

وصرخ في:

- هيا، انهضي، سأعيدك إلى المنزل.

وانقض عليّ وقبض على ذراعي ورفعني. وما أن وقفت على قدمي حتى ركضت نحو الباب، فلحق بي وأمسكني من شعري. وحين استدرت لأرى وجهه، لمحت السكين، وكان يلوح بها أمام وجهي.

وصرخ:

- ستأتين معي، ما كان عليك تركي أبدا.

وخطر ببالي أنه لم يكن يتحدث إليّ أنا وإنما إلى ديبورا. وكأن ذهنه عاد عشر سنوات إلى الوراء.

وقلت:

- تي-ري... أنا ليلي.

ولكنه لم يكن يسمعني. وكان يمسك شعري بقبضته ولم يشأ تركه، وقال:

- ديبورا... أيتها السافلة اللعينة.

وبدا مجنونا من اللوعة، وكان يعيش من جديد ألما حقنه بداخله كل ذلك الوقت، واكتسحه حين فك قيده في تلك اللحظة. وتساءلت ما كان مستعدا لفعله ليأخذ ديبورا معه. وكنت أعتقد أنه كان ليذهب إلى حد قتلها.

أنا منزلك الأبدي. أنا كافية. نحن كافيتان.

ونظرت إلى عينيه وكانت تملؤهما ضبابية غريبة.

وهتفت:

- أبي!

وبدا مذهولا، ثم حدق في وهو يتنفس بصعوبة، وترك شعري وسقطت السكين من يده على الأرضية.

وتعثرت إلى الخلف وتمالكت نفسي. وكنت ألهث، وكان الصوت يملأ الغرفة، ولكني لم أكن أرغب في أن يراني أنظر إلى السكين، غير أنني لم أستطع منع نفسي من ذلك. ونظرت إلى البقعة التي كان يقف فيها. وعندما نظرت إليه من جديد، كان لا يزال يحدق فيّ.

ولم يتحرك أي منا لوهلة، ولم أستطع فهم تعابيره. وكان جسدي يرتعد بأكمله، ولكني شعرت بضرورة متابعة الحديث. وبينما كنت أتراجع بخطوات صغيرة إلى الوراء قلت:

- أنا... أنا آسفة لأنني رحلت بتلك الطريقة.

وتدلى الجلد المحيط بعينيه على جفنيه، وكان ينظر بعيدا، باتجاه النافذة، وكأنه يتأمل الطريق التي أتت بها إلى ذلك المكان.

وسمعت صرير لوح في أرضية الممر بالخارج. وعندما استدرت، رأيت آب وروزالين عند الباب. وأعطيتهما إشارة خفية بيدي مشيرة لهما بعدم الظهور. وأعتقد أنني كنت أريد حل الأمور بنفسي، وأن أكون معه وهو يستعيد حواسه. وقد بدا وديعا وهو يقف هناك في تلك اللحظة.

واعتقدت لوهلة أنهما كانتا ستتجاهلانني وتدخلان، ولكن آب أمسكت بذراع روزالين واختفتا عن البصر.

وعندما عاد تي-ري، ثبت عينيه علي، ولم يكن فيهما شيء سوى محيط من الجراح. ونظر إلى الدبوس المعلق على قميصي وقال:

- تبدين مثلها.

وقد كان في قوله لذلك الكثير.

وانحنيت والتقطت مطواته وأدخلت الشفرة في غشائها وناولته إياها، وقال:

- لا بأس.

ولم يكن الأمر كذلك، فقد كنت أرى الممر القاتم الذي كان مخفيا بداخله، ذلك المكان المريع الذي كان سيغلقه في تلك اللحظة ولا يعود إليه إذا كان الأمر بيده. وبدا أنه قد استعاد كبرياءه فجأة، وغضبه ودوي الرعد الذي أحضره معه عندما أتي. وكانت يداه تدخلان جيوبه ثم تخرج منها.

وقال:

- سنعود إلى المنزل.

ولم أجبه، ولكنه اقترب من سيدتنا حيث كانت مستلقية على الأرض وأوقفها. وكنت أشعر بحضور آب وروزالين خلف الباب، وكنت أكاد أسمع نفسيهما. ولمست وجنتي وكان المكان الذي تلقى الضربة قد انتفخ. وقلت:

- سوف أبقى هنا... لن أغادر.

وعلقت الكلمات هناك، صلبة وبراقة. وكأنها لآلئ شكلتها في بطني لأسابيع.

- ماذا قلت؟

- قلت إنني لن أغادر.

- وهل تعتقدين أنني سأخرج من هنا وأتركك؟ أنا لا أعرف هؤلاء الناس اللعينين حتى.

وبدا وكأنه يصارع لجعل كلماته قوية بما فيه الكفاية. وكان الغضب قد اختفى من وجهه عندما ألقى السكين.

وقلت:

- أنا أعرفهم. إن آب بوترايت شخص جيد.

- وما الذي يجعلك تعتقدين أنها ترغب في أن تبقي هنا؟

- تستطيع ليلي البقاء هنا كما يحلو لها.

قالت آب وهي تدخل الغرفة، وروزالين إلى جانبها. وذهبتُ ووقفت إلى جانبهما. وفي الخارج، توقفت سيارة كويني عند المدخل، ولم تكن إلا لتتعرف على الصوت الذي يصدره كاتم صوت محركها، ومن الواضح أن آب قد اتصلت ببنات مريم.

وقال تي-ري لروزالين:

- لقد قالت ليلي إنك قد هربت.

فأجابت:

- حسنا، أعتقد أنني عدت الآن.

وقال لها:

- اللعنة، أنا لا أكترث بمكانك أو ما قد يحل بك، ولكن ليلي ستأتي

معي.

وحتى وهو يقول ذلك، كنت أعرف أنه لم يكن يرغب بي، ولم يكن يرغب فيما يذكره بها. وكان جزء آخر منه، الجزء الجيد إن كان موجودا حقا، يفكر في أنه من الأفضل لي أن أبقى هنا.

لقد كان كل شيء متعلقا بكبريائه في تلك اللحظة. الكبرياء. فكيف يمكن أن يتراجع؟

وفُتحت الباب الأمامية وأقدمت كويني وفيوليت ولينيل وهن تتعثرن ويبدون وكأنهن ارتدين ملابسهن بالمقلوب. وحدقت كويني

في وجنتي. وقالت وهي تتنفس بصعوبة:

- هل أنتم جميعا على ما يرام؟

وردت آب:

- نحن بخير. هذا السيد أوينز، والد ليلي، وقد أتي لزيارتها.

وقالت كويني:

- لم يرد أحد على الهاتف في منزل الفتاة الحلوة وكريسي.

واصطففن هن الأربعة إلى جانبنا، وهن ممسكات بمحافظهن على مقربة من أجسادهن وكأنهن ستستعملنها لتوسعن شخصا ما ضربا.

وتساءلت كيف كنا نبدو له. مجموعة من النساء. مابيلي التي لا يتعدى طولها أربعة أقدام وعشرة إنشات، ولينيل التي يقف شعرها على رأسها ويتوسل لتجدله، وفيوليت وهي تتمتم «طوبي لك مريم»، وكويني، كويني المسنة الصلبة، ويداها على وركيها وشفتها متدلية، وكل شبر منها يقول: **أتحداك أن تتجرأ على أخذ هذه الفتاة.**

واستنشق تي-ري الهواء بمشقة ونظر إلى السقف، وكانت عزيمته تخور. فكنت ترى شذراتها تتطاير من حوله في الواقع.

ورأت آب ذلك أيضا. وتقدمت إلى الأمام. وكنت أحيانا أنسى كم كانت طويلة. وقالت:

- سيد أوينز، ستسدي معروفا لليلي ولنا جميعا إذا تركتها هنا. أنا أعلمها تربية النحل وهي تتعلم هذه المهنة وتساعدنا بعملها الجاد. إننا

نحب ليلي، وسنعتني بها، أعدك بذلك. وسنرسلها إلى المدرسة هنا ونحافظ عليها.

وقد سمعت آب تقول أكثر من مرة «إذا أردت شيئا من أحد ما، فعبد له الطريق ليمده لك.» وكان تي-ري بحاجة إلى شيء ينقذ ماء وجهه، وكانت آب تعطيه ذلك.

وتراقص قلبي. وتابعته. ونظر إليّ مرة واحدة، ثم ترك يده تنزل إلى جانبه.

- إلى الجحيم.

قال، واتجه نحو الباب، وكان علينا أن نفتح حائط النساء الصغير لإفساح الطريق له.

وارتطمت الباب الأمامية على الحائط الخلفي حين فتحها بقوة وخرج. ونظرنا جميعا إلى بعضنا البعض ولم ننبس بأي كلمة. وبدا وكأننا امتصصنا كل الهواء الذي كان في الغرفة وكنا نحبسه في رئتنا في انتظار التأكد من أننا كنا نستطيع تنفس الصعداء.

وسمعته يشغل الشاحنة، وقبل أن يستطيع دماغي إيقافي، ركضت وقطعت الحديقة خلفه.

ونادتني روزالين ولكني لم أكن أملك الكثير من الوقت لأشرح لها.

وكانت الشاحنة ترجع إلى الخلف عند المدخل وتثير الغبار، فلوحت له بذراعي وقلت:

- توقف، توقف!

وكبح الفرامل، ثم رمقني بنظرات غاضبة من الزجاج الأمامي. وسارعت آب وروزالين وبنات مريم خلفي إلى الشرفة الأمامية. واقتربتُ من باب الشاحنة بينما أخرج هو رأسه من النافذة.

وقلت:

- أريد أن أسألك عن أمر ما.

- وما هو؟

في ذلك اليوم الذي توفيت فيه أمي، قلت إنني حملت السلاح فانطلق.

- وكانت عيناي تحدقان في عينيه، وأضفت:

- أريد أن أعرف، هل كنت أنا من فعل ذلك؟

وتغيرت ألوان الحديقة بمرور غيمة، فتحولت من الأصفر إلى الأخضر الفاتح. ومرر يده على وجهه وحدق في حضنه، ثم عاد للنظر إلي.

وحين تحدث، كانت القسوة قد تلاشت من صوته:

- أستطيع أن أقول لك إنني من فعل ذلك إذا كان ذلك ما تريدين سماعه. وأستطيع أن أقول لك إنها هي من فعل ذلك بنفسها، ولكني سأكذب في كلتا الحالتين. أنت من فعل ذلك يا ليلي. أنت لم تقصدي ذلك، ولكنك فعلته.

ونظر إليّ للحظة، ثم تراجع إلى الخلف وخرج من المدخل، وقد خلف وراءه رائحة زيت الشاحنة. وكان المكان يعج بالنحل، الذي كان يحوم حول الشجيرات المزهرة ونبات الآس المنتشر فوق العشب، والياسمين عند حافة الغابة والبلسان الليموني المحتشد عند السياج. ربما كان يقول الحقيقة، ولكنك لم تكن لتتأكد تماما من صدق ما يقوله تي-ري.

وقاد الشاحنة ببطء، وليس بسرعة قصوى كما كنت أتوقع. وتابعته إلى أن اختفى عن البصر، ثم استدرت إلى آب وروزالين وبنات مريم في اللواتي كن على الشرفة. وهذه هي اللحظة التي أتذكرها بكل تفاصيلها وكيف كنت أقف عند المدخل وأنا أنظر إليهن. وأتذكر رؤيتهن واقفات هناك، تنتظرنني. كل تلك النساء، كل ذلك الحب، في انتظاري.

وألقيت نظرة أخيرة على الطريق الرئيسية. وأتذكر أنني فكرت في أنه ربما كان يحبني بطريقته الخاصة. لقد تنازل عني، أليس كذلك؟

ومازلت أقول لنفسي أنه حين قاد سيارته ذلك اليوم لم يقل إلى الجحيم، وإنما قال، ليلي، إن العيش في هذا المنزل مع هؤلاء النسوة السود أفضل لك. ولم تكوني لتزهري معي كما تفعلين معهم.

أعرف أن تلك فكرة غريبة، ولكنني أومن بلطف الخيال. وأتخيل أحيانا وصول طرد بريدي منه خلال احتفالات عيد الميلاد، لا يتضمن الكنزة الصوفية والجوارب والبيجاما المعتادة وإنما شيئا آخر فيه شيء من الإبداع، كأن يرسل سوارا يدويا من عيار أربعة عشر قراط تتدلى منه أشكال مختلفة وبطاقة سيكتب عليها «مع حبي، تي-ري»، وسوف يستعمل كلمة

«حب» دون أن يتوقف العالم عن الدوران، وإنما سيأخذ مساره الصحيح، كالنهر والنحل وكل شيء. فلا يتعين أن يزدري المرء الأشياء الغريبة. انظر إلي. لقد انغمست في أشياء غريبة الواحدة تلو الأخرى، وها أنا ذي في المنزل الوردي أستيقظ كل يوم لأجد أشياء ساحرة.

وخلال فصل الخريف، تغير لون كارولاينا الجنوبية إلى الأحمر الياقوتي وتدرجات البرتقالي. وكنت أتابعها هذه المرة من غرفتي في الأعلى، تلك الغرفة التي تركتها حزيران عندما تزوجت الشهر الماضي. ولم أكن لأحلم بغرفة مثلها. واشترت لي آب سريرا جديدا ومنضدة بيضاء من الطراز الفرنسي الجنوبي من الكتالوج. وأعطتني فيوليت وكويني بساطا مزخرفا بالورود كانتا تفرشانه في الغرفة الإضافية ولم يكن منه طائل، وحاكت مابيلي ستائر لغرفتي من قماش منقط بالأزرق والأبيض وأضافت أهداب بها كرات صغيرة عند الأطراف. وغزلت كريسي أربعة أخطبوطات ثمانية الأرجل بخيوط صوفية متعددة الألوان لأضعها فوق فراشي. وكان أخطبوط واحد ليكفيني، ولكن كانت تلك الحرفة الوحيدة التي تجيدها كريسي، ولذلك فقد كانت تقوم بها طوال الوقت.

وصنعت لي لينيل قبعة تفوقت في صنعها على كل القبعات التي صنعتها من قبل، بما في ذلك قبعة زفاف حزيران. وهي تذكرني قليلا بقبعة البابا. فهي طويلة وتعلو في الهواء دون توقف، وهي أكثر استدارة من قبعة البابا. وكنت أتوقع أن تكون زرقاء ولكن لينيل اختارت لها اللونين الذهبي والبني، وأعتقد أنه يفترض أن تشبه قفيرا قديما. وأنا لا ألبسها إلا خلال لقاءات بنات مريم لأنها كانت لتتسبب في ازدحام السير لعدة أميال.

ويزورنا كلايتون كل أسبوع ليتحدث مع آب عن آخر مستجدات قضيتنا أنا وروزالين في سيلفان. وهو يقول إنه لا يمكن أن يتوقع المرء أنه يستطيع أن يعتدي على شخص في السجن دون تبعات. وهو يقول كذلك إن جميع التهم سترفع عني وعن روزالين بحلول عيد الشكر.

وأحيانا، يصطحب كلايتون ابنته بيكا معه عندما يأتي لزيارتنا. وهي أصغر مني بعام واحد. وأتخيلها دائما كما هي في الصورة التي رأيتها في مكتب والدها، وهي تمسك يده وتقفز فوق موجة. وأنا أحتفظ بأشياء أمي فوق رف خاص في غرفتي وأترك بيكا تنظر إليها دون أن تلمسها. ولكني سأتركها تحملها ذات يوم، لأنه يبدو لي أن ذلك شيء تفعله الصديقة. وقد بدأ شعوري بقدسية تلك الأشياء يتلاشى. وأعتقد أنني سأستطيع قريبا أن أعطي مشط أمي لبيكا وأقول لها: «هل ترغبين في تمشيط شعرك بهذا المشط؟» «هل ترغبين في وضع هذا الدبوس الحوت؟»

ونقوم أنا وبيكا بمراقبة زاك في المطعم ونرافقه كلما سمحت لنا الفرصة بذلك. إننا معروفتان بـ»حب الزنوج»، وهو ما يقال عنا، وحين يقوم الجهلاء بتكوير ورق دفاترهم وإلقائه على زاك في الردهة، ويبدو أن ذلك أكثر ما يفضلون فعله عند فترات الاستراحة، فإن نفس الأمر يحدث لي وبيكا. ويقول زاك إن علينا المشي على الجانب الآخر، فنقول له: «ورق الدفاتر المكور... يا له من حدث جلل.»

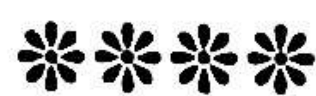
وفي الصورة الموضوعة إلى جانب سريري، تبتسم لي أمي دائما. وأعتقد أنني غفرت لاثنتينا، رغم أن أحلامي الليلية تعيدني أحيانا إلى الحزن ويكون على الاستيقاظ والغفران لكلتينا مجددا.

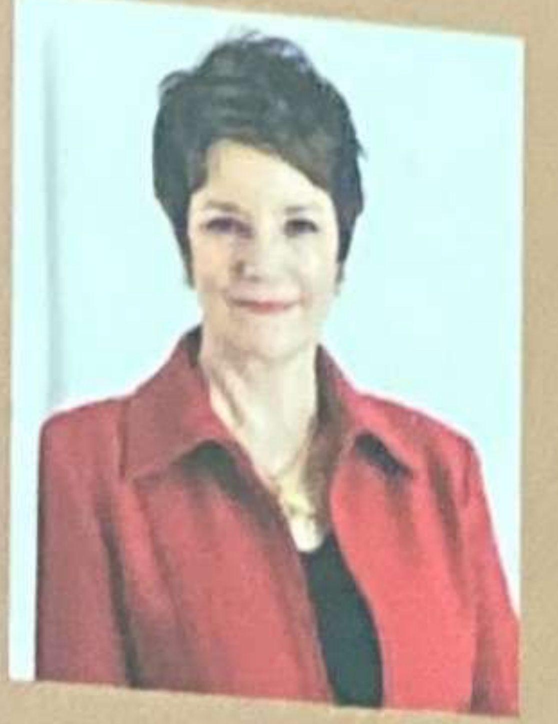
وأنا أجلس في غرفتي الجديدة وأكتب كل شيء. ولا يتوقف قلبي عن التحدث أبدا. وقد أصبحت أرتاد الحائط، وأستمر في تغذيته بالصلوات والأحجار. ولن يفاجئني أن يصمد حائط أيار أكثر منا جميعا. وفي آخر الزمن، عندما تكون جميع بنايات العالم قد انهارت، سيبقى هو شامخا.

وفي كل يوم، أزور مريم السوداء التي تنظر إليّ بوجهها الحكيم الضارب في القدم والقبيح بطريقة جميلة. ويبدو أن الثقوب تتعمق في جسدها في كل مرة أراها فيها، وأن جلدها الخشبي يشيخ أمام عيني. وأنا لا أمل أيدا من رؤية يدها المملوءة البارزة، وقبضتها التي تشبه مصباحا يوشك على الانفجار. إنها عضلة الحب، مريم هذه.

وأشعر بها في لحظات غير متوقعة، وصعودها إلى الجنة يحدث في داخلي. فتصعد فجأة، وحين تفعل ذلك، فإنها لا تصعد، لا تصعد إلى السماء، بل تواصل الصعود بداخلي. وتقول آب إنها تذهب إلى الحفر التي خلفتها الحياة بداخلنا.

لقد كان هذا الخريف محملا بالعجائب، ولكن في كل يوم، وأقصد كل يوم، أعود إلى بعد ظهر ذلك اليوم الذي غادر فيه تي-ري. وأعود إلى تلك اللحظة التي كنت أقف فيها عند المدخل بأحجار صغيرة وبقع من الوحل في قدمي ونظرت إلى الشرفة. وإلى كل تلك الأمهات. إن لدي أكثر عدد من الأمهات من أي ثمانية فتيات مارات بالشارع. وهن القمر الذي يسطع في سمائي.





سو مونك كيد

ولدت سو مونك كيد في عام 1948، وهي كاتبة من مدينة سيلفستر في جورجيا، في الولايات المتحدة الأمريكية، وهو مكان كان له أثر كبير في كتابتها لروايتها الأولى، "حياة النحل السرية"، التي نشرتها في عام 2001 وتبنتها الشاشة الكبرى في عام 2008. وقد حازت الكاتبة على العديد من الجوائز، وهي من بين الكتاب الأكثر مبيعا. ولها مؤلفات أخرى من بينها "كرسي حورية البحر" والقديس سينارا" و"اختراع الأجنحة".



حياة النحل السرية

الكتاب، وإن أوحى عنوانه بكونه عملا وثائقيا أو بحثا علميا، فهو على العكس من ذلك، عمل أدبي بامتياز، يغوص في عالم لِيلِي، الفتاة ذات الأربعة عشر ربيعا، التي تعيش مع والدها في مزرعة الدراق، على مقربة من بلدة سيلفان، وتعاني من غلظة طبعه وقسوته ومن أنواع العقوبات التي لم يكن لأحد غيره أن يخترعها. وتعاني ليلي كذلك من غياب والدتها التي توفيت وهي في الرابعة من عمرها. وكانت مسألة وفاتها أمرا يتحاشى الجميع الخوض فيه، غير مدركين أن ذاكرة ليلي لم تتخلص تماما من صدى العيار الناري الذي انطلق ذلك اليوم، بل إن تلك الذكرى تؤرقها وتجعلها واثقة من كونها شخصا لا يستحق الحب. ولتهرب ليلي من كل ذلك، فإنها تنزوي، بين الفينة والأخرى، إلى ركن قصي من المزرعة، وتركن إلى بعض الأشياء التي تبقت من مقتنيات أمها: زوج من القفازات البيضاء، وصورتان، إحداهما لوالدتها والأخرى لمريم السوداء وقد ألصِقت على إطار خشبي وكُتِب خلفها عنوان مبهم "تيبورون، ك. ج."، فما حكاية ذلك العنوان يا ترى؟



Madarek  مدارك

Madarek Publishing House

دار مدارك للنشر

